الألف كتاب (الثانى) ٤١

سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى

تأليف: جوزيف داهموس

ترجمة: د. محمد فتحى الشاعر



الألف كتاب (الثانى) ٤١

سبع معارك فاصلة
فى العصور الوسطى

سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى

تأليف

جوزيف داهموس

ترجمة

د. محمد فتحي الشاعر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

تصدير

متى تكون المعركة فاصلة ؟ يقول فليتشر برات Fletcher Pratt لكي تكون المعركة فاصلة « لا بد أن تشير بلا أدنى ريب الى احدى علامات التحول التى لولاها لأمكن أن تتعرض الأحوال الى قدر هائل من الاختلاف ولسار الحسم فى الاتجاه الآخر » (١) • ونظرا لأنه أغفل ذكر معركة هيستنجز Hastings بين المعارك التى اعتبرها فاصلة ، وهى المعركة التى أورد ذكرها معظم المؤلفين الآخرين ، فاننا نستطيع أن نقرر أن مسألة كون معركة فاصلة أو غير فاصلة انما هى مسألة ذاتية فى أغلب الأحوال •

ومن الممكن أن يعتبر الصرب معركة كوسوفو Kossovo التى حدثت سنة ١٣٨٩ م معركة فاصلة لأن الأتراك وضعوا حدا للطموحات العربية فى اقامة امبراطورية فى البلقان • ومن الممكن أن يحكم على تلك المعركة مواطنون أوربيون حكما مختلفا • أو يفكرون مليا فى السؤال الذى طرحه الناسك بولس على أنطونيوس فى القرن الرابع الميلادى ، عندما سأل فجأة بعد سنوات طويلة فى العزلة الصحراوية ، « ما هو حال الجنس البشرى ••• وامبراطورية من تلك التى تسيطر على العالم » (٢) فبالنسبة الى بولس لا يوجد شىء يتعلق بالانسان يمكن اعتباره حاسما على نحو تام ، وهذا افتراض يبدو أن المؤرخ الحديث أوتومينشين ــ هيلفين Otto Maenchen-Helfen كان مستعدا لقبوله • فعند حديثه عن هؤلاء العلماء الذين أخذوا على عاتقهم تبرير كتاباتهم التاريخية المفصلة علق

قائلا : « هل لى أن أشير الى أنى لم أتمكن من معرفة لماذا يلقى تاريخ باجا كاليفورنيا Boja California مثلا ، احتراما أكثر مما يلقاه الهن ، مثلا فى البلقان فى الستينيات من القرن الخامس » (٣) ٠

ان المعارك السبع التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب تستحق كلها اهتماما كبيرا ، نظرا للنتائج المهمة التى تمخضت عنها مباشرة ٠ وثمة معارك أخرى فى العصور الوسطى ربما كان لها نتائج حاسمة بقدر مماثل ٠ مثلما حدث فى معركة تورز tours (٧٣٢) ، ومعركة ليجنانو Leghano (١١٧٦) ، ومعركة أجينكورت Agincourt (١٤١٥) أو غيرها ٠ بيد أن المعارك السبع المختارة تستحق أن يرد ترتيبها بين أكثر المعارك الفاصلة أهمية ، برغم ما بذل من جهد لا يمكن انكاره ، كما يغطى اختيارها الوقت الزمنى للعصور الوسطى من شالون Chalons ٤٥١ ، الى أنقرة (١٤٠٢) ، وليطلع القارىء على العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى (اليرموك ٦٣٦ ، وحطين ١١٨٧ م) ٠

١ ـ الحرب فى العصور الوسطى

لكى نقوم بدراسة تمهيدية لموضـــوع تاريخ الحرب فى العصور الوسطى ، لا بد للمرء من الرجوع الى تدهور روما . اذ أن معظم دول أوربا فى العصور الوسطى ظهرت لأول مرة على امتداد الحدود الشمالية لتلك الامبراطورية وتأثرت عاداتها وثقافاتها ، ونظمها الاجتماعية بنفوذ روما الى حد ما ، ويدخل ضمن ذلك أساليبهم فى شن الحروب . وقد ساعد أســلاف كثير من شعوب تلك المنــاطق فى الدفاع عن حــدود الامبراطورية ابان قرون تدهورها . فمنذ القرن الثانى الميلادى ، استعانت روما لأول مرة بتجنيد من لم يتمتعوا بحق المواطنة من الذين عاشوا داخل حدود الامبراطورية ، ثم من الشعوب الوافدة حديثــا من خارج حدودها . وأدخل ماركوس أورليوس Marcus Aurelius عادة توطين آلاف من الجرمان داخل الامبراطورية حيث طلب منهم الدفاع عن الحدود . وفيما بعد جلب الامبراطور جوليان قبائل بأكملها ، ومنحهم وضـــع المحالفين Statu of Foederati من الناحية القانونية مع تحملهم مسئولية حماية المناطق التى عاشوا بها على الحدود ضــد الشعوب الأجنبية من غيرهم . وبحلول القرن الرابع كان جنود الجيش الرومانى غير رومانيين للدرجــة أن التعبير اللاتينى borbarus والذى يعنى أحــد البرابرة ، اكتسب الدلالة على أنه جندى .

ومن المؤكد بصفة عامة أن أعظم مآثر روما فى التاريخ هو أنها حفظت الكثير من مراحل التقــدم الحضــارى للعالم القــديم ، وعلى وجه الخصوص العالم اليونانى ، وسلمته الى الغرب . ويشير هذا الى أنه اذا كانت روما (وبلاد اليونان) لها تأثير على الفكر ، واللغة ، والقانون ، والدين ، والفن ، والعلم الطبيعى ـ ونعنى بذلك حضارة دول المستقبل فى غرب أوربا ـ فانها تركت أيضا بصماتها على فن الحرب الذى مارسته

تلك الدول الناشئة • وهي بالتأكيد فعلت ذلك ولكن بقدر محدود فحسب • ومن الحقيقة اللافتة للنظر أنه على حين كان لدى روما الكثير لتقدمه الى تلك الشعوب شبه المتحضرة ، فانها فى مجال الحرب كانت على قدم المساواة معها تقريبا • فأفضل جندى فى عالم يوليوس قيصر عندما فتح بلاد الغال (٥١ ــ ٥٨ ق • م) كان جندى المشاة من المواطنين الذين شكلوا الفرق الرومانية المشهورة • وبحلول القرن الرابع الميلادى ، كان هذا المحارب السابق مجرد ذكرى • اذ كان أكثر المحاربين فعالية فى هذا العصر المتأخر ، هو الفارس الذى يحمل السلاح ، وهو نوع من الجنود لم تكن روما قد استخدمته أبدا ، والواقع أنها اعتمدت على الشعوب غير الرومانية لتمدها بهم عندما دعت الحاجة • ان هذا الفارس قدر له أن يسود ميدان المعركة معظم الجزء الأكبر من العصور الوسطى •

ولقد أدركت روما بمرارة تفوق الفارس المسلح فى أغسطس ٣٧٨ م فى موقعة أدريانوبل Adrianople عندما أباد فرسان القوط الغربيون Visigoths « البرابرة » جيشا رومانيا ، وأردت امبراطوره قتيلا على أرض المعركة • اذ كان تحرك القوط الغربين من الأراضى السلهة الواسعة والخالية من الأشجار شمال البحر الأسود الى نهر الدانوب هربا من قبائل الهن Huns الذين طاردوهم بصفة مستمرة ، والذين انطلقوا من آسيا وأخضعوا بالفعل أبناء عمومتهم القوط الشرقيين Ostrogoths وعندما وصل القوط الغربيون الى نهر الدانوب ، منحهم الامبراطور فالنز Valens مكرها ، اذنا بالعبور والاقامة فى أراضى اقليم تراقيا Thrace وهناك قاموا بثورة بسبب سوء معاملة الموظفين الرومان لهم ، ثم قضوا على الجيش الرومانى فى أدريا نوبل مستخدمين أسلحة وخيولا كانت « بربرية » وليست رومانية • والشىء المهم أيضا عن معركة أدريا نوبل هو أنه على الرغم من استمرار روما فى حشد الجيوش ، فان تلك الجيوش أصبحت بمرور الوقت تزداد فيها عناصر « البرابرة » وتقل العناصر الرومانية بشكل ملحوظ •

وتشير معركة أدريا نوبل الى الانهيار الشديد والسريع للامبراطورية فى الغرب (أما القسم الشرقى من الامبراطورية ، والمعروف باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية ، أو بيزنطة ، فقد استمر لألف سنة أخرى) ــ وهؤلاء القوط الغربيون الذين قضوا على الجيش الرومانى فى أدريا نوبل ، هم الذين قادهم ملكهم الشهير آلارك Alaric ونهبوا مدينة روما سنة ٤١٠ م • وبعد موت آلارك بوقت قصير تحركوا غربا وأقاموا دول للمالك « البرابرة » فى جنوب فرنسا « بلاد الغال » وفى أسبانيا لسحب روما قواتها من حصونها الدفاعية

على امتداد الحدود الشمالية للتصدى لتحدى آلارك والقوط الغربيين ، انهارت تلك الحدود ، وعبرت أفواج من الوندال Vandals والسويفي Sueves ومن البورجونديين Bargundians والألن Alans ، والفرنجة Franks والانجلز Angles ، والسكسون Saxons « البرابرة » الحدود وأقامت لأنفسها امارات على الأراضى التى كانت تسيطر عليها روما من قبل ووافقت أغلبية تلك الشعوب على الاعتراف بالسيادة المطلقة لروما ، واقبلت الوضع القانونى كمحالفين حفاظا على ماء وجه روما . ان ذلك لم يكلفهم شيئا وانما ضمن لهم الحصول على القمح الرخيص من الأقاليم الافريقية التابعة لروما . كما حقق لهم قدرا من الاستقرار أيضا فى عالم كانت أحواله فى تغير مستمر . والواقع أن كثيرا من الشعوب اتحدت معا سنة ٤٥١ م ـ القوط الغربيون ، والفرنجة ، والبورجنويون ـ ضد عدو فرض اقترابه طرح أحقادهم جانبا على الفور .

كان الهن هم ذلك العدو ، وهم الذين شقوا طريقهم بالقوة فى الأراضى الواقعة شمال البحر الأسود حوالى سنة ٣٧٥ م وأقاموا امبراطورية مترامية الأطراف مركزها فى المجر Hungary وخلال سنوات قلائل أجبروا جيرانهم من القبائل الجرمانية على قبول سيطرتهم . ومن عاصمتهم على نهر ثيس Theisis حصلوا على الاتاوات من روما ومن القسطنطينية . على أن الالتزامات التى فرضوها على القسطنطينية كانت أكبر بكثير ، واستمرت فى الازدياد حتى سنة ٤٥٠ م ، عندما تحدى مارقيان Marcian الامبراطور البيزنطى ، أتيلا Attila ملك الهن ، وأعلن انتهاء دفع الاتاوة . ودفع هذا التحدى أتيلا الى قيادة جيشه الضخم من الهن غربا تجاه بلاد الغال . وفى سنة ٤٥١م ، عند شالون Chalons واجه أتيلا الجيش « الرومانى » وحلفاءه من القوط الغربيين ، والفرنجة ، والبورجنديين ، والالن ، فى احدى المعارك الفاصلة فى التاريخ . وكانت هذه المعركة بمثابة تهديد خطير كان من الممكن أن يفضى الى القضاء السريع على مراحل الحضارة الرومانية التى كانت فى طريقها الى التطور لولا الهزيمة المنكرة التى تعرض لها أتيلا وجماعته وعودتهم الى المجر ثم ظهر أتيلا للمرة الثانية فى العام التالى ، فى شمال ايطاليا فى تلك المرة ، بيد أن الخطر الهنى انتهى بعد وقت قصير ، وتركت الأمم الجرمانية لتقيم دولا خاصة بها بحرية كاملة تقريبا .

واتضح أن دولة الفرنجة فاقت الدول التى قامت حديثا نجاحا . فعلى عكس الشعوب الجرمانية التى عبرت الى داخل حدود الامبراطورية ، مثل القوط الغربيون والوندال ، لم يبتعد الفرنجة عن مواطنهم الأصلية أو يهاجروا الى أراضى بعيدة . اذ لم يبتعدوا كثيرا تجاه الغرب عن موطنهم

الأصلي شرق نهر الراين • وتحت حكم ملكهم المشهور كلوفس Clovis بسطوا السيطرة الفرنجية على الجزء الأكبر مما يعرف الآن باسم فرنسا • وحدثت خطوة مهمة ابان ظهور كلوفس ألا وهى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكي • وحقق له هذا الاجراء ولاء الهيئة الكهنوتية للكنيسة فى بلاد الغال ، وهى المؤسسة المنظمة الوحيدة التى ظهرت فى غرب أوربا •

وينسب جريجورى أسقف مدينة تورز الورع ، الى اله المسيحيين الانتصارات التى حققها كلوفس فى اجبار الشخصيات المهمة فى بلاد الغال على الاعتراف بحكمه وسلطانه • وبرغم مساعدة السماء المضافة الى ذكائه ، فان كلوفس احتاج الى محاربين وأسلحة لانجاز ما فعله • كانت أيام كلوفس فترة يكتنفها الغموض ، بيد أن هناك مبدأين عامين مقبولين بشكل معتدل يتعلقان بفن الحرب ويمكن ذكرهما : أولهما نوعية الحرب التى خاضها كلوفس ورجاله ، وكذلك الأسلحة التى استخدموها ، مما لم يختلف كثيرا عن الحالة عند جيرانهم ، وثانيهما ، أن تلك الحرب وما بها من أسلحة ظلت دون تغيير حتى النصف الثانى من القرن الثامن •

شكل جماعة خدام كلوفس قلب جيشه • وضمن كلوفس ولاء هؤلاء الرجال بمشاركتهم ثمار فتوحاته وبالقضاء على أى شخص حاول الاعتراض على سلطته • وكانت تلك الجماعات المسلحة شائعة ابان عصور الاضطراب عندما ضاعت هيبة السلطة الرومانية ، وكان ملوك الجرمان مجرد أسماء فحسب • اذ افتقر هؤلاء الملوك الى الثروة ، والجهاز الادارى والقوة المفروضة على الشعب التى تمكنهم من الحكم بفعالية ، اللهم الا اذا كانت سلطتهم فى مناطق محدودة •

وفيما يتعلق بنشأة تلك الجماعات الحربية ، يستطيع المرء أن يجد مفتاحا فى فرقة الزملاء Comitatus القديمة ، وهو اجراء نسبة تاكيتوس Tacitus المؤرخ الجرمانى الى الجرمان على عهده • اذ اعتاد شباب أى قبيلة على اسلام أنفسهم لقيادة محارب يعجبون به ، « يدافعون عنه ويتولون حمايته ، وينسبون الأعمال البطولية للفرد منهم الى فضله وشرفه » (١) • وهناك نمط بدائى أكثر اقترابا من فرقة الزملاء ، وجد فى الجماعات المسلحة التى بدأت الشخصيات الرومانية البارزة فى تجنيدها ، عندما أخذت السلطة الرومانية فى الضعف ، من أجل حماية أنفسهم وممتلكاتهم الزراعية • وعرف قادة تلك الجماعات المسلحة باسم الكونتات Counts (الكلمة اللاتينية Comes ، وتعنى رفيق كفاح) ، أو الأدواق dukes (الكلمة اللاتينية dux ، وتعنى قائد) ، وكونوا العمود الفقرى للسلطة الملكية فى العصر الميروفنجى (٤٥١ — ٧٥٢م) •

وبالاضافة الى فرقة الزملاء ذكر تاكيتوس أيضا عادة الجرمان فى الاحتياج الى قوات مسلحة من كل الرجال الأقوياء البنية • اذ كان مبدأهم القتال ، اذا لم تكن مسئوليتهم الوحيدة وفقا لأحوال القبيلة • ومن هذا التراث يستطيع المرء أن يتتبع الاشارات الى القوات المجندة ، التى وجدها العلماء فى وثائق لقصر الميروفنجى وربما تكون الاشارة عن حالة تجنيد عامة ، بالرغم من ندرة ذلك ، اذ أن تجنيد معظم الناس على هذا الوضع كان يفتقر الى الخبرة والاحساس بالنظام مما قلل من فائدتهم • ومع ذلك ، فان قوات مجندة ومنتقاة يمكن أن تكون مفيدة فى الدفاع عن أسوار مدينة أو فى القيام بواجب الحراسة ، أو فى المساعدة فى محاصرة مدينة ، أو فى تولى حراسة الأسرى • ولا شك أن الرجال الذين عملوا فى مثل هذه الخدمة العسكرية ورثوا وظائفهم عن آبائهم وأجدادهم ، الذين عملوا بالمثل فى الامبراطورية السابقة •

وقد وضع الأفراد المحظوظون من تلك الجماعات فى العصر الميروفنجى خوذا على رؤوسهم وارتدوا قمصانا بها دروع ، على الرغم من أن تلك الملابس الوقائية لا تضاهى مثيلتها التى لا يمكن أن تصاب بأذى والمستخدمة فى عصر الاقطاع • وحمل المحاربون تروسا أيضا • وأما عن الأسلحة فانهم اختاروا مجموعة منوعة من الرماح والحراب ، والسيوف ، والبلطات ، والأقواس والسهام ، والسكاكين ، التى اختلفت فى النوع والحجم ، وفقا لظروف القتال سواء كانوا مشاة ، أو على ظهور الخيل • وأثارت هذه النقطة سؤالا مثيرا للجدل والخلاف يتعلق بفن الحرب فى هذا الوقت ، وأعنى بذلك هل ركبت جماعات كلوفس ، وأبناؤه ، وأحفاده ، الخيول لمجرد هدف الانتقال أم أنهم حاربوا وهم على ظهور الخيل ؟

ان الدليل غير كاف وغير مقنع • فبعض الوحدات الفرنجية التى خدمت فى الجيش الرومانى فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، من الواضح أنها حاربت على ظهور الخيل • بيد أن الدليل يشير الى أنه حتى سنة ٧٣٢م قام جيش شارل المطرقة Charles Martel قائد الفرنجة بالذهاب الى محاربة المسلمين المغاربة على ظهور الخيل ، ثم ترجل جيشه عندما وصل الى ميدان المعركة ، وهزم الأعداء ثم ركب الخيل ثانية ، وطارد فلولهم وهو على ظهور الخيل • ومن المحتمل جدا احتفاظ الملوك الميروفنجيين ببعض الخيول ، نظرا لأنهم كان لديهم اتباع فى خدمتهم من الألن والسارماتيان Sarmatians والقوط ، وكلهم لهم تاريخ طويل فى استخدام الخيول فى الحرب ويرجع تأخر الفرنجة فى الأخذ بطريقة استخدام الخيول فى الحرب الى أنماط حياتهم فى موطنهم الأصلى حيث أعاقتهم الغابات الكثيفة عن استخدام الخيول •

وعلى الرغم من أن معركة تورز هي المعركة الوحيدة الكبرى التى حدثت طوال العصر الميروفنجي ، فان هنـاك عددا كبيرا من المعـارك الصغرى ، دارت حول المدن الكبرى والصغرى • ففى تلك الأماكن كان العدو يأمل فى الحصـول على الغنيمة ، وتركزت قوة العدو على المـدن المحصنة •. وتشير المصادر الى آلات المنجنيق (آلة تستخدم لدك أسوار المدن) (*) المحمولة على عربات ضخمة ، والمغطاة بستيفات من الخشب لحماية ما بداخلها من القذائف ، ومن السلالم المصنوعة من الحبال ، ومن الواقعين تحت الحصـار ، الذين كانوا يلقون مراجل من الزيت والقار المغلى ، على الذين يحاصرون أسوار المدن • وهناك اشارة أيضـا الى استخدام الحرفة البحرية فى تلك العصور • وربما يرجع ذلك الى عصور الامبراطورية عندما تولت روما الحفاظ على الأمن فى أنهار بلاد الغال ، أو تركت ذلك لمقدرة السكان •

وفى سنة ٧٥٢م ، أعلن بيبين القصير Pepin the Short ابن شارل المطرقة ، نفسه ملكا ، وأسس الأسرة الكارولنجيـة وهى الأسرة الفرنجية الحاكمة الثانية وحملت هذه الأسرة اسم شارلمان بن بيبين ، الذى أثبت أنه أشهر شخصيات تلك الأسرة وفوق كل ذلك فان انجازاته العسكرية الموفقة كانت سببا فى اضـفاء لقب « الكبـير » عليه ، اذ قضى عـلى اللومبارديين Lombards ، والآفار Avars وأخضع السكون Saxons الاشداء ، وشيد امبراطورية بلغت حدودهـا من الدانمرك الى كرواتيا Croatia ومن روما الى جبال البرانس حتى أراضى أسبانيا •

وفيما يتعلق بفن الحرب ، فقد شهد عصر شارلمان انطلاقه فى الاتجاه الى جعل الفارس المسلح سيد ميدان المعركة دون منازع • فلم يكن أمام شارلمان من خيار سوى الاعتماد الكلى على الفرسان نظرا لأن جيوش أعدائه الثلاثة ــ المسلمون المغاربة فى أسبانيا ، واللومبارديين فى ايطاليا ، والآفار فى شرق أوربا ــ تكونت بصفة أساسية من الفرسان • واذا ما كان شارلمان راغبا فى القضاء على هؤلاء الأعداء الذين طوقوا مملكته ، فلم يكن أمامه من خيار سوى تجنيد فرسان مملكته ، ومشاركتهم فى القتال وفقا لشروطهم •

وهناك تفسير شخصى للاتجاه نحو استخدام الفرسان على أنه تطور أرجعه العلماء الى أوائل القرن الثامن الميلادى • هذه هى المقدمة لاستخدام الخيول فى الحرب • واستمر التفكير فى منشأ الخيل وبداية ظهورها فى

(*) ما بين حاصرتين ايضاح من المترجم •

أوربا على وجه التحديد بيد أنه لا ريب فى أهميتها بشأن التأثير القوى على فن الحرب . وفى هذه المرحلة أثبت الفارس المسلح أنه محارب لا يقهر باستخدامه الرمح ، والقوس ، والسهام ، والسيف غير أنه نظرا لافتقاره الى قلعة ثابتة لكى يعمل عليها ، فلم يكن شديد الدقة ، كما لم يتمكن من استخدام أسلحته بقوة كاملة . اذ كان الجواد الذى يمتطيه بمثابة القاعدة التى يعمل عليها . وما أن وجد الفارس نفسه مشدودا باحكام الى ظهر جواده ، حتى استطاع أن يقذف برمحه بأقصى سرعة ودقة ، واستطاع أن يسدد طعنة قوية بسيفه واستطاع أن يقف فى ركاب جواده ، وأن يسدد ضربة قاضية ، باستخدام أقصى قوته فى استعمال قضيبا شائكا لكسر الدروع mace أو فأس الحرب battle-axe .

ولم يحدث ذلك فى يوم وليلة ، بل أنه ابان عصر شارلمان استمر جزء كبير من جيشه يتكون من المشاة . ومن الجدير بالذكر أن مجموعة الشرائع فى عهده الزمت كل الرجال الذين لديهم اقطاعات ـ ممتلكات زراعية منتجة بقدر كاف للوفاء بحاجاتهم أن يعملوا كفرسان وأن يزودوا أنفسهم بالترس ، والرمح ، والخنجر ، والقوس ، وجعبة السهام ، والسهام . وعلى الأرجح لم يمضى وقت طويل قبل أن تختفى الحاجة الى القوس والسهم عندما اكتشف الفارس أن أسلحته الأخرى أكثر فعالية بكثير وأسهل فى الاستعمال .

ان ظهور الفارس المسلح فى مركز التفوق بلا منازع فى ميدان القتال فى القرن التاسع الميلادى لم يعمل على تطوير فن الحرب فحسب ، وانما غير بدرجة كبيرة من البنية الأساسية والاجتماعية للمجتمع . والأمر الأساسى الذى يفسر هذا العبء الثقيل الذى ألقى على عاتق المجتمع هو التكاليف الباهظة للحصان الواحد التى قدرت فى ذلك العصر بما يعادل قيمة أربعة وعشرين ثورا تقريبا ، فى وقت كان ينظر فيه الى المزارع الذى يمتلك ثورا واحد على أنه سعيد الحظ .

فان المشكلة الخطيرة التى واجهت الملك أو الاقطاعيين الكبار هى من أين يجدون الوسائل التى تمكنهم من تحويل جيوشهم أو الجماعات الحربية من الاتباع من جنود من المشاة الأرخص نسبيا الى الفرسان الذين كانت تكاليفهم باهظة .

ونظرا لأن هذا العصر كان عصر اقتصاد زراعى لم يستطع الملك فيه سوى تحقيق دخل حكومى قليل من المكوس ، والضرائب الأخرى من التجارة ، فانه كان مضطرا الى اللجوء الى الأرض ليحصل على الموارد

المالية ليجهز فرسانه • وفعل ذلك بتوزيع قطع من ممتلكاته الزراعية على محاربين مختارين فى بداية الأمر ، ومن دخل تلك الأراضى الزراعيـة ، أمكن الحصول على الحصان ، والمستلزمات الحربية والأسلحة • وعندما أوشكت الأراضى الزراعية على الاجهاد ، اتجه الملك الى الكنيسة ، كما فعل شارل المطرقة ، وأصر على أن يسلم الأسـاقفة ورؤسـاء الأديرة الاقطاعات الزراعية للمحاربين ليتمكنوا من الحصول على ما يحتاجون اليه • وفى مدى سنوات قلائل ، فرض على كل الرجال الذين يمتلكون قدرا معينا من الأراضى الزراعية ، كما ورد ذكره فى مجموعة القوانين ، أن يتقدم بحصان كامل العدة ، والمعدات ، والأسلحة ، عندما يستدعيه الملك ، أو سيده الاقطاعى •

وعلى ضوء التأكيد على الأرض باعتبارها المصدر الذى يجهز الفرسان المسلحين كانت النتيجة الحتمية لذلك هى ظهور الطبقة الارسـتقراطية المالكة للأرض ، التى هيمنت على كل جوانب الحياة تقريبا ابان فترة توازن العصـــور الوسطى • وعلى حين استمرت الشهرة السياسية والاجتماعية لهذه الطبقة فترة طويلة ، بعد أن فقدت مبرر وجودها – وهو القدرة على تجهيز الفرسان المسلحين وقيادتهم فى المعركة – فان دورهم ظل واضحا طوال الفترة من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر ، وهي الفترة التى يطلق عليها عصر الاقطاع • وابان تلك القرون ظلت قوة الملك أو السيد الاقطاعى تحسب وفقا لقدرته على الحصول على فرسان تابعين له بالاضافة الى ما يستطيع أن يقدمه اليه أتباعه الاقطاعيون من فرسان •

على أن التفوق العسكرى للفارس ابان عصر الاقطاع ، وما له من تأثير على المجتمع فى العصور الوسطى ، انما كان مرده فى المقام الأول للتكاليف الباهظة ، لمعدات الفارس الحربية ، وأسلحته وجواده • وتكونت أسلحته الهجومية من الرمح ، والقضيب الشائك لكسر الدروع والسيوف• وكان الفارس يضع على رأسه قلنسوة مخروطية الشكل من الصلب وفى العادة وكان لها امتداد طولى فوق الأنف لحماية الوجه ، وفيما بعد وضعت لوحة معدنية من خلفه لحماية الجزء الخلفى من الرقبة واستعمل قميص به حلقات معدنية يصل حتى الركبة وحمل الفارس ترسا أخذ حجمه فى الصغر كلما ازدادت ملابسه الحربية قوة • وبنهاية القرن الثانى عشر أصبح شائعا استخدام خوذة على شكل قدر اسطوانى الى حد كبير وبه شقوق طولية للعينين • وفى ذلك الحين أيضا ، أصبح قميص الفارس الذى به الدروع طويلا لقدر كاف حتى أصبح قسمين فى النهاية لغطاء الساقين حتى أنه وصل الى الحذاء • وتمت أيضا أطواق من الحديد قدميه •

وكان الحديد يحمى هؤلاء الفرسان بشكل كامل فى القرن الثانى عشر لدرجة أن الأتراك أطلقوا عليهم « الناس الحديد » • بيد أن تلك التعديلات تكلفت أموالا باهظة للغاية ، لذلك بدأت اعداد الفرسان ثقيلى العدة فى هبوط مطرد وبدأت تظهر طبقة من الخيالة خفيفة العدة نسبيا ، أطلق عليها اسم « المساعدون «Sergeants » •

وكان الحصان أساسيا بالنسبة لفعالية الفارس فى ميدان المعركة بنفس درجة معداته الحربية وأسلحته • ويستطيع الفارس أن يتحدى أى عدو وهو على ظهر جواده المفضل • غير أنه اذ ترجل من على صهوة جواده استطاع أى جندى متواضع من المشاة أن يطعنه أو يحتفظ به من أجل الفدية • وكما ارتدى الفارس معدات حربية ثقيلة ليحمى نفسه ، فانه فعل ذلك قدر استطاعته مع ركوبته • اذا كسا جسد جواده بدروع مرنة ذات زرد ، وكانت تقترب من الأرض شريطة الا تعوق سرعة حركته • ولسوء الحظ فان ذلك لم يكن كافيا أبدا لحماية بطن الحصان من طعنة خنجر أو سكين أو سن مدبب لرمح غرزه العدو بالأرض • لقد أثبت جواد الفارس أنه عقب أخيل Achilles heel فى أغلب الأحوال •

وثمة عامل آخر فى الاقطاع الحربى ساهم فى ايجاد طبقة ارستقراطية متعالية من ملاك الأراضى • هذا العامل هو القلعة • اذ ظهرت القلاع فى العصر الكارولنجى ، وازداد عددها ابان سنوات الاضطراب فى أواخر القرن التاسع • وفى القرن العاشر ، عندما تدهورت أحوال الامبراطورية الكارولنجية وفقد الملوك معظم سلطتهم • وفى انجلترا برز للوجود الكثير من القلاع فى عهد ستيفين Stephen الضعيف (١١٣٥ ـ ١١٥٤ م) • وفى عدد القلاع وازدياد شهرتها اشارة الى وجود ملك يملك أكثر مما يحكم بصفة عامة •

كانت القلاع الأولى مبانى صغيرة قوية تستخدم كمأوى ضد هجمات العدو يحميها سور من الحديد القوى المدبب ، أو من الأعمدة الخشبية ومحاطة بخندق مائى ، وغالبا ما كانت تقام فوق تل للعمل على زيادة قوتها ولسهولة التعرف عليها • وفى القرن الثانى عشر حلت القلاع المبنية من الأحجار محل القلاع الخشبيه نتيجه للتجربة التى استفاد منها المسيحيون ابان الحروب الصليبية عندما عرف الفرسان المسيحيون الجديد عن القلاع المنيعة فى سوريا • وكان النمط العادى للقلعة هو المبنى الذى له سور خارجى motte - bailey وتكون بصفة أساسية من كومة عالية من الأحجار ، وفناء • وعلى الكومة العالية من الأحجار يقام الحصن ، والذى عرف باسم البرج الضخم أو المعقل donjon or keep ، الذى بلغ ارتفاعه أحيانا مائة قدم أو يزيد ، وفناء يحميه سور ضخم عال ، وخندق مائى

عميق يحيط بالسور ، وجسر متحرك فوق الخندق المائى ، للتحكم فى الدخول الى الحصن أو الخروج منه • وحتى انتشار البارود والمدفع الضخم المثبت فى القرن الخامس عشر ، استطاعت أسوار القلاع أن تتحدى جهود أى مهاجم افتقر الى الوسائل التى تمكنه من فرض حصار لفترة طويلة ، وتعريض المحاصرين للموت جوعا • وفى عصر كانت فيه وسائل النقل صعبة ، والخدمات المطلوبة للفارس وجندى المشاة محدودة ، فان فرض الحصار الطويل لم يكن من السهل تحقيقه •

ومع الاهتمام الشديد الذى حظيت به الطبقة الارستقراطية وكذلك الفارس فى الكتب والصور التى تصف عصر الاقطاع ، فلم ينس الفرد أبدا أن جندى المشاه لم يختف من الصورة على الاطلاق •

فالحقيقة أن مكانته لم تنخفض انخفاضا شديدا ، على امتداد الحروب • واستطاع الفارس طرده تقريبا من ميدان المعركة ، على حين انخفضت مكانته الاجتماعية أكثر عندما تولت طبقة ملاك الأراضى المراكز القيادية ، وبرغم ذلك ظل جندى المشاة محتفظا ببعض الأهمية • اذ كان يستخدم فى حماية قلعة ، وفى المساعدة فى الدفاع عن المدن المسورة ، وبخاصة فى ايطاليا ، وفى بلاد الأراضى المنخفضة Low Countries وساعد فى نقل المعدات وكل ما يلزم لطبقة الفرسان وكان متوقعا أن يقود فرسا آخر على استعداد لتقديمه للفارس عندما يفقد فرسه الأول • ويستطيع جندى المشاة التغلغل بين صفوف الفرسان المعادين ، ويطعن خيولهم أو يشل حركتهم ، وفى استطاعته قتل أو أسر أى فارس يقابله ، وقد فقد ركوبته ، ومع ذلك ظلت هذه المهام أعمالا اضافية •

ان تاريخ الجيوش المتكونة من المشاة الذين كانوا على استعداد لشن الهجوم فى القرن الخامس عشر الميلادى لا يعود بنا الى هؤلاء الجنود الذين انتشروا بين صفوف الفرسان ، وانما الى جنود المشاة الذين حاربوا دائما باعتبارهم مقاتلين محترفين • ووجدت تلك النوعية فى ويلز Wales واسكتلندا ، وسويسرا حيث أعاقت الأراضى الجبلية استخدام الفرسان ، أو فى بلاد الأراضى المنخفضة ، وفى شمال ايطاليا ، حيث احتاجت المدن المسورة الكبيرة والصغيرة منها الى وجودهم للحماية وأعمال الحصار • فبفضل جهود المشاة استطاع الملوك الانجليز مد نفوذهم على ويلز ، وهو الأمر الذى لم ينجحوا أبدا فى تحقيقه مع الشعب الاسكتلندى • ان ممرات جبال الألب فى سويسرا مكنت سكان المناطق الجبلية من الحاق سلسلة من الهزائم الشنيعة بالجيوش الاقطاعية لأسرة هابسبورج Hapsburgs والحصول على استقلالهم • ان جنود المشاة فى أقليم فلاندرز Flanders حالوا دون تحقيق طموحات الفرنسيين فى الاستيلاء عليهم

مرارا وتكرارا كما حدث في موقعة كورترالى courtrai سنة ١٣٠٢م ٠ وفي ايطاليا كان لجندى المشاة الفضل فى تحقيق انتصار مدن شمال ايطاليا على فردريك بربا روسا frederick Barkarossa الامبراطور الرومانى المقدس ، فى موقعة ليجنانو Legnano سنة ١١٧٦م ٠

وتفاوتت أنواع الأسلحة التى استخدمها هؤلاء المشاة الى حد ما وفقا للفترة التاريخية ، والبلد ، والمنطقة ٠ وبعض هذه الأسلحة كان لا مثيل له فى مكان آخر مثل فأس الحرب الدانمركية التى لها مقبضين واستخدمها الانجلو سكسون نقلا عن الغزاة الدانمرك ٠ وكان السلاح الواحد الذى يضم رمحا وفاسا للمعروف halberd شائعا بين أهالى سويسرا ، وهو نوع من الرمح طوله حوالى عشرين قدما ، ويحمل مجموعة منوعة من الأدوات الملحقة المدمرة فى طرفه : خطاف ليجذب به الفارس أرضا من فوق جواده ، ورمح ، وفأس معركة يستطيع أن يصوبه جندى المشاة القوى بأقصى قوة ينجم عنها تحطيم درع أفضل الفرسان من حيث العدة القتالية ٠ واشتهر أهالى ويلز بأقواسهم الطويلة التى استخدموها بدقة وقوة فائقة ٠ ويدعى جيرالد من ويلز Gerald of Wales مؤرخ شعب ويلز الذى اتصف باطالة الحديث عن الأمور غير المهمة أنه شاهد أطراف سهم انطلق من القوس الطويل ، وقد انغرز لمسافة أربع بوصات فى باب مصنوع من خشب البلوط ٠ وتحدث أيضا عن فارس تسمر جسده بجواده بسهم اخترق أطراف قميصه الحربى وسرواله القصير ، وفخذه ، وصهوة فرسه ، الى أن استقر جزء من السهم فى خاصرة جواده ٠

وهناك القوس والنشاب ، وهو أشد فتكا برغم أنه أقل دقة وأكثر صعوبة فى اطلاقه ٠ ويرتبط هذا السلاح فى العادة بالقوات المرتزقة من أهالى جنوة ، الذين كانوا من بين أول المواطنين فى أوربا الذين حاربوا لقاء أجر ٠ وتنطلق قذيفة هذا السلاح بقوة مروعة وتشوه أى شخص تشويها شديدا ان لم تقتله ٠ انه كان سلاحا وحشيا للغاية لدرجة أن الكنيسة أصدرت قانونا كنسيا بتحريم استخدامه ٠ ثم يأتى دور الرمح حيث يتم دفن طرفه الغليظ فى الأرض ، أو يغرس فى الأرض بالضغط عليه بالقدم ، عند ذلك يمكن لهذا الرمح أن يبقر بطن أى جواد مهاجم ٠ وبصرف النظر عن تلك الأسلحة الخاصة فهناك الأسلحة الشائعة مثل السكاكين ، والخناجر ، والسيوف الطويلة ، وبلطات الحرب ، والسيوف المعقوفة عريضة الشفرة ، والقبضة الحديدية ، والرماح ، وكلها مجموعة أسلحة جندى المشاة ٠ ومن أجل الوقاية استخدم جندى المشاة ما يمكن أن يحميه ، مثل الخوذة عندما كان ذلك متاحا ، واستخدم تروسا ، وقميصا به دروع ، وقفازات حديدية ٠

وعلى الرغم من أن جنود المشاة استطاعوا تحدى تكبر الطبقة الأرستقراطية الاقطاعية وفرسانهم فى أماكن من بلاد الأراضى المنخفضة وسويسرا ، فان هذه الطبقة المغرورة التزمت فى النهاية بالسلوك الحسن عند ظهور حاكم قوى . ان الظروف التى ساهمت فى اضعاف الدولة فى أوائل العصور الوسطى بدأت تعمل لصالح الدولة بعد نهاية عصر الاقطاع . ففى نهاية القرن الحادى عشر ، وبعد أن أشبع الفايكنج والمجر رغباتهم أو تم استيعابهم ، بدأت أوربا تنعم بحالة استقرار وسلام نسبى وانتشرت الصناعة والتجارة ، وازدادت المدن الكبرى والصغرى فى العدد ، وفى الكثافة السكانية ، وبدأ قدر متزايد من تدفق رأس المال يعمل على تنشيط اقتصاد غرب أوربا وفى وقت قصير استطاع الملوك جمع دخول حكومية كبيرة الى الحد الذى مكنهم من تمويل معظم تكاليف الحرب وانتزاع توجيه الحرب من أيدى الطبقة الارستقراطية المالكة للأرض الذين اعتمد عليهم الملوك من قبل . فعلى سبيل المثال ، سمح هنرى الثانى ملك انجلترا لأتباعه الاقطاعيين بدفع مبلغا محددا عرف باسم البدلية . بدلا من تأدية الخدمة العسكرية . ومن هذه المبالغ استطاع هنرى الثانى استئجار قوات مركزية ، وتعيين قادة لها وفقا لاختياره . ولقد عبرت الكنيسة ، وكذلك الصليبيون عن تأييدهم لظهور الملوك نظرا لأنهم هم الذين لبوا دعوة البابوات بصفة عامة لقيادة الجيوش المحاربة ضد غير المسيحيين . وبفضل ازدياد قوة الحكومات الملكية ، عقدت الكنيسة الآمال الكبرى على اقامة عالم مسيحى ينعم بالسلام .

كان وليم دوق نورماندى أحد الحكام الأول الذين تعاملوا مع أتباعهم الاقطاعيين بحزم ، وهو المشهور بوليم الفاتح لانتصاره فى موقعة هيستنجز فى سنة ١٠٦٦م التى على أثرها صار ملكا على انجلترا . وبعد ذلك بوقت قصير وضع لويس السادس ، ملك فرنسا أسس سلطة ملكية قوية استخدمها حفيده فيليب الثانى أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣م) فى مد سلطته الى معظم فرنسا . وكان أروع انجاز حققه فيليب هو حرمان حنا ملك انجلترا الذى كان تابعا اقطاعيا له ، ويحكم غرب فرنسا ، من تلك الأقاليم ، وهى نورماندى ، واقطاعات أخرى شمال نهر اللوار . وفى سنة ١٢١٤م شدد فيليب قبضته على تلك الأقاليم ، بعد أن هزم أتو الخامس ملك المانيا ، وحليف حنا فى موقعة بوفين . وبعد ذلك بمائة عام تقريبا ، كان فيليب الخامس يأمل فى استكمال العمل الذى بدأه فيليب الثانى ، وطرد الانجليز كلية من فرنسا ، غير أنه منى بهزيمة منكرة فى موقعة كريسى سنة ١٣٥٦ م . واستغرق ذلك الأمر قرنا آخر من الصراع قبل أن يتم انجازه فى حرب المائة عام (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣ م) .

وكما ذكر من قبل ، فقد كانت الكنيسة أحد عوامل ظهور السلطة الملكية . ففى القرن الحادى عشر ، أوشكت البابوية أن تنزلق فى مستنقع النزاع السياسى الايطالى ، وناضلت من أجل انتزاع قدميها بمساعدة الملك الالمانى . ثم أخذت على عاتقها مهمة قيادة أوربا لشن الحمـــلات العدوانية ضد الاسلام التى عرفت باسم الحروب الصليبية بهـــدف استعادة السيطرة المسيحية على فلسطين والاراضى المقدسة . ولم يشترك ملك واحد فى الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) . اذ كان الاقطاع فى أوج قوته فى تلك الفترة ولم يكن الملوك فى العـادة يزيدون قوة عن أتباعهم الاقطاعيين الذين لديهم تطلعات قيادية . بيد أن ملكى فرنسا وانجلترا توليا قيادة الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩م) ومن ذلك الحين فصاعدا ، أصبح من عادة الملوك قيادة جيوش بلادهـم بناء على مطالبة البابا الملحة .

ولا توجد مشكلة استحوذت على جهد واهتمام البابـوية منـــذ القرن الحادى عشر حتى نهاية العصور الوسطى مثل تنظيم الحمـلات الصليبية ضد تركيا . ولمعرفة الخلفية التاريخية لتلك الحملات ، فعلى المرء أن يرجع الى ظهور الاسلام والدولة التى أقامها محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) كدولة دينية سنة ٦٣٠ عندما فتح مكة المكرمة . ثم حمل الخلفاء (الراشدون) (*) ، بعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) الدعوة الاسلامية الى خارج حدود شبه الجزيرة العربية وعند نهـر اليرموك أحرزوا نصرا حاسما سنة ٦٣٦ م على الجيش البيزنطى ، وسيطروا على سوريا وفتح لهم الطريق الى فتح مصر وشمال أفريقيا بسرعة . وبعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) وضع شارل المطرقة حدا للتوسع الاسلامى عندما هزم المسلمين المغاربة فى موقعه تورز سنة ٧٣٢ م .

وفى ذلك الحين ، وبرغم امتداد الدولة الاسلامية من نهر الهندوس الى بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ، ومصر ، وشمال أفريقيا وعبر آسيا الى جنوب غرب فرنسا ، فان غرب أوربا ظل فى حالة من القلق غـــير الحاد . ان الامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية هى التى زودت الغرب المسيحى بالشعور بالامن وعزلته عن أى هجـوم خطـير من قبـــل المسلمين ، اذ أن ســـيطرتها على أناطوليا Anatolia والقسطنطينية ظهر فى تصديها بصفة مستمرة لمحـــاولات المسلمين الوصـول الى البلقان . وفى سنة ١٠٩٥ م أرسل الامبراطور البيزنطى طلبا ملحا للبابا أوربان الثانى Urban II للمساعدة ضد الاتراك

(*) ما بين خاصرتين من عند المترجم .

السلاجقة ، الذين استولوا على الجزء الأكبر من أناطوليا • ان الغرب قد أخذ على عاتقه مهمة الحملات الصليبية تحت قيادة البابوية لتدعيم أركان الدولة البيزنطية الى حد ما ، وبصراحة أكثر لطرد المسلمين من بيت المقدس ومن بيت لحم •

حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحا كبيرا اذ لم تقتصر نتيجتها على الاستيلاء على بيت المقدس فحسب ، وانما تلى ذلك بعد فترة قصيرة قيام سلسلة من الامارات المسيحية التى امتدت على طول ساحل سوريا الى الشمال • ومع ذلك ، فان مجرد نظرة الى الخريطة تكفى لتحذير أى فرد من غرب أوربا أنه ليس من الواقع فى شىء أن يفكر فى السيطرة على تلك الأراضى اذا ما اتجه المسلمون • ان صلاح الدين هو الرجل الذى استطاع توحيد معظم المسلمين ، وأظهر ضعف مركز المسيحيين • ان انتصاره الساحق على جيش الصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧ م ، وما تلاه من فتحه بيت المقدس ، كان أروع أعماله فى حياته •

دفع نجاح صلاح الدين فى فتح بيت المقدس ومن ثم انهائه تقريبا الوجود المسيحى فى سوريا ، دفع الملوك الثلاثة الذين يقودون أوربا — ريتشارد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفريدريك بربروسا ملك المانيا — الى القيام بالحملة الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ — ١١٩٢ م) • وتبع ذلك حملات صليبية أخرى دون تحقيق نجاح كبير ، ومات لويس التاسع سنة ١٢٧٠ م ابان حدوث ما عرف باسم الحملة الصليبية الأخيرة • وواصلت الحركة الاسلامية موقفها الهجومى ، بظهور الاتراك العثمانيين فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فى الوقت الذى ذهبت فيه كل ما يتعلق بنوايا الفتح المسيحى لسوريا ، ادراج الرياح ففى ذلك الحين أصبح شغل البابوية الشاغل وكذلك أوربا المسيحية هو عرقلة تغلغل الاتراك فى البلقان • وتحت الحاح البابوية المستمر ، أعد غرب أوربا جيشا ضخما سنة ١٣٩٦ م تقدم بحذاء نهر الدانوب ، والبهجة تعلو وجوه الجميع لتوقعهم احراز نصر مبين ، الى أن وصلوا الى مدينة نيقوبوليس Nicopolis وفى ذلك المكان استطاع بايزيد السلطان التركى وجيشه تمزيق الجيش المسيحى شر ممزق • ان بايزيد الذى عرف باسم الصاعقة ، كان يتطلع الى الاستيلاء على مدينة القسطنطينية اذ أن استيلاءه عليها يعطيه السيطرة الكاملة على جنوب شرق أوربا ، وأكبر المدن فى العالم الغربى • وكان فى استطاعة بايزيد الاستيلاء على القسطنطينية فى ذلك الحين لولا الخان المغولى ، تيمور الأعرج • حيث فقد بايزيد جيشه فى موقعه أنقره سنة

١٤٠٢ م على يدى تيمور وبعد ذلك بوقت قصير مات أسيرا فى سرقند عاصمة تيمور ٠

ان معركة أنقرة تحمل علامتين فارقتين للعصور الوسطى ٠ فعلى الأرجح أنهـا اعتمدت على عـدد من المحاربين ، الذين كانوا بلا ريب من الفرسان يفوق بكثير عدد قوات أى معركة قبل العصور الحديثة ، وأنها كانت احدى المعارك الكبرى الاخيرة التى لم يلعب فيهـا البارود والمدافع الضخمة دورا بارز ٠ ووصل تأثيرهما الى العصر الحديث ، الذى كان فجره على وشك البزوغ ٠

٢ ـ معركة شالون

من بين الصور التاريخية التي تثير اهتمام المرء ، والتي قام بصنعها الفنان رفائيل Raphael لوحته الجصية التي تحمل عنوان « البابا ليو الكبير وأتيلا » ففي اللوحة الجصية يظهر البابا محاطا بالكرادلة وبعض رجال الكنيسة الآخرين في مواجهة ملك الهن وجماعته من المحاربين كما يظهر والدخان والدمار الذي يدل على قدوم أتيلا Attila وأن مصيرا مماثلا في انتظار روما ، وامتلأت خلفية اللوحة ببعض مبانيها المشهورة ، بما فيها مدرج روما القديم ، الكولوسيوم Colosseum وفي الصورة تظهر يد ليو مرفوعة ، ويبدو بوضوح أنه يأمر ملك الهن بالعودة من حيث أتى • على أن أروع الشخصيات التي ظهرت في الصورة بطرس الرسول وبولس الرسول وهما يحومان في السماء فوق البابا ليو وفي أيديهما سيفان يهددان أتيلا بالموت اذا ما حاول أن يتحدى أمر البابا ، ويستفاد من القصة التي تحكيها هذه الصورة أن أتيلا ارتد على أعقابه ، متأثرا اما بالموقف الصلب الذي سلكه الحبر المقدس أو بسيفي الرسولين ، وانه انسحب ومعه جيشه الى المجر Hungary •

وفيما يتعلق بصحة الاحداث المترابطة مع الحياة الواقعية المعبرة عن الماضي والتي تكون عرضة لرفضها ، فان بهذه القصة شيئا من الصحة ، اذ أن البابا ليو قابل أتيلا بالفعل ، ومن المحتمل أن هذه المقابلة تمت في أواخر صيف سنة ٤٥٢ م ، على بعد حوالي ستين ميلا شمالي روما بالقرب من شاطيء بحيرة جاردا Lake Garda حيث كان ملك الهن معسكرا • ولم يرافق ليو في هذه المهمة أحد من الكرادلة ـ اذ لم يتم التعرف عليهم وعلى قبعاتهم الحمراء الا بعد ذلك بكثير ـ وانما

رافقـــاه اثنـان من أشـــهر رجـال السـناتو المشـهورين : همـا ترجيتيوس Trygetius وافينوس Avienus كمـا أن طبيعـة مباحثاتهم مع أتيلا ليست معروفة ولم يذكر البابا ليو شيئا عن المحادثة كما ذكر المؤرخ المسيحى بروسبير Prosper الذى كتب تقريرا عما حدث بعد هذه الحادثة بسنوات قلائل • أما عن الرسولين وسيفهما فلم يظهر الا لاعطاء زخرف لقصـــة بروسبير فيما بعـد ، ومع ذلك ، تبقى حقيقة أن أتيـلا عـاد الى المجر فور اجتماعه بالبابا ليو • كما أن هـذه الحادثة سبقت القصة •

كان أتيلا أشهر القادة « البرابرة » الذين أحدثوا الخراب والدمار لإمبراطورية الرومانية ابان فتـرة تدهورها • ولقـــد فعل ذلك ملوك برابرة آخرون • على أن كلمـة برابرة كانت تستعمل على نطـاق واسع بمعنى غير الرومانيين أو شبه المتحضرين وكان الاريك Alaric ملك القوط الغربيين أول رؤساء القبائل الجرمانية العـــديدين الذين « اجتاحو » مدينة روما • اذ فعل ذلك سنة ٤١٠ م • وبعد ذلك بخمسة واربعين عاما قام الملك الجرمانى جزريك Gaiseric الوندالى ، الذى حكم شمال أفريقيا غربى مصر بنهب المدينة الخالدة Eternal City مرة ثانية • وجاء أودواكر Odovace بعـد أتيلا ، الذى يحتمل أن يكون جرمانيا سكيرنا Scirian وكان أقل رعبا كقائد من الآخرين، على الرغم من أنه حظى بشهرة راسخة على أنه الرجل الذى عزل رومولوس أوغسطولوس Romulus Augustulus آخر « الاباطرة الرومان » فى الغــرب • وبعـد أودواكر جـاء ثيودوريك الذى جعل ايطـــاليا قاعدة لمملكة القوط الشرقيين القوية الشكيمة التى اقتطعها من الامبراطورية التى كانت تحتضر • هؤلاء وملوك آخرون من البرابرة حظوا بشهرة فى تاريخ تدهور الامبراطورية الرومانية أكثر من أتيلا الذى ينتمى الى قبائل الهن ، وبرغم ذلك اسـتمرت شهرة أتيلا على أنه أشـد الأعـداء تخريبا ، واثارة للفزع حيث تعرضت لافعاله الامبراطورية الرومانية المنهارة ابان فترة تدهورهما •

والشىء الذى أعطى أتيلا هذه السمعة المخيفة هو ميل الكتاب فى العصور الوسطى الى الاشارة اليه على أنه « سوط الله » Scourge of God فيرى الكتاب المسيحيون أن غضب الله وعقابه للبشر على خطاياهم ، قد لحقهم لانغماس الانسان فى الرزيلة • ولئن كانت بعض الكوارث لهـا جذور طبيعية محضة فانها لم تكن تثير الخـراب والدمار ، كمـا تنتج عن أعمال أتيلا والهن التى أحدثت خرابا مروعا • حقيقة أن أتيلا لـم

يحتل مدينة روما على الاطلاق غير أنه كانت هناك ملامح خاصة عنه وعن شعبه تركت الرومان أكثر ذعرا عند التفكير في قدومه أكثر من تفكيرهم في الاربك ، على سبيل المثال ، والذى « نهب » مدينة روما فعلا • فقبل كل شيء لم يكن أتيلا مسيحيا كما كان الاربك ، وعلى الرغم من أن الاربك كان أريوسيا فانه كان مسيحيا لا يؤمن بمذهب الكنيسة الكاثوليكية • بيد أن الطوائف المسيحية التى لا تدين بمذهب الدولة كان ينظـــر اليها على أنها أفضل بكثير من الوثنيين من أمثال أتيلا • كما أن الروايات التى قدمها المعاصرون عن الهن جعلت الشعب المتحضر يرتعد خوفا • وهل يوجد من شيء سوى أتيلا وجيشه الذين دفعوا شعوبا مختلفـــة وكثيرة الى نبذ عداواتهم المتبادلة وحمل السلاح ضده فى موقعة شالون Chalons ففى هذه الموقعة كانت كل الشعوب من نهر الفولجا Volga الى المحيط الأطلسى اما متحالفة مع ملك الهن العنيد أو ضده كما ذكر المؤلف ادوارد جيبون فى كتابه «تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية» •

قليل من الرومان شاهدوا الهن ، بيد أنهم سمعوا عنهم ، وعـن أساليبهم الوحشية ، من المسافرين والعبيد الذين سقطوا فى ايديهم ، ووفقـــا لمـا ذكره جوردين Jordanes فانهم كانوا من ذريـة الساحرات والأرواح النجسة ، ولا عجب حينئذ أنهم كانوا « قبيلة من الاقزام الاشرار الضعاف النفوس ، والمجردين من الانسانية ولم تكن لهم لغة خاصة بهم ، وانما مجرد أصوات شبيهة بصوت البشر » • وكان مظهرهم مخيفا لدرجة أن الشعوب القوية كانت تهرب فى فزع تجنبا للقائهم « لأن لونهم الداكن كان يبعث على الخوف ، وكان الفرد منهم عبارة عن كتلة من اللحم لا شكل لها ولم يكن لها رأس ، وبدلا مـن العينيين يوجد ثقبان صغيران •••• ومع أنهم كانوا يعيشون كما يعيش البشر فانهم كانوا وحوشا فى قسوتهم •• (٢) •

ووردت هذه الأوصاف عن الهن فى كتابات أحد القوطيين فى القرن السادس الميلادى ، وهو مؤرخ قليل البراعة فى أحسن الاحوال ، وكان على قيد الحياة عندما كان خطر الهن مجرد ذكرى كئيبة • أما ما يمكن اعتباره شيئا يمكن الاعتماد عليه عن وصف الهن فهو ما كتبه جندى يونانى يدعى أمينوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus حين كتب عن الامبراطورية الرومانية فى الفترة ما بين ٣٥٣م الى ٣٧٨م • ومات أمينوس حوالى سنة ٤٠٠ م • ومع ذلك لم تكن انطباعاته عن الهن مبينة على الصلات الشخصية وانما كان من المهم أنه عندما ذكر أسماء أحـــد

عشر قائدا قوطيا ، فأنه لم يذكر قائدا واحدا من الهن • وحدد مكان هذا العنصر البشرى المتوحش فى شرق بحر آزوف Azov والشيء الذى يفسر مظهرهم الجسمانى البغيض وجود عاهات تقليدية « اذ كانت وجنتا كل طفل بها آثار تجاعيد عميقة تمت بفعل الحديد منذ مولدهم • « ونتيجة لوجود تلك الندبات المتجمدة » ، فانهم كانوا يكبرون دون أن تنبت لاحدهم لحية ، ودون أى مظهر للجمال مثل الخصيان • وكان لكل منهم أطراف قوية ومكتنزة ، ورقبة سمكية ، وأما الوجه فكان قبيحا بصورة بشعة ومشوها للحد الذى قد يحسب المرء أنهم من الحيوانات ذات الساقين » •

ويؤكد أمينوس للقارىء أنه على الرغم من بشاعة منظر هؤلاء الهن ، « فان لهم التكوين الشكلى للبشر » • ولم يستعمل الهن النار فى اعداد طعامهم ، كما تفعل الشعوب المتحضرة كما لم يعيشوا فى بيوت ، وتجنبوا بناء المقابر للاشخاص العاديين وكانوا بدوا رحلا • « ولم يحدث أن حرث فرد واحد حقلا فى أراضيهم ، أو لمس مقبض محراث • ولم يكن لأى منهم محل اقامة ثابت ، وعاشوا دون مأوى ، أو قانون ، أو أسلوب حياة متفق عليه • وظلوا يهيمون على وجوههم من مكان لآخر ، كاللاجئين ومعهم عرباتهم التى اتخذوها مكانا للمعيشة » • وصنعوا ملابسهم من الكتان أو من جلود فئران الحقول ، ولم يغيروا ملابسهم أبدا ولكنهم ، « عندما يرتدون رداء طويلا يشد بحزام حول الخصر Tunic باهت اللون فانهم لا يغيرونه الى أن يتحول الى خرق بفعل الزمن ثم يتساقط اربا اربا • « وكان الرجال يقضون معظم أوقات حياتهم على ظهور الخيل يمارسون شراء وبيع حاجياتهم البسيطة ومن مأكل ومشرب ونوم أبان تنقلاتهم بل ويمارسون ادارة شئونهم التى تسمح بها ظروفهم وهم على ظهور الخيل أيضا •

ومن الممكن الاعتماد على وصف أمينوس للهن فيما يتعلق بالاسلحة التى استخدموها وطريقتهم فى القتال ، ونظرا لأنهم كانوا يقضون معظم حياتهم على ظهور الخيل ، فانهم كانوا فرسانا مهرة لانهم « كانوا معدين للحركة الخفيفة والسريعة والمواقف المفاجئة ، كما كانوا يقسمون أنفسهم فجأة الى جماعات متناثرة ويهاجمون ويندفعون هنا وهناك دون نظام محدثين مذبحة مروعة • « ووصفهم أمينوس بانهم « أشد المحاربين جميعا اثارة للرعب لأنهم يحاربون من مسافات بعيدة مستخدمين القذائف التى بها عظمة حادة بدلا من طرفها المدبب فى العادة وهذه العظمة الحادة مربوطة بالرمح بمهارة فائقة ثم ينقضون بسرعة ليقطعوا المسافة التى

بينهم وبين العدو ويقاتلون وجها لوجه بالسيوف دون تفكير في أرواحهم » ٠

ان سمات انعدام الاحساس بالمسئولية الاخلاقية ضاعفت من شراسة الهن ٠ « واذا ما عقدوا هدنة فانهم كانوا غادرين وغير جديرين بالثقة وكانوا يميلون بشدة الى انتهاز أى بريق من الامل يفرض نفسه، مضحين بكل المشاعر انتهازا للفرصة المواتية ٠ وعلى مثال الحيوانات المسوقة بالعاصفة الجامحة ، كانوا يجهلون كلية الفرق بين الصواب والخطأ ، وكانوا مخادعين ، وفى غموض شديد عند محادثتهم ، ولم يرتبطوا بأى توقير لدين أو خزعبلات » ٠ على أن الشىء الذى ساعد على تفاقم تلك الغرائز الوضعية ، ودفعهم للعمل هو ، « شغفهم الذى لا نهاية له فى الحصول على الذهب » ٠ وباختصار كتب أمينوس « ان هذه الجنس من البشر ، الذى لم تعقه أى ضوابط ، والذى كان يتحرق شوقا مدفوعا بالرغبة اللاانسانية الى انتزاع ممتلكات الاخرين : شق طريقه العنيف بين عمليات السلب والنهب ولقتل التى شملت الشعوب المجاورة له » (٣) ٠

ولسوء الحظ فانه منذ العهد الذى دون فيه المؤرخون الأول الاوصاف المزعجة عن سلوك وتصرفات الهن الاخرى فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين لم يظهر أى شىء مكتوب له أهمية تذكر يمكن أن يخفف من درجة كآبة الصورة التى تركوها عن الهن ٠ وساعدت الاستكشافات الاثرية الى حد ما ، على تقديم قدر ضئيل من الادلة الواضحة عن نوع الحياة التى عاشها الهن عندما كانوا شرق بحر قزوين ٠

على أن أقوى العوامل التى حددت سمات الهن وطرق معيشتهم كان بلاشك مناخ الاراضى التى عاشو فيها ٠ فنتيجة للامطار القليلة التى كانت تسقط فى أواسط آسيا ، ونعنى بذلك أراضى السهول الواسعة الخالية من الاشجار والممتدة شرق جبال الاورال الى منغوليا ، فان المؤرخين فى الماضى وضعوا شعوبه تلك المنطقة فى قائمة البدو الرحل٠ ولم يكن لهؤلاء القوم مواطن دائمة ٠ كما أن بحثهم عن الطعام اللازم لهم ولسلالاتهم جعلهم فى حالة تنقل مستمر من مكان الى آخر ٠ بيد أن اكتشاف هذه الاماكن المهمة نسبيا فى بلاد الهن دفع العلماء الى تطوير وجهة نظرهم الاولى عن البدو الرحل من الهن الى اعتبارهم شعبا من الشعوب أشباه البدو ٠ ويبدو أن الهن شغلوا مساحات دائمة ، وعلاوة

على ذلك ، تحركوا أشباه البدو · ويبدو أن الهن شـــغلوا مساحات دائمة ، وعلاوة على ذلك ، تحركوا فى نطاق منطقة شاسعة · وفى الربيع كانوا يسوقون قطعـانهم شمالا تجاه المراعى التى كانوا بها فى العـام السابق ، وعندما يقترب الربيع يعودون ثانية الى محل اقامتهم الشتوى الذى أعتادوه · ويشير هذا الى عرض مهم عن الوجود البدوى بكل ما فى الكلمة من معنى ·

ومنذ فجر التاريخ اعتمدت حياة البدو وأشباه البدو على تربيـة الحيوانات ولا يمكن استثناء الهن من ذلك · فاقتنى الهن قطعانا كبيرة من الخيول والاغنام بالاضافة الى الماشية · وامتدت الخيول بوســيلة الانتقال واستخدموها فى زمن الحرب ، هذا بالاضافة الى قدر كبير من لحومها ولبنها · وكانوا يسلقون قطعا غليظة وقصيرة من لحوم الخيول فى مراجل ضخمة ويعتمدون على ألبان الفرس كشراب لهم فى مسيرهم· وأمدتهم الاغنام بالطعام ، والملبس والمــأوى واللبن ، واللحم والجلود والمنسوجات الصوفية أو اللباد لخيامهم والجلد لصـــناعة أحذيتهم · وأحيانا كانت الالعاب الرياضية وصيد الاسماك تحد من شعورهم بالملل من جراء تناولهم وجبات طعامهم ، كما يساعدهم على تخفيف حدة الملل نجاحهم فى زراعة الدخن ، برغم قلة الامطار وقصر مدة فصل الزراعة غير أن هذا هو مستوى الزراعة عندهم · وما كتبه أمينوس مارسيلينوس عن أن أيديهم لم تلمس محراثا على الاطلاق ، يبدو صحيحا طالما أنه لم يتم اكتشاف شـفرة محراث واحــدة فى الأراضى التى كانوا يعيشــون فيهـا ·

وعلى الرغم من أن اقتصاد الهن كان قائما على الاكتفاء الذاتى فانهم مارسوا نوعا من التجارة مع الشعوب على امتداد حـــدودهم · وكانت صادراتهم الاساسية الخيول والعبيد · اذ قاموا بتربية الخيول ، وأسر العبيد ابان اغاراتهم وفى زمن الحرب · ولم يكن لديهم حاجة لاستخدام العبيد على الرغم من أن الأقلية الغنية بينهم احتفظت بالعبيد كخدم · أما الذهب الذى حصلوا عليه مقابل بضائعهم أو حصلوا عليه أثنـــاء اغارتهم ، كانوا يشترون به النبيذ والحرير ، اذ كانوا فى أمس الحاجة اليهما ، أو ربما اكتفوا بترك مدخراتهم من الذهب تتكدس كمـا فعل الافار Avars والمجر Hungary ·

وفى رحلتهم البطيئة الى المراعى الشمالية وفى عودتهم الى مأواهم الشتوى نقل الهن معهن كل من يرغبون فى نقله — الاطفال الصغار ، والمسنين ، والعجزة فى عربات لها أربع عجلات · وعندما يتطلب الامر

سرعة أكثر ،كما كان يحدث عند الاغارة كانوا يستخدمون عربات ضخمة ذات عجلتين ، وعندما يرغبون في استخدام أقصى سرعة كانوا يمتطون صهوة خيولهم • ان سرعة هذه الخيول تركت انطباعا قويا عند المراقب الغربى ، هذا بالاضافة الى قدرة تلك الحيوانات على التحمل والجلد بشكل يفوق العادة • ولاشك أن الاحوال فى بلاد الهن جعلت خيولهم تتمرس على تحمل الظروف التى لا يمكن للخيول الغربية تحملها، كما ذكر فيجيتيوس Vegetius الكاتب الرومانى فى القرن الرابع الميلادى فقد لاحظ فيجيتيوس أن الحصان الرومانى كان متفوقا فى الدهاء والمظهر على الحصان الذى يستعمله الهن ، الا أن الحصان عند الهن كان أكثر صبرا ، وقدرة على الاعتماد عليه ، وعلى تحمله للمشاق• وفى الحقيقة كانت خيول الهن حيوانات بشعة المظهر ، لها رؤوس كبيرة، وأعين بارزة ، وتتدلى شعور أعناقها حتى الرجلين الاماميتين وضلوع قفصها الصدرى كبيرة ، وحوافرها مفرطحة ومع ذلك « كان بها مسحة من الجمال برغم قبح مظهرها » (٤) •

وبناء على ما سبق ذكره ، فيبدو أن ما ذكره أمينوس عن براعة الهن العسكرية الفائقة كان صحيحا وفقا لوصفه • فقد تفرقوا كفرسان وكرماة بالسهام • وتعلموا تلك المهارات ومارسوها منذ الصبا • فبالاضافة الى القوس والسهم حمل المحارب من الهن سيفا ورمحا ، وربما وهقا Lasso وهو سلاح كان شائعا بين شعوب السهول الواسعة الخالية من الاشجار Steppe وكان هذا السلاح منفصلا عند الالن Alans واعتمد الهن على قطع من الجلد محشوة بالصوف كغطاء للحماية هذا فى حالة اذا لم يتمكنوا من الاستيلاء على حديد أو شرائه من الشعوب المجاورة لهم والاكثر منهم تحضرا • وكان الفرد يحمل منهم ترسا مصنوعا من الاغصان الصغيرة المجدولة ، والمغطاة بالجلد •

ويرجع الكثير من الميزات التى تفوق بها الهن على أعدائهم الذين دخلوا معهم فى قتال الى سرعة خيولهم ، وقدرتها على التحمل • فكانت المسافات الطويلة بسيطة بالنسبة اليهم ، وكانوا فى العادة يصلون أسرع مما يتوقع أعداؤهم الذين كانوا يصابون بالاضطراب • وعند اقترابهم من عدوهم كانوا يحدثون ضجة مخيفة ، ثم يطلقون وابلا كثيفا من السهام وبعده ينقضون على العدو فى معركة وجها لوجه • ولم يذكر الغربيون شيئا عن الخدع الحربية للهروب المخادع الذى مارسه الهن ، شأنهم شأن المحاربين فى المناطق السهلة الواسعة الخالية من الاشجار فى العالم

ولم يستخدموا مهمازا أو ركابا ، على الرغم من استخدامهم لنوع من السرج الخشبى الذى كان يساعدهم على البقاء على مطاياهم من أمان ٠

وعلق كل من جوردين Jordanes وأمينوس على أساليب حياة الهن الفاسدة ، بيد أنهما لم يذكرا شيئا عن المعتقدات الدينية والتقاليد كما أن جهود علماء الآثار لم تقدم الا القليل لتوضيح مشكلة دياناتهم ، فكان عندهم من يعملون كعرافين ، ورجال تنبؤ بالفأل الحسن أو السيىء واستخدموا التعاويذ ، وصنعوا الأوثان من الأحجار الكريمة ، والأحجار ، والطباشير ، وثمة دليل على أنهم قدموا القرابين من الحيوانات لآلهتهم٠ على أن العلماء الاكثر دقة قد توصلوا الى تحديد اله كان يعبده الهن ، وهو عبارة عن سيف مقدس الذى كان يرمز الى اله الحرب ٠ واذا كانوا قد عبدوا آلهة على شكل انسان أو حيوان لا يوجد أسماء لتحديدها ، كما لم يتجرأ عالم على القول بأنهم كان لهم كهنة ٠

وفى منتصف القرن الخامس الميلادى ، عندما استعد أتيلا للاتجاه بجيشه غربا الى بلاد الغال ٠ اعتقد أمينوس ومعاصروه أن ما يدور بخلد الهن أقل خطورة واثارة للرعب ٠ فطالما أن الطعام أكثره وفرة شمال البحر الأسود عنه فى أى مكان فى الأراضى المنبسطة شرق بحر قزوين ، وهو مكان الهن فان هؤلاء الهن مارسوا بعض أساليبهم المتعلقة بوجودهم كبدو رحل ٠ والدليل المقنع الذى له أساس قوى هو اكتشاف حقول مهمة كبيرة ٠ وعلى الرغم من أن استخدام الغالبية للعربات الكبيرة أو الخيام المصنوعة من اللباد كمساكن ، فان الشخصيات الطموحة والثرية عاشت فى ديار مصنوعة من الخشب ٠ وظلت تربية الحيوانات هى المصدر الرئيسى للطعام ، فقاموا بزراعة بعض الدخن وشربوا نوعين من الشراب يشبهان الجعة والميد mead عند الجرمان ٠ واستهلكوا أيضا كميات كبيرة من النبيذ ، وكان البائعون الجائلون يقومون بتهريبها من جنود نهر الدانوب ٠ ولم يشجع قادة الهـن التجارة مع الرومان ، وقيدوها بالسوق السنوى الذى كان يعقد على نهر الدانوب والذى كان يعقد بعد سنة ٤٤٧ م فى مدينة نيس Naissus (Nis) على أن السلع التى احتاجها الرومان بشدة من الهن كانت العبيد والخيول ٠

ولا ريب فى وجود طبقات اجتماعية عند الهن شرق بحر قزوين، وهو الامر الذى ظهر بوضوح فى وصف الكتاب الغربيين عندما تحدثوا عن أتيلا وشعبه فى المجر ٠ فبعد الملك وممارسته لمركز السلطة العليا وجدت طبقة أرستقراطية قامت على المولد والخدمة العسكرية وكون قادة تلك الطبقة نوعا من مجلس الدولة الذى قدم المشورة للملك ٠ وجند

الملك حرسه الخاص من بينهم • وتمت الطبقة الارستقراطية بحق اختيار الغنائم والعبيد • وفى عهد أتيلا ، نعم أونجييوس One gesius أحد أفراد الطبقة الارستقراطية بمركز مشابه لرئيس الوزراء أو الوزير• وشغل مكانة الشرف فى المناسبات الرسمية ، وعاش فى منزل يلى فى الحجم منز أتيلا •

ونظرا لانخفاض المستوى الثقافى لشعب الهن ، فلم توجد حدود فاصلة بين الطبقة الارستقراطية وطبقة العامة من الرجال والنساء ، ممن هم دون مستواهم وكان معظم شعب الهن ينتمى الى الطبقة الاخـيرة • وكانت الغالبية العظمى من الهن أحرارا • فمن بين أسباب أخرى كانت ثقافتهم البدوية الترحالية تقف عائقا ضد وجود امتلاك الرقيق على نطاق واسع • وكانت ادواتهم الاجتماعية ساذجة للغاية ، وأنهم كانوا يفضلون الذهب عن أى عبد اذ كانوا على استعداد لمقايضـة العبد بالذهب • والعبد الوحيد الذى ذكره بريسكوس Priscus معلم ومؤرخ القرن الخامس الميلادى كان المهندس المعمارى الرومانى الذى كلفه ونيجيسيوس Onegesius ببناء حمام حتى يستطيع أن يستمتع بمظاهر الرفاهية الرومانية • غير أن هذا الشخص الرومانى الذى شعر بخيبة الأمل كان يأمل فى الحصول على حريته مقابل براعته •

ولم يدفع الهن ضرائب • اذ أن الاحتياجات البسيطة لحضارتهم البدوية لم تجعل هذا الامر ضروريا ، كما أن افتقارهم الى النظام الادارى جعل تحصيل الضرائب أمرا مستحيلا • وكان على كل فرد من الهن أن يحمل الاسلحة التى أعدها لنفسه ، وبعد انتهاء الحرب لم يكن هنـاك حاجة الى الموارد المالية • ومع ذلك فبالرغم من أن الأسـاليب البـدوية تركت للهن حـرية شخصـية أكثر مما يسـمح بهـا أن مجتمع راسخ ووطيد ، فان تلك العادات البدوية نفسها تفسر فشل الهن فى اقامة اجتماع يضم الرجال الأحرار • ووجد مثل هـذا الاجتماع بين الجرمان ووضع السلطة المطلقة للقبيلة فى أيدى الغالبية •

لم يعرف أمينوس ومعاصروه شـيئا عن نشأة الهن • ولم يكن يعرفون أكثر من مجرد أنهم شعب قد أتى من البلاد غير المعروفة خلف بحر قزوين وأنهم عاشوا فى الاقليم الواقع شرق الدانوب ، وهى أراضى لم يكن يعرفها كتاب العصور الوسطى الأولى • اذا اعتاد الكتاب القدامى الاكتفاء بالاطلاق على أى شعب يعيش خلف الدانوب ببساطة لفظ السكيثين Scythians

وبحلول القرن الخامس الميلادى كان الكتاب البيزنطيون يفرقون بين الهن والبرابرة الشماليين ، وكان هـذا هو كل شيء : اذ كانوا لا يعرفون شيئا يتعلق بموطن هؤلاء الهن القديم فى آسيا • ولم تقدم لغة الهن شيئا يفيد فى حسم هذا الأمر ، كما لم يتمكن علماء اللغـات المتحدثون من تقديم شيء يفيد فى هذا المجال • لذلك ظلت مسألة اذا ما كان هؤلاء الهن يمكن أن تكون لهم علاقة مع هسينج ـ نو Hsiung No الذين هاجموا الصين ابان القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ، ومن أجل ذلك بنى الصينيون السور العظيم • وفى أحسن الأحوال فانهم اعتبروهم ضمن الشعوب المغولية الآسـيوية • ولذلك فانهم أبنـاء عمومة للآثـار والمجـريين الذين تبعوهم فيما بعد من الأراضى المنبسطة الخـالية من الأشجار خلف بحر قزوين الى جنوب روسيا •

وظهر الهن حوالى سنة ٣٨٥ م فى السهول الواقعة شمال البحر الأسود • وهناك دخلوا فى معارك ضـد الألن والشعوب الآسـيوية الأخرى (٥) ، الذين أخضوعهم لسيطرتهم بعد سنوات عديدة من الاغارات على معسـكر بعضهم البعض • ونجح بعض الآلن فى أن يشقوا طريقهم غربا ، حيث شاركوا العديد من القبائل الجرمانية فى اجتياح بلاد الغال وخضع معظم الألن لسلطة الهن وانضموا اليهم فى اخضاع شعب القوط الشرقيين الذين عاشوا غرب الآلن تماما • ونجح بعض القوط الشرقيون فى الهروب غربا ليلحقوا بأبناء عمومتهم القوط الغربيين الذين كانوا فى طريقهم تجاه الدانوب يفلتوا من خطر الهن •

ومنذ ذلك الحين فحسب أصبح العالم الرومانى على علم بوجـود هؤلاء الهن ، وفى الوقت المناسب أيضا • ذلك لأن الهن أكثر من غيرهم من الشـعوب المتبربرة ، كانوا مسـئولين بصفة أساسـية فيما عرف بالتسرب التدريجى للشعوب الجرمانية شـبه المتحضرة الى داخـل الامبراطورية عبر نهرى الراين والدانوب • وصار هذا النشاط حركة قوية وكانت نذيرا بنهاية العالم القديم فى الغرب • وفى سنة ٣٧٥م حصل القوط الغربيون Visigoths على موافقة فالينز Valens الامبراطور الرومانى سريع الفهم والادراك على أن يعبروا نهر الدانوب الى داخل أراضى الامبراطورية وبذلك جعلوا هذا النهر حصنا قويا فى وجه الهن • وبعد ذلك بعامين استطاع هؤلاء القوط وكذلك القوط الشرقيون Ostrogoths وانضم اليهم الالن ، واستطاعوا جميعا القيام بثورة ، وقضوا على فالينز وجيشه الرومانى فى موقعه ادريانوبل Adrianople (٣٧٨م) • ولم تفق الامبراطورية من هذه الكارثة أبدا •

على أن المخاوف التى انتابت كثيرا من الرومانيين سنة ٣٧٦ م من أن يتعقب الهن القوط الغربيين بعد وقت قصير عبر نهر الدانوب لم تتحقق • كما أن التاريخ العام للامبراطورية الرومانية من سنة ٣٧٦ م الى ٤٥٠م أعطت للهن أهمية قليلة • وفى خلال تلك الفترة التى أمتدت حوالى خمسة وسبعون عاما شغلت التاريخ شعوب متبربرة شمالية اخرى أولا : كان هناك القوط الغربيون ولفترة من الوقت قنع هؤلاء القوط بالبقاء على الأراضى المهجورة فى تراقيا ومؤيزيا Moesia التى كان قد حددها لهم الامبراطور ثيود وسيوس خليفة فاليز ، غير أن ذلك لم يكن لفترة طويلة • فعندما مات ثيو دوسيوس سنة ٣٩٥ م ثاروا مرة ثانية ، وفى هذه المرة تحت قيادة الاريك Alaric أشهر قادتهم• ولأكثر من عقد من الزمان قاد الاريك شعبه والحلفاء الالن عبر بلاد اليونان وأقليم ايلليريا Illyricum ينهبون ويسلبون فى الوقت الذى كانوا فيه يبحثون عن موطن لهم • وطالما ظل ستيليكو Stilicho القائد الوندالى يقود الجيش الرومانى فى الغرب على قيد الحياة لم تكن هناك فرصة فى التوغل فى أراضى ايطاليا ، حيث كان الاريك يأمل فى أن يقود شعبه الى هناك • وفى سنة ٤٠٨ م تم اعدام هونوريوس Honorius الامبراطور الرومانى الضعيف الذى كان يخشى من ستليكو • وفى سنة ٤١٠ م احتل الاريك وأتباعه من القوط الغربيين روما ، وأباحوا نهبها لمدة ثلاثة أيام ، ثم تحركوا جنوبا • وعندما مات الاريك ، خلفه أثولف Athaulf زوج أبنته ، الذى قاد القوط الغربيين ثانية الى شمال ايطاليا وعبر الجزء الغربى من جبال الالب الى بلاد الغال ، وفى آخر الأمر أقام أول الممالك الجرمانية فى اقليم أكويتين Aquitaine وفى سنة ٤١٥م عبروا جبال البرانس الى أسبانيا •

وهناك قبائل جرمانية أخرى كانت فى طريقها الى داخل حدود الامبراطورية • ولم يجدوا مقاومة تذكر لصدهم لأن ستيلكو كان قد سحب القوات الرومانية من حدود نهر الراين وبريطانيا ابان محاولاته لابعاد الاريك عن ايطاليا •

وبناء على ذلك ففى خلال عامى ٤٠٥ ـ ٤٠٦ م عبرت اعداد من القبائل الجرمانية نهر الراين • وكان الوندال من بين تلك القبائل الجرمانية • ونهبوا كل ما صادفهم فى طريقهم عبر بلاد الغال حتى وصلوا الى أسبانيا • وبعد ذلك بعدة سنوات أقاموا مملكة قوية فى شمال أفريقيا • وكانت مملكة الوندال فريدة فى رفضها لقبول الترتيبات الأمنية التى لجأت اليها القبائل الجرمانية الأخرى بشأن الاعتراف

بسيادة روما (٦) • ومع ذلك فان الشيء الذى كان أكثر خطورة من هذا التحدى هو ذلك الاسطول الذى شيدوه واستخدموه فى السيطرة على غرب البحر المتوسط • ومكنهم هذا الاسطول من نقل القمح بحرا من أفريقيا ، وكانت روما فى حاجة اليه لاطعام سكانها ، كما مكنهم هـذا الاسطول من اجراء المقايضات لصالحهم مع القبائل الجرمـانية المحالفـة Foederati فى الشمال •

وما زالت هناك بعض القبائل الجرمانية التى كانت تصنع التاريخ ابان الفترة بين ٣٧٦م و ٤٥٠م بعد أن استدعى ستيلكو الفرق الرومانية من بريطانيا بدأ الأنجليز Angles والسكسون Saxons فى العبور الى الجزيرة البريطانية فى اعداد متزايدة عندما وجـــدوا أن المواطنين الأصليين غير قادريين على صدهم • وعلى الرغم من أن الغزاة لم يكملوا فتحهم لبريطانيا الا فى نهاية القرن السادس الميلادى لذلك الاقليم البعيد فان الامبراطورية كانت قد فقدته بعد سنة ٤١٠ م بكل المعانى والمفاهيم ، كما أن الفرنجة الصاليين Salian Franks الذين كان الامبراطور جوليان Julian قد سمح لهم بشغل المنطقة التى تقع بين ميوز Meuse وشيلدت Scheldt ، مدوا سيطرتهم حتى سوم Somme وكذلك الالمان Alemanni والفرنجة الريبوريون Ripaurian Franks والبرنجنديون Burgurdians عبروا أيضا نهر الراين وقام الآخيرون بشق طريقهم حتى وصلوا الى وادى الرون •

وأين كان الهن فى ذلك الوقت وماذا كانوا يفعلون ؟ ربما أنضم قليل منهم الى القوط الغربيين فى قتالهم فى موقعـة أدريانوبـل سنة ٣٧٨ م • على الرغم من أن هذا الافتراض مشكوك فيه • ومن المحتمل انهم ابتعدوا بأنفسهم عن شئون الامبراطورية ، واكتفوا فى ذلك الحين بنهب جيرانهم ، وتحويل ما يقع تحت أيديهم الى عبيد • واذا ما حدث أن عبـر الهن اقليم الدانوب للمشاركة فى نهب وسـلب اقليم تراقيا Thrace بعد مأساة ادريانوبل فانهم عادوا على الفور الى موطنهم شمال نهر الدانوب ويوجد سجل تاريخى عن اغارات عبر ذلك النهر سنة ٣٨٤ م حيث كانت الغارات على القوط الغربيين وليست على الرومان ، اذ كان ثيودرسيوس قد عهد الى القوط الغربيين بالدفاع عن ذلك الاقليم • وفى مقابل منطقتى مؤيزيا Moesia ، وداكيا Dacia الشاسعتين اللتين تنازل عنهما ثيودرسيوس ، كان القوط الغربيون بمثابة « درع لا يقهر ضد اغارات الهن » (٧) •

ومما يثبت الدور الرئيسى للهن فى مواجهة الامبراطورية الرومانية

ابان نصف القرن التالى لمعركة أدريانوبل اعداد القوات العسكرية وتجهيزها للدفاع عنها اذ احتاج الاباطرة الشرعيون الى فرسان الهن بدرجة ملحة ، وكذلك الأباطرة الانتهازيون الذين زعموا أحقيتهم للعرش الامبراطورى • ففى سنة ٣٢٨ م نجح الامبراطور ثيودوسيوس فى الحاق الهزيمة بماكسيموس Maximus المدعى بأحقيته فى العرش بفضل مساعدة الهن والقوات المساعدة من البرابرة الآخرين • واحتفظ ستليكو بقوات من الهن فى جيشه ابان حملاته ضد ألاريك كما فعل أيضا عندما تصدى لمنافسه أيوجينوس Eugenius الذى ادعى بأحقيته فى العرش بل أن روفينوس Rufinus ، « الرجل القوى » فى القسطنطينية ابان عهد الامبراطور Arcadius غير المقتدر ، احتفظ بحرس شخصى من الهن • ووصل الأمر الى أن سمح روفينوس لآلاف من الهن بالعبور الى تراقيا ، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، حيث أستقروا فى أراضى منحتها لهم الحكومة الامبراطورية •

وفى السنوات لأخيرة من القرن الرابع الميلادى ظهرت مملكة للهن شيئا فشيئا من بين القبائل المنتشرة والمستقلة الى حد كبير ، وظهرت لأول مرة شمال البحر الأسود • وهناك فى هذا الاقليم الخصب كان من السهل على رؤساء القبائل الأقوى والأكثر طموحا أن يمارسوا قدرا من السلطة • ولا شك أن نموذج القبائل الجرمانية المجاورة الذين قبلوا قيادة شيخ القبيلة أو الملك أثر على قبول الهن التدريجى للنظا منفسه •

ويعتبر أولدين Uldin أول ملك للهن ورد ذكره عند الكتاب الرومان • وعلى ضوء خصائص سلوكه المتكافىء فى الانبساط والانطواء تجاه الامبراطورية استنتج العلماء أن سلطته كانت أسمية الى حد كبير • وقدم هذا الملك المساعدة للرومان ، كما قدمها الى ستليكو ، ثم قاد الاغارات عبر نهر الدانوب كلما سنحت الفرصة لذلك ، على ما يبدو ، أو بناء على مقترحات شيخ القبائل • ومن الواضح أنه كان يفتقر الى السلطة فى اجبار القادة الآخرين على عدم التعامل مباشرة مع الامبراطورية أو مهاجمتها • وفى سنة ٤٠٨ م انتهز أولدين فرصة الموقف الحرج الذى واجه ستليكو والامبراطورية نتيجة لتحديد ألاريك وقاد الهن عبر الدانوب الى اقليم تراقيا • بيد أنه عاد مسرعا الى المجر طلبا للنجاة عندما علم أن العديد من رؤساء قبائل الهن قد قبلوا الأموال الامبراطورية ورفضوا تقديم العون له •

وما زال هناك القليل من الأنباء القوية عن الهن ابان العشرينات والثلاثينات من القرن الخامس الميلادى فقبل هذا التاريخ بوقت طويل

استطاع الألن التخلص من سيطرة الهن والقيام بعمل منفرد حيث عبروا نهر الراين الى بلاد الغال • هذا فى الوقت الذى تضاءلت فيه اغارات الهن فى تلك الفترة • ويوحى كل ذلك بعدم وجود قيادة قوية وليس معنى هـذا أن السلطة المركزية للهن قد انتهت بدليل أن آتينيوس Aetius قائد القوات الرومانية فى الغرب سنة ٤٢٥ م استطاع تجنيد عدة آلاف من الفرسان الهن للعمل تحت قيادته •

وظهر ملك جديد للهن ابان تلك الفترة التى اكتنفها الغموض ، ذلك هو روجا Ruga غير أنه ليس هناك ما يبين بوضوح ما اذا كان خليفة للملك أولدين ، أو أحد رؤساء القبائل • وفى حين لا نجد سوى القليل عن هذا الحاكم فقد لاحظ العلماء أنه انتهج سياسة قدر لها البقاء فى الدبلوماسية الخاصة بالهن ، قامت على التعامل مع الامبراطورية الرومانية على انهما امبراطوريتان منفصلتان ، امبراطورية غربية وأخـرى شرقية • ولا ريب أن هذه السياسة كانت معقولة • وأنها حدت من درجة الحزم عند تعامل الرومان مع الهن • كما أنها مكنت الهن كذلـك كلما سنحت الفرصة ، من أن يفرضوا الحقوق الممنوحة لهم على هذا الجزء من الامبراطورية أو ذاك بسهولة أكثر • ومن ثم أمد روجا Ruga أيتيوس Aetius بالفرسان ابان الفترة التى كان ايتيوس يدير فيها الشئون العسكرية والسياسـات الامبراطوريـة فى القسم الغـربى من الامبراطورية • وأما بالنسبة لأباطرة القسم الشرقى فلم يقتصر الأمر على رفض روجا تقديم مساعدة لهم ، وانما حرم على رؤساء قبائله تقديم أى عون لهم • وفى الوقت نفسه طلب اعانة سنوية قدرها ثلاثمائة وخمسين رطلا من الذهب من ثيودسيوس الثانى الامبراطور الشرقى • وعندما التحقت جماعة من الهن بخدمة الامبراطور الشرقى متحدية أوامر روجا ، شرع فى مهاجمة القسطنطينية غير أن المنية وافته سنة ٤٣٤ م قبل أن يأمر جيشه بالسير •

أحدث نبأ موت روجا موجة عامة من الفرح فى القسطنطينية وتعشمت العاصمة خيرا اذ أن روجا لم يترك ابنا قادرا على خلافته وأن قوة اللهن ستخمد ، وسيكون هناك عودة الى حد كبير الى السياسة الايجابية التى انتهجها الهن قبل اعتلاء روجا العرش •

غير أن توقيعات القسطنطينية تمخضت عن خيبة أمل شديدة لأن بليدا Bleda وأتيلا Altila ولدى موندبوك Mundiuch

شقيق روجا توليا السلطة كملكين مشتركين دون أية صعوبة تذكر • ووافقت القسطنطينية على الحاكمين الجديدين ، ووافقت على عقد معاهدة جديدة معهما دون تردد ، ودون اجراء مفاوضات مطولة • وضمنت هذه المعاهدة استعادة كل الذين هربوا الى بلاد الهن مقابل دفع فدية قدرها ثمانية صواليدى Solidi عن كل شخص • وتعهدت القسطنطينية بألا تعقد أية معاهدة مع أى شعب من الشعوب المتبربرة يكون فى حالة اقامة أسواق موسمية على نهر الدانوب • وأخيرا زادت الاعانة السنوية التى كانت تقدمها القسطنطينية الى الهن من ثلاثمائة وخمسين رطلا من الذهب الى سبعمائة رطل • وأصبح واضحا أن الحاكمين الجديدين اهتما بادارة أمور الدولة بقبضة من حديد • وذلك عند عودة اثنين من أبناء أحد رؤساء القبائل كانا يعملان فى خدمة القسطنطينية • اذ تعرض كل منهما لعقوبة الاعدام صلبا على الفور •

واستمر الاخوان أتيلا ويليدا يشتركان فى تحمل مسئولية الحكم لمدة زادت على عقد من الزمان • وكان بليدا هو الأكبر سنا ويبدوا أنه حقق لنفسه مركز التصدر والتقدم على أخيه ، على الرغم من أن قوة شخصية أتيلا حققت له عنصر التفوق حتى قبل سنة ٤٤٥ م (أو ٤٤٦م) عندما قام باغتيال أخيه •

وفى الوقت نفسه ما أن فرضت المعاهدة الجديدة على القسطنطينية حتى كرس الاخوان جهودهما لفرض سيطرتهما على القبائل المختلفة بالاضافة الى الشعوب الجرمانية التي دانت بالاعتراف بالحكم الهنى • وكان شعبا الجيبيد Gepids والقوط الشرقيين Ostrogoths من أهم الشعوب التى اعترفت بالحكم الهنى • وكذلك قبائل الروجيان Rugians والهيرول Heruli والسكريان Scirians والتركيلنجى Turciling والسويفى Sueves وآخرون • على أن اللومبارديين Lombards كانوا القبيلة الوحيدة الكبرى فى شمال الدانوب التى نجحت فى الاحتفاظ باستقلالها على الرغم من أن أتيلا نفسه لم يكن يعرف حدود امبراطوريته على وجه الدقة ، فان المؤرخين يعتقدون أنه مارس سلطة فعالة على الشعوب فى النمسا Austria والمجر ، ورومانيا ، وجنوب روسيا وجزء من بانونيا Panonia جنوب نهر الدانوب وكان مركز قيادته فى المجر فى مكان اما بين نهر الدانوب وأنهار ثيس Theiss • ونظرا لأن المبانى كانت مشيدة من الخشب فقد فشل علماء الآثار فى الكشف عن أية آثار لعاصمته •

ان اتيلا ، الرجل الذى حكم هذه الامبراطورية الضخمة والذى تاقت نفسه الى احتلال كل أوروبا ، احتل مكانة جنبا الى جنب مع جنكيزخان وتيمور الاعرج كأحد الثلاثة الغزاة الذين أثاروا الفزع ، والذين انجبتهم شعوب آسيا . ولا يبقى سوى صور وصفية موجزة لأتيلا . فلم يكتب بريسكوس Priscus المؤرخ المعاصر سوى القليل فى حين ورد أكثر فى كتابات المؤرخ جوردين الذى كتب بعد موت أتيلا بقرن من الزمان . ففى تاريخه عن القوط قدم الصور التالية عن ملك الهن : « انه رجل ولد ليهز أركان الأمم ، انه سوط لكل البلاد ، استطاع أن يرعب كل الجنس البشرى بفضل الاشاعات المثيرة للذعر التى ذاعت عنه . وكان متكبرا فى مشيته يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ، لدرجة أن قوة الروح للاعداد بنفسه ظهرت فى حركات جسمه . والواقع أنه كان مولعا بالحرب . ومع ذلك كان لديه المقدرة على كبح جماح نفسه أثناء العمل ، ورائعا فى تقبل النصيحة ورؤوفا بالمتوسلين اليه ، وكان لين الجانب مع هؤلاء الذين ارتضوا حمايته لهم . وكان قصير القامة عريض المنكبين ، كبير الرأس ، صغير العينين وكانت لحيته خفيفة مقاربة الى اللون الرمادى . وكان أفطس الانف ، وتميل بشرته الى اللون الداكن مما يدل على أصله » (٨) .

ولا تختلف هذه الصورة الوصفية اختلافا جوهريا عن الصورة التى قدمها المؤرخ بريسكوس ، الذى شاهد أتيلا سنة ٤٤٨ م عندما ذهب مع وفد من القسطنطينية الى بلاد ملك الهن . وقدم بريسكوس مفتاحا لقدرة أتيلا عن ممارسة تلك القوة الخارقة على شعبه وعلى كثير من الأمم الأخرى أيضا . وكتب عن كيفية محافظة أتيلا على أن يكون بمعزل عن الآخرين ولا يسمح الا لأفراد أسرته وأكثر المستشارين تقريبا اليه من الاقتراب منه وكان يصر على الالتزام التام بمراعاة مظاهر التشريعات الملكية . وكانت عاداته فى تناول الطعام وارتداء الملابس تميزه عمن حوله . فعلى الرغم من أن طبقته الارستقراطية كانت تأكل وتشرب فى أوانى من الذهب فانه كان يتناول طعامه فى طبق من الخشب « وكانت ملابسه بسيطة للغاية اذ لم يكن يهتم سوى بنظافتها ، ولم يكن هناك سيف بجواره ولم يكن هناك ابزيم كالذى يستعمل فى أحذية البرابرة ، ولم يكن لفرسه لجام . كما كان يفعل السكيثيون الآخرون . وعلى مثال السكثيين كان يتزين بالذهب أو الجواهر أو غير ذلك من الأشياء الثمينة » (٩) .

ويظهر أتيلا على أنه كان يخالف رؤساء قبائله فى الطريقة التى يتصرف بها ابان الاحتفال فى أعقاب لقاء غذا العمل banquet الذى شارك فيه بريسكوس وأعضاء الوفد الرومانى بحضور أتيلا ورجال

البلاد • فعندما « دخل أحد المهرجين أدخل السرور على قلب كل فـرد بمظهره ، وبملابسه وبصوته والكلمات التى ينطقيا باختلاط (لانه كان يخلط ما بين لغة الهن والقوط واللغة اللاتينية) ولم يستطيع أحد أن يمنع انطلاق الضحكات العالية باستثناء أتيلا • فانه ظل ساكنا ولم تتغير تعبيرات وجهــه ، ولم يكشف عن أنه يشــعر بالضحك لا بالكلام ولا بالحركة » (١٠) •

ولم يبد أتيلا دليلا مقنعا على دهائه فى أى مكان أكثر مما قدمه فى تعامله مع الشعوب الخاضعة له • اذ نجح فى أن يكفل لنفسه احترامهم وتعاونهم بمعاملته لقادتهم باحترام وبزيارتهم بنفسه طلبا للمشورة • وكان أردريك Ardaric ملك الجيبيد ، ووالمر Walamer أحد ملوك القوط الشرقيين من بين أكثر المستشارين الذين كان يثق بهم • وكان رعاياه من الالمان ملزمين بالمشاركة بالرجال المسلحين فى حالة التهديد بالخطــر فحسب • ومع ذلك لم يتمتع الرعايا الآخرون مثل السلاف بنفس قــدر الامتيازات ، اذ كان من الممكن معاملتهم باحترام أقل دون خطر • كما كان من واجبهم دفع نسبة من انتاج مزارعهم وماشيتهم وقطعانهم •

وهناك دلالة أخرى على ذكاء أتيلا ، ما لم يكن مجرد تقليد ، وهى رفضه تغيير عادات شعبه خشية أن يؤدى بذلك الى ذوبان شخصية شعبه فى شخصية الشعوب الاكثر عددا من حوله كالجرمان والسلاف • وعلى عكس ثيودوريك ملك القوط الشرقيين الذى نظر نظرة احترام للثقافــة الرومانية فان أتيلا لم يبد سوى احتقاره للحضارة الرومانية • والشىء الذى أعجبه عن الامبراطوريات جنوب الدانوب والراين فكان ما طلبه منها هو الذهب •

وفيما يتعلق بالقيم الروحية والفكرية ظل أتيلا على مثال زملائه الهن وكان واضحا أنه لا يبدى رغبة فى أن يتغير •

وفى علاقاته مع الامبراطوريتين الشرقية والغربية استمر أتيلا فى انتهاج سياسة أسلافه • اذ تعامل مع كل منهما كدولــة منفصلــة عن الأخرى • ونجح فى منعهما من التعاون سويا ضده واستطاع بذلك فقط أن يفرض على كل منهما تقديم التنازلات ، والحصول على الذهب منهما • ولكى يحد من حركة الامبراطورية الشرقية فانه ضاعف من طلبه للذهب وطارد أباطرتها بالسفارات المستمرة من أجل الحصول على الذهب • ومنذ سنة ٤٤٩ م دفع الامبراطور الغربى الذهب ليس كاعانة سنوية رسمية

وانما على شكل راتب لأتيلا بمقتضى منصب الشرف كقائد للجند (١١) • على أن تنظيم هذه العملية لم يغب عن بال المعاصرين • واعتبر بريسكوس ذلك مجرد ستار لاخفاء دفع الاعانة السنوية • ومع ذلك فانه كان أقوى سلاح فعال استغله أتيلا في تعامله مع الامبراطورية الغربية وهى سياسة أتت أكلها • وكانت سيطرته على امداد القسم الغربى من الامبراطورية بالقوات المساعدة للمحافظة على بقائها •

وكان أيتيوس Aetius القائد الفعلى للجند هو الرجل الذى انتهج سياسة الاعتماد بصفة أساسية على القوات المساعدة من الهن لحماية حدود الإمبراطورية الغربية • ففى سنة ٤٢٥م استخدم جيشا من الهن للمساعدة فى المحافظة على عرش الامبراطور ڤالينتنيان الثالث Valentinian III بعد وفاة الامبراطور هونوريوس Honorius • وفى سنة ٤٣٣م ، أستطاع بمساعدة الاصدقاء الهن اجبار فالينتينيان ووالدتـــه بلاسيديا Placidia الوصية على العــرش أن يعترفا به كقــائد للجنـــد • ومنذ تلك السنة وحتى وفاته سنة ٤٥٤ م كان اتيبيوس الحـــاكم الحقيقى للامبراطورية الغربية والموجه الأول للسياسة الامبراطورية •

ويعرف ايتيوس بلا مبرر الى حد ما بأنه « آخر الرومان » ، وهو من مواليد أقليم مؤيزيا السفلى Lower Moesia • وكان والده من أهالى ذلك الاقليم ، أما والدته فكانت ايطالية وهى السبب فى وضعه فى قائمة الرومان ، ونظرا لأن والده عمل فى روما كقائد فانه بدأ حياتـــه العسكرية فى سن مبكرة وكان من الناحية الواقعية رهينة عند ألاريك ثم عند الهن فيما بعد • وابان السنوات التى قضاها مع الهن تعلم لغتهم وأقام صداقة وطيدة مع الملك روجا وقضى أبنه كابيليو Carpilio بضع سنين رهينة فى بلاط الهن •

وعالج كل من الـكتاب المعــاصرين والمؤرخــين فيما بعد شخصية أيتيوس برقة • وربما يرجع بعض من هذا الحظ السعيد الى واحدة من الوثائق القليلة التى عاصرت تلك الفترة المضطربة ، انها وثيقة الاطراء والمـــديح التى كتبها ريناتوس برنـــو فوتورروس فريـــدير يـــدوس Renatus Profuturus Frideridus وأشارت تلك القصيدة الى أيتيوس على أنه رجل « خال من الجشع والطمع » ولا يهتم الا بمصالح الامبراطورية• غــير أن الامبراطور فالينتنيان الثالث كان يرتاب فى أمــره لذلك أمــر باعدامه • ولا ريب أن أيتيوس كان قائدا قديرا • ففى أوائل عهده تمكن من احباط خطة القوط الغربيين عند محاولتهم الاستيلا على أرل Arles واحتلال ناربونيس Narbonese فى بلاد الغال • وفى سنة ٤٣٦ م

حقق أحد القادة التابعين له نصرا مؤزرا على البرجنديين ، وهو الحدث التاريخى الذى تحدثت عنه ملحمة النبلونجليد Nibelunglied

وفى سنة ٤٤١ م حدثت المشكلة الأولى الخطيرة لروما مع أتيلا عندما ذبح الهن التجار الرومان الذين ذهبوا الى نهر الدانوب لممارسة أعمالهم التجارية • ومن المحتمل أن الأمر الذى دفع أتيلا لاختيار تلك اللحظة بالذات لانهاء علاقاته الودية مع روما ، كانت أنباء ارسال ثيودوسيوس الثانى امبراطور القسطنطينية ، قوة عسكرية لمساعدة فالينتنيان الثالث ضد الوندال فى جزيرة صقلية والحالة هذه استطاع أتباعه من الهن مهاجمة هؤلاء التجار دون التعرض لخطر الانتقام •

ومن الراجح أن أتيلا كان قد توصل الى قدر من التفاهم مع جزريك ملك الوندال وفقا لما أعلنه أحد الكتاب المعاصرين • على أية حال ، فعندما احتج المبعوثون الرومان على تلك الهجمات لدى أتيلا ألقى مسئولية ما حدث على كاهل الرومان باعتبار أنهم تراخوا فى دفع الاعانة المالية السنوية واستمروا فى ايواء الهاربين ، ومارسوا عمليات نهب للمقابر الملكية التابعة للهن • على أن الاتهامين الأولين كان لهما طابع التكرار وسواء كانت الاتهامات حقيقية أم غير حقيقية ، فمن المحتمل أنها كانت على وشك الحدوث • أما الاتهام الخاص بالمقابر فقد كان اتهاما جديدا وربما كان صحيحا • وعلى أية حال فان أسقف مدينة مارجوس Margus الذى اتهمه الهن على وجه التخصيص بنهب مقابرهم الملكية عقد اتفاقا سريا مع الهن الذين وعدوه بعدم التعرض له اذا ما سلمهم مدينة مارجوس • وبالفعل وبدون قتال استلم الهن مدينة مارجوس المهمة فى اقليم مؤيزيا Moesia •

هذا فى الوقت الذى هاجمت فيه جماعات أخرى من الهن أقليم تراقيا وايلليريا واستولت على مدن نهر الدانوب ذات قلاع • وتلى ذلك فترة من الهدوء المؤقت سنة ٤٢٢ ربما نتيجة لهدنة رسمية • بيد أن السنة التالية شهدت عودة الهن مرة ثانية ، فاستولوا على مدينة راتاريا Ratiaria (أركار Arcar) على نهر الدانوب وقاموا بتدميرها ، وكذلك سنجدونوم Singidunum (بلجراد Belgrade) ونياسوس Naissus (نيس Nis) ساردیکا Sardica (صوفيا Sofia ثم اتجهوا صوب القسطنطينية • واستولوا على فيليبوليس Philippolus وعندما الحقوا بالجيش الامبراطورى الذى كان تحت قيادة أسبار Aspar هزيمة نكراء ، لم يعد أمام القسطنطينية من خيار سوى طلب التفاوض • وضاعفت المعاهدة الجديدة الاعانة السنوية ثلاث مرات حيث ارتفعت من

سبعمائة رطل من الذهب الى ألفين ومائة رطل ، وطالبت من جديد بضرورة عـودة الفارين • وزادت الفـدية الخاصة بالمساجين الرومان الفـارين من ثمانية الى اثنى عشر حوليدى عن الفرد الواحد •

وانتهى سلام السنوات الأربع تلك المعاهدة المذلة المشتراة • عندما أرسل أتيلا قبائله المعتادة على السلب والنهب عبر نهر الدانوب • ولم يكن معروفا اذا ما كان هناك ذريعة رسمية للقيام بهذا العمل • ومن المحتمل أن هدفه الحقيقى كان الاستمرار فى استنزاف مـوارد الامبراطوريـة ، واضعاف معنوياتها الى حد الوهن الكامل • ونفذ محاربوه غاراتهم المدمرة عبر اقليم البلقان واتجهوا جنوبا حتى وصلوا الى ثرموبيلاى Thermopylae وفى تقدمهم استولوا على حوالى سبعين مدينة وقلعة ودمروها جميعا • وفى سنة ٤٤٨ م طلبت القسطنطينية ، التى لا حول لها ولا قوة فتح باب المفاوضات • وأصرت المعاهدة الجديدة على ضرورة دفع ستة آلاف رطل من الذهب لتغطية متأخرات الاعانة ، وفرضت على الرومان ضرورة عودة كل الهاربين الهن ، وألزمت الامبراطور بالا يجند فى جيشه أحدا من الهن فى المستقبل • وأمر الامبراطور بالجلاء عن شريط من الأراضى طوله مسيرة خمسة أيام فى عمق أراضى الامبراطورية ويمتد على امتداد الضفة اليمنى لنهر الدانوب من مدينة سنجيدونوم الى نوفاى Novae ستوفـا Sistova وما ان تم جـلاء القوات الرومانية عن تلك المنطقـة ، وصـارت مهجورة حتى استطاع الهن تنفيذ اغاراتهم عبر هذه الأراضى الخالية من الجند حتى وصلوا الى تراقيا وايلليريا ، دون عائق من أى نوع • وفى ظل وجود هذه الأراضى الشاسعة ، والتى كانت محرمـة على الرومان ، أصبح من الصعب أيضا على الامبراطورية تجنيد القوات المساعدة من بين الشعوب التى تعيش فى الشمال •

وشهدت هذه السنة ٤٤٨ م وصول أتيلا الى قمة قوته اذ فى سنة ٤٤٣ م عندما تم التفاوض بشأن المعاهدة الأولى ، كان الموقف مختلفا بعض الشىء • فعلى الرغم من أن ثيودوسيوس كان قد وافق على زيادة الاعانة السنوية الى الفين ومائة رطل من الذهب ومن الواضح أنه لم يكن لديه نية حقيقية للدفع وفعلا لم يدفع • وحلل فشله فى السداد بالزام الامبراطورية بسـداد سـتة آلاف رطل من الذهب متأخرات غطتها معاهدة ٤٤٨ واذا كانت الامبراطورية قد تمكنت من عدم السـداد دون خطورة سنة ٤٤٣م فان أتيلا بعـد سنة ٤٤٨ م لم يكن على استعداد للتعاون فى عـام الوفاء بشرط المعاهدة •

واستقر الموقف سنوات قلائل ويبدو أن أتيلا قنع بالحصـول على

الاعانة السنوية الباهظة من الامبراطورية الشرقية ، ورضى بالحصول على « الراتب » الذى كان يحصـــل عليه من الامبراطورية الرومانية الغربية باعتباره « ســيدا للجند » وكانت هناك بعض لاضطرابات ســنة ٤٤٩م بســبب المؤامرة التى دبرها كريسـافيوس Chrysaphius الوزير صاحب السلطة والنفوذ الأعلى فى عهد ثيودوسيوس الثانى من أجل اغتيال أتيلا وكان كريسافيوس قد اعتقد أنه نجح فى استمالة ادكون Edecon المستشـار الرئيسى لأتيلا الى جانبه بعد أن قدم اليه الرشوة · وبالفعل قبل ادكون الرشوة مقابل اغتيـال أتيلا · بيد أنه كشف عن تفاصيل المؤامرة عنـد عودته الى المجر · وفى بداية الأمـر طالب أتيلا باعـدام كريسافيوس ثم أبدى شيئا من لين الجانب ووعد بعدم التأثير بعـذلك ·

شـهد صيف سـنة ٤٥٠ م حادثا تكشف عن أهميـة بعيدة المدى · هـذا الحادث هو وفاة الامبراطور ثيودوسـيوس الثانى فى يوليو · وفى السـادس والعشرين من أغسطس أى بعد مضى أربعة أسـابيع على وفاة ثيـودوسيوس الثـانى انتخب مجلس الشـيوخ مارقيان Marcian الذى كان تريبيونا Tribune متقاعدا خلفا له · ونظرا لأن انجازات مارقيان الحربية لم تكن شهيرة لذلك لابد من وجود اعتبارات أخرى حملت مجلس الشيوخ على اختياره ومن بين تلك الاعتبارات أنه عمل فى المجلس الحربى كضابط معاون aid-de camp لأسبار ، أقوى القادة العسكريين للجند فى الامبراطورية الشرقية · ولابد أن مارقيان قد أعطى تعهدا على نفسه لمجلس الشيوخ بالعمل على انهاء دفع الاعانات المالية التى يحصل عليها أتيلا · اذ أن مجلس الشيوخ والطبقة التى يمثلها هم الذين عانوا بشـدة من الاتاوة التى كان يحصل عليها أتيلا منذ أن غملت سياسـة كرسافيوس على حملهم على مبدء دفعها ·

واذا كان ماقيان قد وعد بمجلس الشيوخ بالتوقف عن سداد الاعانة السنوية الى أتيلا فانه كان صادقا فى وعده · فبعد أن أصدر أوامره باعدام كريسافيوس أرسل مندوبه أبولونيوس Apollonius لابلاغ أتيلا بعدم دفع أى اعانة له · وعندما علم أتيلا بطبيعة مهمة أبولونيوس رفض مقابلته على الرغم من أنه طالب الهدايا التى أعتادت تلك الوفود على حملها · ولابد أن بعضا من شـجاعة مارقيان أنتقلت الى أبولونيوس لأنه أعلن أنه طالما أن أتيلا رفض مقابلته فانه لن يعطيه الحق فى الحصول على الهدايا · وكان فى اسـتطاعة أتيلا الحصول على الهدايا وقطع رقبة أبولونيوس كذلك · بيد أنه فكر بطريقة أفضل · فلم يكن أتيلا راغبا فى محاربا القسطنطينية أو أن يفقد احترامه أمام الملوك الجرمان التابعين له · اذا ما أسـاء معاملة شخص السفير · اذ أن ذلك يعنى انتهاك أحد الأسس الاجتماعية العتيقة ·

وفي ربيع سنة ٤٥١م تحرك أتيلا بجيشه الضخم تجاه نهر الراين في هجوم استهدف منه سيادته على الامبراطورية الرومانية الغربية ولابد أن توقف الحصول على الاعانة من القسطنطينية حثه على العمل على حين أنه من بين الاعتبارات الاخرى التى جعلت أتيلا يصــدر قراره بالتحرك تجاه الامبراطورية الغربية بدلا من الامبراطورية الشرقية كان بلا ريب قوة تحصــين القسطنطينية • واســتطاع أتيلا واتباعه من الهن مهاجمة من أقاليم البلقان وقتما شاءوا • بيد أن الاغارات الأولى تركت تلك الأقاليم خاوية على عروشــها الى الحد الــذى جعل أى غزوات يقوم بها الهن لتلك المنطقة قليلة الجدوى • ومن ناحية أخرى فان احتلال القسطنطينية لم يكن أمــرا واردا • اذ أن الاستحكامات الذى شــيده الامبراطور أنثميوس سنة ٤٣١م قد تم تعزيزه سنة ٤٣٩م ومرة ثانية سنة ٤٤٧م • كما أنه فى حالة شن الهن لهجماتهم على تلك التحصينات لم يكن هناك سبيل لمنع الاســطول البيزنطى من امدادها بكل ما تحتاجــه من المواد التموينية • وبالاضــافة الى ذلك فانه اذا ما فشلت محــاولات الهن فى الاستيلاء على القسطنطينية ، فان ذلك ســوف يعرض وجود امبراطورية الهن للخطر الشــديد • واذا مالاحت بادارة ضعف فسيرتد الملوك الجرمان عن ولائهم لسلطة أتيلا وسيضمحل ولاء قادة القبائل الاخرى البعيدة •

وعلى العكس من ذلك فان الامبراطورية الغربية لم تبد أى شىء من تلك العوائق كما أن بلاد الغال وأيطاليا استردت قوتها منــذ الهجمات الأولى التى عانت منها على أيدى القوط الغربيين والوندال • وبالاضــافة الى ذلك فان تلك الاقاليم أغرت بالحصول على غنائم أقيم بكثير عما يمكن الحصــول عليه لأى حملة عسكرية فى بلاد البلقان وبالطبع كانت هناك احتمالات تصــدى أيتيوس Aetius لخطة أتيلا ، على الرغم من نضوب المصــدر الذى كان يعتمد عليه هــذا القائد الرومانى وعدم حصوله على قوات مساعدة من الهن الأمر الذى جعل جيشه ضعيفا الى حد كبير • واذا ما أستطاع أتيلا منع حدوث تعاون بين القوط الغربيين وأتييوس فانه لن يجد صعوبة فى اجتياح الغرب •

ويبقى السؤال عن السبب الذى جعل أتيلا يختار هذا الوقت بالذات لشن هجومه على الامبراطورية الرومانية الغربية • وربما يقدم الاجابة على ذلك رفض الامبراطورية الشرقى دفع الاعانة الســنوية للهن • ويقــدم المعاصرون تفسيرات عديدة أخرى • بيــد أن المؤرخ المدقق ربما يجــد تصديقها من الصعوبة بمكان •

وتحكى أحدى القصص أن أحد الرعاه وجد فى باطن الأرض « سيف أريز » (*) وهو شيء مقدس لدى ملوك السكيثيين وأن أقنع أتيلا بأنه سيكون سيدا على العالم ·

وهناك قصـــة أخرى تبدو خياليـة تتعلق بهونوريا Honoria شقيقة فالنتيان الثالث التى كانت قوية الارادة ·

وكانت هونوريا قد شـــوهدت فى موقف غرامى مع المسئول عن تدبير شئون قصرها ، ومن ثم أمر شـقيقها باعدامه نظرا لمعاناته بشـدة من تلك الاهانة · ولكي لا يحدث ماشابه ذلك في المستقبل ، أعلن فالنتنيان الثالث خطبـة هونوريا التى كانت تعـانى من الاحســاس بالمرارة حاولت عدم اتمام هذا الزواج عن طريق ارسالها سرا الخصى هيكنثوس Hyacinthus الى أتيلا لمناشدته مساعدتها وزودت رسولها بخاتمها لكي تقنع رئيس الهن بمصادقية التماسها · وفسر أتيلا ارسال الخاتم على أنه عرض للزواج به لذلك طلب يد هونوريا على الفور ، ونصف الامبراطورية كحقها فى الميراث ومن المحتمل أن يكون هذا المطلب قد أرسله أتيلا الى ثيو دوسيوس الثانى الامبراطور الأكبر فى القسطنطينية الذى رحب بالفـكرة ، على ارســال هونوريا الى المجر · غير أن فالنتينيا فكر بطريقـة أخرى · اذ أمر بقطع رقبـة هيكنثوس وأوشك أن يفعل الشيء نفســه مع هونوريا لولا توسلات بلاسيديا Placidia والدته المسنة · ومع ذلك أجبرها على الزواج فورا بعضوا مجلس الشيوخ الثرى حتى يضع نهاية لأية مشاكل تقوم بها أخته من هذا القبيل (١٢) ·

وتربط رواية أخرى بين غزو أتيلا للامبراطورية وجوزريك ملك الوندال الذى كان يخشى القوط الغربيين الذين كانوا على وشك غزو مملكته · وهذه هى الرواية وفقا لما ذكره جوردين · « وفى ذلك الحين عندما علم جوزريك ملك الوندال أن أتيلا عقد العزم على تدمير العالم ، فانه حرضه على شن الحرب ضد القوط الغربيين بارساله الهدايا الكثيرة اليه ، لأن جوزريك كان يخشى أن يقوم ثيودوريك ملك القوط الغربيين بالانتقـام للأذى الذى لحق بابنتــه · وكانت ابنتــه ثيودوريك قد تزوجت من هومرك Humeric ابن جزريك ، وكانت سعيدة في زواجها فى بداية الأمر غير أنه صار قاسيا معها فيما بعد بل ومع أطفاله · وبسبب مجرد شك أنها حاولت دس السم له ، قام بجدع أنفها وصلم أذنيها ثم أعادها الى والدها فى بلاد الغال بعد أن حرمها من مظاهر جمالها الطبيعى وهكذا شكلت هذه السيدة التعسة مظهرا مثيرا للشفقة بصفة دائمة وعبر مظهرها

(*) هو اله الحرب عند الاغريق ـ المترجم ·

عن القسوة التى أثارت من لا يمت لها بصله ، هذا فى الوقت الذى ظلت تطالب والدها بالانتقام • ولذلك بذل أتيلا جهودا لاشعال نيران الحرب على ضوء تحريض جوزريك الذى قدم اليه الأموال•وأرسل أتيلا السفارات الى ايطاليا لمقابلة الامبراطور فالتنيان بهدف اثارة المنازعات بين القوط والرومان •••• لأنه بالاضافة الى شراسة أتيلا الشديدة فانه رجلا خارق الذكاء وكان يحارب مستخدما سلاح المكر والخداع قبل أن يخوض المعركة » (١٣) •

ويرفض المؤرخون رواية جوردين بصفة عامة باعتبارها من صنع الخيال باستثناء الجملة التى تتحدث عن دهاء أتيلا • ففيما يتعلق بالدهاء ، فهناك دليل على أتيلا حاول منع القوط الغربيين والرومان من أن تتخذ قواتها ضده بمحاولة اقناع كل طرف أنه ينوى محاربه الطرف الآخر • وعلى أية حال فان أمله فى أن يبعد عنه هذين العدويين اللذين لهما ثقلهما القوى كان تصرفا حكيما • كما كان كل من القوط والرومان اعداء منذ حرب سنة ٤٣٦م الى ٤٣٩م عند ناربونيز Narbonese فى بلاد الغال وآرل Arles حيث ادعى القوط الغربيون أنها تتبعهم وفى سنة ٤٤٦م منح ثيودوريك حق الحماية الى سباستيان Sebastian بعد أن لجأ اليه حين فشلت محاولته لاحباط خطة أيتيوس لتولى منصب قيادة الجند • وبعد قليل وفى نفس السنة حصل ثيودوريك على موافقة أتيلا ، بالاضافة الى امداده بقوات من الهن ابان محاولاته لفتح أسبانيا •

على أن فشل أتيلا فى احداث تباعد بين روما والقوط الغربيين أنقذ الامبراطورية فى الغرب • ولفترة من الوقت بدأ يتردد ويتسائل عما اذا كان من غير مصلحته أن يرى الرومان والهن يقتتلان ربما الى حد الانهاك المشترك كما أن هذه الفرصه السعيدة بالنسبة له سوف تمكنه من احتلال ناربونيز فى بلاد الغال Narbonese Gout دون معارضة • وكما حدث فان خطر تهديد أتيلا أنه كان شاملا • وعرض ثيودوريك أن تشارك أيتيوس ومن المثير للانتهاه أنه لم يطلب التنازل له عن اقليم أرل ثمنا لتعاونه • وكان قرار ثيودوريك مدهشا بكل ما فى الكلمة من معنى لأن الجيش الذى أعده أيتيوس للتصدى لأتيلا ربما كان من أضعف الجيوش التى تولى قيادتها • وزاد الأمر خطورة عدم وجود قوات مساعدة من الهن الذين اعتاد أيتيوس الاعتماد عليهم بصفه دائمة وتكون الجيش الذى عبر به جبال الألب من القوات الرومانية بالاضافة الى الجماعات الجرمانية التى كانت قد استقرت داخل حدود الامبراطورية مقابل أداء خدمات عسكرية Laeti وكذلك قوات المحالفين الذين عاشوا على امتداد حدود الامبراطورية

وتعهدوا بالدفاع عن الحدود Foederati وهم الذين توقع حضورهم لمساعدته عندما وصل الى بلاد الغال (١٤) ٠

واستطاع أيتيوس الحصول على بعض المساعدة أيضا من الفرنجة الريبوريان Ripurian Franks والذين أعترفوا بخلافة الأبن الأصغر للملك المتوفى ٠ وقد لجأ الأبن الأكبر الى أتيلا للاعتراف به ، وربما دافع أتيلا على التحرك هو امكانية ضمان التحالف مع الفرنجة لصالحه ٠ ومهما كان الحال فان ايثيوس كان قد تبنى الابن الأصغر من قبل ووعده بمساعدة روما ٠

أما سانجبون Sangibon ملك الألن فكان يحكم دولة صغيرة تشمل مدينة أورلين Orleans التى اتخذها عاصمة له ٠ وفى وقت سابق عهدها عندما صار من الواضح بالنسبة لأيتيوس أنه لن يستطيع توقع الحصول على جنود مرتزقة من الهن ، فانه أعطى تلك الأراضى الى الألن مقابل تعهدهم بالمحافظة على سلطة الامبراطورية فى تلك المنطقة ٠ بيد أن جوردين مصدرنا الرئيسى عن الخلفية التاريخية لمعركة شالون Chalons قرر أن سانجبون ليس سوى حليفا خائنا فى أحسن الأحوال ، وأن ايتيوس خشى أن تكون هناك علاقات بينه وبين أتيلا ٠ بيد أن بعض المؤرخين حملوا على جوردين ، اذ باعتباره أحد أفراد القوط حاول أن ينسب للقوط الغربيين النصر المرتقب على أتيلا فى موقعة شالون ، وربما تعمد تشويه تاريخ سانجبون والآلن ٠ وأيا كان الحال ، فان ايتيوس كان يأمل فى تلقى مساعدة الحلفاء الآخرين : الفرنجة الصاليان Salian Franks والبورجنديين من سافوى Burgundian From Eovoy والكلت من أرموريكا (Brittany) Celts From Armorica (بريتانى (Brittany وبعض السكسون Sayons الذين عاشوا شمال اللوار ٠ على أن الجيش القوطى كان أكثر من كل أصدقاء ايتيوس أهمية بمراحل وهو الجيش الذى أحضره معه ثيودوريك الملك المسن ٠

على أن الجيش الذى صحب أتيلا الى نهر الراين كان متفوقا فى العدد تفوقا ساحقا بالنسبة الى ما أستطاع كل من أيتيوس وثيودوريك جمعه لمجابهتـه وكـان أمرا بديهيا أن ذكر المعاصرون أن جيش أتيلا اقترب من نصف مليون فرد ٠ اذ كان هذا الجيش بالنسبه لهؤلاء الكتاب مثيرا للفزع بالنسبة لتعداده وشراسته ، وأما افتراضهم أنه حوالى نصف مليون فانما هو تعبيرهم عن هذا الذعر وعلى شاكلة جيش أيتيوس تكون جيش أتيلا أيضا من مجموعة مختلفة من الشعوب فبالاضافة الى أتباعه الهن كان هناك عدد من الشعوب الجرمانية اليهرول Heruli من البحر الأسود ، والسكريان Scirians من جلاكيا Galicia والروجيان Rugians

من أقليم ثيس Theiss الأعلى والثورنجيان Thuringians ومن القوط الشرقيين تحت ملوكهم العديدين ، والجبيد Gepids من جبال داكيا Dacia تحت قيادة ملكهم أردريك Ardaric بالاضافة الى البورجنديين Burgundians من شرق نهر الراين ، وهؤلاء الفرنجة الربوريان الذين دانوا بالولاء للأخ الأكبر نزاعه على العرش • وبالرغم من أن الجرمان قاتلوا تحت قيادة قادتهم فان أتيلا تولى منصـــب القائد العام وحدد استراتيجيته الأخيرة •

على أن تفاخر أتيلا بتفوقه العددى على العدو الرومانى لم يكن يساوى شيئا اذ أن التفاوت العددى ربما لم يكن بالقدر الكافى ليكون العامل الذى يحسم المعركة •

ففى الواقع ربما كان هذا العدد عاملا معوقا • وفى غالب الأحوال أحرزت الجيوش الأصغر عددا والأفضل تنظيما النصر فى العصور القديمة • وأعنى بذلك الاغريق فى موقعة ماراثو Marathao والاسكندر الأكبر ضد الفرس ، وهانيبال ضد الرومان ، ويوليوس قيصر ضد أعدائه • وشهد القرن التالى ، بليزاريوس أقدر رجال جوستنيان ، الذى حقـق انتصارات رائعة على جيوش تفوقه عددا • ونظرا لان الجيوش كانت تعيش على ما تنتجه الأراضى التى توجد بها فى ذلك الزمان ، فانه كلما كبر حجم الجيش كلما قصرت الفترة التى يمكن لهذه الأرض أن تقدمه من طعام وعلف للخيول • واستطاع أتيلا الاحتفاظ بولاء الجرمان الذين أجبرهم عـلى العمل معه باستمرار اغاراته •

ومن المحتمل أن التفوق العددى المشكوك فيه عند أتيلا تعادل مع تفوق أعدائه فى الاسلحة والملابس الواقية الى الحد الذى جعل بعضهم يفاخر بذلك • فكل من الجيشين كان به فرق من المشاة ووحدات من الفرسان • بيد أنه عند مقارنة الفارس ثقيل العدة بزميله خفيف العدة نجد أن الرومان أحرزوا تفوقا بينا • وابان عصر الجمهورية اعتمدت روما كلية على المشاة • ولم تبدأ روما تجنيد الفرسان الا فى القـــرن الثالث الميلادى ، ولم تفعل ذلك الا وهى مكرهة للتصـــدى لرمـــاة السهام من البارثيين والسأسانيين • وشهد القرنان الرابع والخامس الميلاديان اعتمادا أكثر على الفرسان • بالرغم من أن روما وجدت بصفة عامة أن الاوفر لها الاعتماد على القوات المساعدة من البرابرة لامدادها بالفرسان • وحارب هؤلاء الفرسان تحت قيادة رؤساء قبائلهم على الرغم من انهم قبلوا أوامر أيتيوس عندما كان فى موقع القيادة •

ومن المحتمل أن الفرسان ثقيلى العدة Cataphracts كانوا

أفضل فرسان ذلك العصر ، وهم الذين استخدمهم أباطرة القسطنطينية على نطاق واسع • وكان الفارس ثقيل العدة يضع على رأسه خوذة من الصلب ، ويرتدى قميصا ذا دروع ، ويحمل خنجر ، وفأس حرب ، ورماحا ، وقوسا ؛ وترسا مستطيلا • وبعد موقعة شالون بحوالى خمس وسبعين سنة كتب بروكوبيوس Procopius عن هؤلاء الفرسان واعتبرهم أفضل فرسان فى العالم • ومن المشكول فيه أن أيتيوس كان عنده فرسان ثقيلو العدة على النمط البيزنطى ، بيد أنه فاخر بما عنده من بعض الفرسان المسلحين تسليحا مكثفا • وكانت الغالبية العظمى من فرسانه أسلحتهم خفيفة • ولم تزد أسلحتهم عن القوس والرمح الا قليلا • وحاربوا وهم فى حماية الفرسان الأكثر عدة ، كما عملوا فى الدفاع عن القلاع •

وجعل ارتباط الهن بخيولهم منذ صباهم وكذلك تقاليدهم القديمة • منهم فرسانا لا نظير لهم • فكانوا على قدر كبير من المقدرة والحركة السريعة تفوق أى فارس آخر • وفى استطاعتهم ركوب خيولهم لفترات أطول من الزمن • وعلى مثال الفارس ثقيل العدة كانوا يحملون الأقواس والسهام ومن المحتمل أنهم استعملوها ببراعة تفوق أى جنود فى العالم • وحملوا أيضا رماحا طويلة وسيوفا وخناجر • كما كان يحمل الفرسان ثقيلو العدة • وكانوا يفتقرون الى البذلة الحربية الواقية المدرعة تدريعا ثقيلا • ولم يكن هناك من يقدر على تزويد نفسه بالملابس الواقية سوى أكثرهن ثراء • وعلى الرغم من أن الفرسان الهن اعتادوا وضع خوذات معدنية على رؤوسهم ، وكانت تمتد الى أنوفهم • وخشية أن يعوق وجود ترس كبير قدرتهم على الحركة ، فانهم حملوا تروسا صغيرة مصنوعة من أغصان صغيرة لدنة ومجدولة ومغطاة بالجلد • وكان من عادة الفارس استخدام قوسه فى قذف عدوه بوابل من السهام ثم الاقتراب من العدو للدخول معه فى معركة وجها لوجه مستخدما الرمح والسيف • وظهر الوهق (*) Lasso فى مجموعة الاسلحة التى استخدمها الهن على الرغم من عدم ذكر استخدام الهن لهذا السلاح فى معركة شالون •

وباستثناء القوط كان الجرمان أبطأ فى استخدام الخيل للاغراض الحربية • وتعلم القوط أهمية الفرسان من جيوش الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومن الفرس قبل أن يبدو الفرسان الهن عبور الأراضى شمال البحر الأسود • أن الفرسان من القوط الغربيين ، بالاضافة الى بعض القوط الشرقيين ، والآلن هم الذين أهلكوا القسم الاعظم من مشاة الرومان فى موقعة أدريانوبل سنة ٣٧٨ م • وفى شالون ، كما سنرى ، تمكن

(*) الوهق هو حبل فى طرفه أنشوطة يستعمل لاقتناص الخيل — المترجم •

الفرسان القوط ثقيلو العدة من تحويل مصير المعركة ضد أتيلا والهن • وربما أسهم الفرسان الألن فى هزيمة أتيلا ، اذ أنهم كانوا على قدم المساواة فى المهارة مع الهن •

ومن ناحية أخرى فان الفرنجة والغالبيـــة العظمى من القبـائل الجرمانية ظلوا محتفظين بجنود المشاة فى الدرجة الأولى (١٥) •

وبعد ذلك اختار شارل المطرقة Charles Martel الذهاب الى معركة تورز Tours الشـهيرة سـنة ٧٣٢ م ، ومعه رجاله من الفرنجة ، وهم على صهوة خيولهم ، ثم ترجلوا وخاضـوا المعركة كمشـاة ، وحققوا النصر على المسلمين المغـاربة بفضل سيوفهم الكبيرة • غير أن أتيلا والهن كانوا ينظرون الى المشاة بازدراء • ويحكى جوردين كيف أن أتيلا حاول رفع معنويات أتباعة الى أقصى درجة ممكنه ، بسخريته من جنود المشاة الذين جمعوهم ضـــده • وربما كان من بين حلفائه الجرمان من كان من المشاة لأن جوردين وصف الليلة التى سبقت معركة شالـون قائـلا ان الجيبيد Gepids خاضوا معركة مريرة ضد الفرنجة وتركت جثث خمسة عشر ألف مقاتل فى أرض المعركة •

وفى أوائل ربيع سنة ٤٥١ م حرك أتيلا جيشه من بانونيا Panonia الى لورين Lorraine وفى السادس من ابريل قبل عيد الفصح بيوم واحد استولى على مدينة متز Metz ودمرها • وتعرضت مدينة ريمز Rheims للمصير نفسه • بيد أن باريس نجت بناء على نصائح القديس جينيفيف St. Genevieve وربما كانت مدينة أورلين Orlean هدف أتيلا العاجل • ويوجد هناك سنجبان Sangiban ملك الالن ، وهناك عاصمة سنجبان ملك الالن ، واذا ما قبل المـرء رأى جوردين المتحيز للقوط ، فربما كان هذا الملك قد وعد أتيلا بالتعاون معه • ومع ذلك ، فهناك من الشواهد ما يضحض اتهام جوردين • فيبدو أو أورلين قد عانت من حصار دموى وأوشكت على السقوط فى أيدى أتيـلا لولا وصول قوات ايتيوس والقوط الغربيين ، مما أجبر رئيس الهن عـلى التراجع •

ومهما يكن من أمر عن القصة الواقعية عن مدينة أورلين ، فان أتيلا انسحب الى الشمال الغربى تجاه أقليم بلجيكا Belgica وربما كان ذلك نتيجة لمطاردة القوط الغربيين وأيتيوس له • وعلى بعد حوالى خمسة أميال من مدينة تروى Troyes وفى مكـــان يعرف باسم لوكوس موريا كوس Locus Mauriacus (Maurnacplace) ويشار اليه باسم حقول كاتلونيان Catatlaunian Fields نصب خيام معسكره •

واستعد لاقامة موقع له وان كان الموقع الدقيـــق الذى دارت فيه رحى المعركة مازال موضوعا للخلاف الى حد ما • اذ أن المصادر المكتوبة ليست واضحة ، كما أن الدراسات المتعلقة بعلم الآثار لم تقدم ما يساعد العلماء على تحديد المكان الصحيح • ونظرا للاعتقاد بأن مكان المعركة كان فى شالون ، واستمر هذا الاعتقاد لعدة قرون ، فقد ظل محتفظا بهذه التسمية على الرغم من أن المعركة دارت فى مكان أقرب الى تروى Troyes وهناك حقيقة مهمة عن المكان الذى يشتمل على مـكان كبير غير مطـوق بحواجز • ولا شك أن أتيلا اختاره ليتيح لفرسانه أكبر حيز من المكان لحرية العمل •

وبدأت المعركة فى وقت متأخر بعد الظهر ، ولم يكن قد بقى على غروب الشمس سوى ثلاث ساعات • وهناك قصـة تفسر اختيار هـذا الوقت المتأخر اذ يقال أن العرافين الذين استشارهم أتيلا قبل المعركة حذروه من أنه سيتعرض للهزيمة حتى لو نجح فى قتل قائد أعدائه • وتمضى القصة فتقول أن أتيلا فى ذلك الحين ، كان يحمل فى قلبه كراهية شديدة تجاه أيتيوس ، وكان على استعداد أن يتلقى الهزيمة ، اذا كانت تحقق له مقتل عدوه • لذلك فانه أخر بدء المعركة الى ما بعد الظهر ليمنع العدو من الحصول على الوقت الذى يحقق له احراز معركة فاصلة • ان القارىء الذى يعتقد فى أقوال المتنبئين سيشعر بالارتياح اذا علم أن قائد القوات المعادية لقى حتفه فى معركة شالون • وبرغم ذلك لم يكن أيتيوس ، وانما ثيودريك ملك القوط الغربيين •

ان الغموض الذى اكتشف العديد من ملامح معركة شالون لم يمتد ليشمل التنظيم الفعلى للمتحاربين فى الجيوش المتقاتلة ، وذلك اذا أعتبر المرء أن رواية جوردين صحيحة (١٦) • وبناء على ما ذكره جوردين ، خصص أيتيوس مكان التشريف ، وهو الجناح الايمن ، لثيودوريك ملك القوط الغربيين • وهذه الاشارة التى تعبر عن المشاعر الودية ، لا بد وأنها أدخلت السرور على قلب ثيودوريك الذى ظل راغبا فى المحافظة على اخلاصه لأيتيوس مهما كلف من أمر • وكخطوة وقائية ، أشرك أيتيوس معه فى النجاح الايسر ثورسموند Thorismund الابن الأكبر لثيودوريك وكذلك الجنود « الرومان » • ان معرفة وجود ثورسموند فى صحبة أيتيوس يحد من مخاطر انحياز ثيودوريك الى الجانب الآخر أو الانسحاب • وكاجراء أمنى قام أيتيوس بوضع سنجبان والالن اتباعه فى قلب الجيش اذ كانت درجة الاعتماد عليهم موضع شك • غير أن ادعاءات جوردين بخصوص سنجبان كانت لا أساس لها من الصحة ، وهى

التى رفضها عالم حديث ، اذ ثبت أن الالن جعلوا من أنفسهم درعا واقيا ضد أشرس هجمات أتيلا التى استطاع شنها عليهم (١٧) ٠

ونظرا لأن أضعف أقسام جيش أيتيوس كان قلب الجيش ، وفقا لرواية جوردين فانهم أشاروا الى احتمال أن يكون القائد الرومانى قد قرأ ما كتبه بوليبيوس Polybius عن النصر المبين الذى أحرزه هانيبال على الجيش الرومانى فى موقعة كاناى Cannae سنة ٢١١ق ٠ م قام القائد القرطاجى باضعاف قلب جيشه عن عمد على أمل أن يندفع الرومان باقصى سرعة وهم على خير علم بالجناحين القويين للجيش القرطاجى اللذين حاصرا الجيش الرومانى من جميع الجهات واذا كانت هذه هى أيضا الخطة والفكرة التى نفذها أيتيوس فى معركة شالون فمعنى ذلك أن أتيلا وقع فى نوع الفخ نفسه كما حدث للرومان فى موقعة كاناى ٠ اذ وضع أتيلا أقوى قواته فى قلب الجيش ليواجهوا سنجبان « الخائن » والالن وأتباعه ٠ وفى الجناح الايسر فى جيش أتيلا وفى مواجهة جيش القوط الغربيين حشد أتيلا قوات من القوط الشرقيين والجيبيد ، الذين كانوا أفضل حلفائه من الجرمان ٠ وترك قوات مشتركة فى مواجهة أيتيوس ٠

وقبل أن تبدأ المعركة الكبرى بوقت قليل أحرز أيتيوس ميزة تكتيكية لها بعض الأهمية ٠ ان هذه الميزة تتعلق باحتلال قمة أحد التلال الذى كان يقسم الاستواء العام للمنطقة الى قسمين (١٨) ٠ وبعد حدوث بعض المناوشات استعد أيتيوس لادارة المعركة ٠ غير أن هذا النصر ليس « سوى مناوشة قبل بدء المعركة الكبرى » ٠ وربما أتاحت الأرض الأعلى الفرصة لايتيوس لرصد تحركات العدو بطريقة أفضل ، وبالاضافة الى ذلك فانها مدت جيشه بدفعة سيكولوجية أدت الى رفع روحهم المعنوية ٠ على أية حال ، أعتبر جوردين نجاح ايتيوس مهما للحد الذى دفع أتيلا الى القاء خطاب طويل على رجاله بعد هذه النكسة فى محاولة لاستجماع قواهم وروحهم المعنوية المنهارة ٠

وفيما يتعلق بتفاصيل المعركة ذاتها فما بقى منها ليس سوى شذرات مقتضبة وليست واضحة ٠ ويبدو أن ايتيوس وثورسموند اندفعا الى الامام فى مواجهة الجناح الايمن الضعيف فى جيش الهن ، فى حين أن أتيلا اندفع بأقصى قوته تجاه قلب الجيش الرومانى حيث يتمركز الالن ٠ وبذلك عرض أتيلا الجناح الايسر لجيشه لهجوم مرعب قام به ثيودوريك والفرسان ثقيلو العدة للجيش القوطى (١٩) ٠ وقبل أن يسبق السيف العذل أدرك أتيلا خطورة أن يجد نفسه محاصرا بين جناحى الجيش الرومانى ٠ لذلك فما أن أوشكت الشمس على المغيب حتى تقهقر أتيلا الى معسكره ٠ وفى اليوم نفسه ، أو فى الصباح التالى على أفضل الاحتمالات

ضرب ايتيوس والقوط الغربيين حصارا حول معسكر أتيلا ، اذ أنهم لم يرغبوا في الدخول في هجوم مباشر • وأبان هذا الحصار تم التعرف على جثة ثيودوريك •

ويتفق الكتاب المعاصرون على نقطتين بخصوص المعركة : الأولى أن الخسائر البشرية عند الطرفين كانت فادحة ، والثانية أن المعركة انتهت دون احراز نصر واضح سواء لصالح أتيلا أو أتيـــوس • وذكر المؤرخ اداتيوس Idatius أن عدد القتلى بلغ ثلاثمائة ألف محارب ، وهو رقم مبالغ فيه اذا ما قورن بما قدره جوردين بمائة ألف وخمس وستين ألفا : ويميل المؤرخون المحدثون الى الاتفاق على ثلاث نقاط : ان الفريقين كانت خسائرهما فادحة ، وأنه في الوقت الذى لم يحقق أيتيوس نصرا حاسما ، فان أتيلا كان في موقف دفاعى بشكل واضح في المعركة التالية ، وأن مقتل ثيودوريك ملك القوط الغربيين ، ثبت أنه كان تطورا حاسما •

ان تحليل النتائج المترتبة على المعركة جاء وفقا لرواية جوردين بصفة أساسية على النحو التالى : لو قدر لثيودريك البقاء على قيد الحياة ، لظل متعاونا مع أيتيوس في الاستمرار في مهاجمة أتيلا ، الى أن يتحقق النصر النهائي • كذلك فان ثورسموند الذى نادى به جيش القوط الغربيين ملكا على الفور بمجرد التعرف على جثة والده ، كانت لديه الرغبة في مواصلة تحقيق المكاسب التى أحرزها ، بيد أن ايتيوس اعترض على ذلك • اذ خشى ايتيوس من أن تحقيق نصر حاسم عـلى أتيلا ســوف يؤدى الى تعرض الامبراطور لخطر القوط الغربيين بعد القضاء على تهديد الهن الخطير ، حيث لم يكن في استطاعة الرومان الصمود أمام الجيش القوطى المنتصر • لذلك حذر أيتيوس ثورسموند من أنه ليس في استطاعته التأكد من تأييد كل رجال البلاط الملكى في تولوزا Tolosa (Toulouse) على الرغم من مناداة الجيش به ملكا • وعلى ذلك أشار عليه أيتيوس بالاسراع في العودة الى عاصمته قبل وصول نبأ وفاة والده الى هناك خشية أن يغتصب أحـد أخوته العرش • وأعتبر ثورسموند تلك النضيحة وجيهة ، وقاد جيشـه تجـاه الجنـوب ، وبالفعل ثبت فيما بعـد أن نصيحة ايتيوس لم تكن جوفاء ، اذ استولى ثيودوريـك الثانى على العـرش بعد أن قتل أخاه ثورسموند بعد عامين اثنين فقط •

وهناك تفسير لا نسحاب ثور سموند من شـالون ، هو أنه لم يتم بناء على موافقة ايتيوس ، وانما جـاء على عكس ما كان ثيودوريك والد ثورسموند راغبا في التعاون مع أيتيوس ، وعلى ايستعداد لقبول قيادته في الصراع المرير ضـــد أتيلا ، الذى ربما أعتبره عدوا للقوط الغربيين

بمثل درجة عداوته للرومان • بيد أن الموقف بالنسبة الى ثورسموند كان مختلفا ، اذ نظر ثورسموند الى قوة أيتيوس والرومان على أنها تشكل تهديدا لدولة القوط الغربيين ، كما تشكل تهديدا لأتيلا والهن بعد النجاح الذى تم احرازه فى شالون منذ اليوم الأول • ولابد أن ثورسموند وجد أنه من الأفضل لمستقبل القوط الغربيين أن يسمحوا للقبائل الجرمانية على امتداد نهر الراين وكـــذلك لقبائل الهن أن يستمروا جميعا فى منازعة السلطة الرومانية فى بلاد الغال •

فلما رغب أيتيوس فى استمرار الحرب ضد أتيلا الى أن يحرز نصرا نهائيا ؟ ان الاجابة أسهل ما تكون وضوحا • فبعد كل الجهود المضنية التى بذلها لاقامة تحالف وطيد بين الشعوب المختلفة والمتعددة ضد رجل كان يهدد وجود الامبراطورية ذاتها ، لم يكن على استعداد لأن يدع فرصـــة القضاء على ذلك الرجل تفلت من بين أصابعه • ولا بد أن هناك هدف آخر فى ذهن أيتيوس وهو أن يتمكن من تجنيد الفرسان الهن لصالح روما • وكان أتيلا قد رفض ذلك بشدة • فى حين أن ايتيوس وجد أن هؤلاء الهن لا يمكن الاستغناء عنهم ، وانهم يشكلون قوات مساعدة على جانب كبير من الأهمية ، فى جهوده للدفاع عن الامبراطورية • وأنه بدون مساعدتهم المستمرة ، وفقا لرؤيته ، لن يقدر للامبراطورية البقاء طويلا •

وظل أتيلا لمدة يومين أو ثلاثة يفكر تفكيرا عميقا لمعرفة أسباب فشل العدو فى استغلال النصر الذى أحرزه ، ثم قاد رجاله وحلفاءه للعودة عبر نهر الراين • وفى المجر ظل يلعق جراحه حتى الصيف التالى ، عندما قاد جيشا آخر عبر بانونيا Pannonia وعبر جبال الألب الى عمق ايطاليا • وربما كان الدافع المحرك لهذه الحملة العسكرية هو الشعور بالكراهية تجاه أيتيوس ، وكذلك الرغبة فى الانتقام ، أو ربما كانت بناء على رغبة أتباع أتيلا فى الحصول على الغنائم • اذ من المحتمل انهم حصلوا على القليل من الغنائم من الحملة التى قاموا بها فى العام السابق ، وانتى انتهت بهزيمتهم فى موقعة شالون •

وكان احتلال مدينة آكويليا Aquileia فى أواخـــر صيف ٤٥٢ م بمثابة الانجاز الرئيسى الذى حققته هذه الحملة الايطالية • ولقد دمر ت قوات أتيلا تلك المدينة تدميرا كاملا لدرجة أنه بعد قرن من الزمان لم يستطع جوردين أن يتعرف الا على القليل من الآثار • وكانت مدينة باتافيوم Patavium (Padua) قد تعرضت للتدمير تدميرا كاملا ؛ بيد أنه قدر لها أن تشهد مستقبلا مشرفا • على حين أن المدن التى فتحت أبوابها تعرضت لخسائر أقل وطأة • وشملت تلك المدن فسينزا Verona

وفيرونا Verona ، وبرسكيا Brescia ، وبرجامو Bergamo وميلان Milan وبافيا Pavia • والى الجنوب من ميلان وعلى مقربة من مينكيو Mincio لم يقابل أتيلا أيتيوس الذى قام بتسريح جيشه ، وانما قابل وفدا برياسة البابـــا ليو الأول (الكبير) • ان توسلات هذا الوفد وما قدمه من الأدلة ، ارتبطت بها مجموعة متنوعة من العوامل الأخرى ــ اذ يرى المؤرخون أن حالة الملل التى سادت بين الحلفاء الجرمان فى جيش أتيلا ، والقص فى الطعـام والأعـلاف وتفشى مرض الدوسنتاريا ، وانهاء حضور مارقيان الامبراطور الرومانى الشرقى ومعه جيشه ــ أجبرت أتيلا على الانسحاب من ايطاليا والعودة الى المجر •

ولم يبق أتيلا على قيد الحياة سوى أشهر قلائل • وبعـد وفاته بوقت قصير انتهت امبراطوريته • ففى ربيع سنة ٤٥٣ م أضاف الى زوجاته العديدات زوجة « جميلة جدا » تدعى الديكو Ildico ، بيد أنه مات ليلة زفافه نتيجة لاصابته بنزيف بالانف • وكتب جوردين أنه لو لم يكن أتيلا شخصا محبا للنوم ومدمنا للشراب ، لما خنقه الدم الذى نزف من أنفه • وفى العام التالى ثارت الشعوب الجرمانية التابعة لأتيلا ، وأبادت جيشا من الهن فى نيدو فى بانونيا Pannonia وقتلوا الاك Ellac الابن الاكبر لأتيلا • وكان مقتل دينزيك Dinzic وهو أحد أبناء أتيلا فى موقعة تعاون فيها الرومان والقوط الشرقيين سنة ٤٦٩ م ، اعلانا رسميا بانتهاء الامبراطورية التى أقامها أتيلا •

وكان ظهور الهن فى أوروبا حوالى سنة ٣٧٥ م • وبعد ذلك بحوالى قرن من الزمان ، انتهت صفحتهم من التاريخ • وحيث أن امبراطوريتهم قدر لها البقاء لفترة قصيرة نسبيا ، وربما أنهم لم يتمكنوا اطلاقا من الاستيلاء على جزء كبير من الامبراطورية الرومانية لأنفسهم لذلك يتساءل المرء عن سبب الأهميـــة المتعلقة بمعركة شالون التى حددت لهم بداية النهاية • ولماذا اعتبرت المعركة التى دارت رحاها فى ربيع ٤٥١ م ــ معركة فاصلة ؟

لقد أثبتت معركة شالون للامبراطورية الرومانية الغربية ، وللقبائل الجرمانية ان الهن يمكن هزيمتهم • اذ لو قدر لأتيلا أن يعيش ربع قرن آخر ولولا أن الهزيمة التى منى بها فى شالون والتى حطمت أسطوره أنه لا يغلب ، لكان فى امكانه أن يفتح كل الامبراطورية الرومانية الغربية • فعلى سبيل المثال ، أحيانا يخطىء التاريخ والتـراث ، كما فى حالـة الوندال ، الذين ، لا يستحقون الشهـــرة التى التصقت بهم كمخربين متوحشين • غير أن التاريخ والتراث لم يكونا مخطئين فيما يتعلق بالهن ــ

ان موقعة شالون قد عجلت بنهاية وجود أعتى الغزاة « البرابرة » الذين تعرضت لهم أوربا . كما أن كلمتى الهن وأتيلا تستحضران فى الذهن صورة دقيقة تماما عن المدن التى دمرت تدميرا كاملا ، والمجتمعات التى ذبح أفرادها والشعوب التى تحولت الى عبيد .

ولقد أبدى الهن عدم مبالاة بتأثيرات ثقافة أعلى . كما أنه لو قدر لأتيلا النصر فى شالون لعانى المستوى الثقافى لغرب أوربا من التدهور الشديد والسريع . ويشك العلماء فى ادعاء البندقية أن سكانها الأصليين كانوا من اللاجئين الذين هربوا عند مقدم أتيلا . ولا يشك أحد فى الخوف الذى يمكن أن تثيره صورة أتيلا فى فكر المعاصرين . اذ بعد مرور حوالى خمسة عشر عاما على موت أتيلا خرجت كل القسطنطينية عن بكرة أبيها لتحمل رأس ابنه المذبوح دينزيك Dinzic فى موكب انتصار .

« ان الأهمية الحقيقية لأتيلا (ولشالون) تكمن فى حقيقة أن هجوم أتباعه من الهن أجبر الرومان والشعوب التيتونيـــة على الاعتراف بان المصالح المشتركة ، أو ان شئت الحضارة ، كانت فى خطر ، ومن ثم دفعهم ذلك الى التحالف القوى الذى أعتمد عليه التقدم العالمى فى المستقبل » (٢٠) .

٣ ـ معركة اليرموك

يطلق عام الفيل على سنة ٥٧٠م لأن أبرهة أحضر فيلا معه ، ربما على أمل أن منظر هذا الحيوان المخيف الشكل سيخيف العرب بالبادية ويدفعهم الى الاستسلام ٠ واذا كانت حملة أبرهة قد انتهت بالفشل الا أنها ظلت حادثة لها ذكراها فى العالم الاسلامى (١) ٠

ولد محمد [صلى الله عليه وسلم] (٢) عام الفيل ٠ وعند وفاته سنة ٦٣٢ م كان قد ترك دولة قائمة على المبادىء الدينية راسخة الأركان لدرجة أنه على مدى حوالى قرن من الزمان استطاع بعض أتباعه التوغل فى أراضى بلاد الهند فى الوقت الذى كان فيه آخرون يحاربون الفرنجة فى بلاد الغال التى تبعد حوالى ثلاثة آلاف ميل الى الغرب ٠ على أن الحادثة التى فتحت الطريق لاقامة هذه الامبراطورية الضخمة التى امتدت حدودها من جبال البرانس ، وهى الحادثة التى قضت على أكبر امبراطورية فى وقت وجيز ، تمثلت فى النصر المبين الذى أحرزه المسلمون على الجيش البيزنطى فى موقعة اليرموك فى صيف سنة ٦٣٦م ٠

ومن بين الظروف التى يمكن ارجاعها لهزيمة الامبراطورية البيزنطية الضخمة على هذا النحو المثير للدهشة بشكل خاص كان عدم معرفة عالم البحر المتوسط لشبه الجزيرة العربية وشعبها ٠ والاقتراب من الاحساس بالازدراء تجاههم من ناحية القلة الذين لا يعرفون عنهم شيئا ٠

---

(١) الواقع أن أنواعا من الفيلة الضخمة التى انقرضت ولم تعد موجودة حاليا كانت تستخدم فى العصور الوسطى واستخدمها الفرس ضد الروم فى معاركهم وكانت الخيول تفزع لمجرد رؤيتها أو شم رائحتها ، كما استخدمها كذلك ملوك الحبشة فى حربهم واحتفالاتهم ــ المترجم ٠

(٢) ما بين حاصرتين من عند المترجم ٠

فمنذ عصور ما قبل التاريخ ظلت شبه الجزيرة العربية بعيدة على مدى التاريخ • حيث ظهرت امبراطوريات الشرق الأدنى واندثرت ـ بابل ومصر وآشور والكلديون والفرس والاسكندر الأكبر ـ كما لم يبد غرب أوروبا سوى قليلا من الاهتمام بالشعب الذى يعيش فى شبه الجزيرة العربية الشديدة الحرارة والجفاف • ولو كانت شبه الجزيرة العربية تمتلك مخزونا من السلع الغذائية لقامت تجارة مزدهرة ولتحققت علاقات وثيقة مع الشعوب التى تعيش هناك • على أن شبه الجزيرة استطاعت أن تفاخر على نطاق ضيق لوجود القليل من التوابل والبخور • وبالرغم من أن هاتين السلعتين كانتا لهما قيمتهما ، فانه لم تكن هناك حاجة ماسة اليها من الناحية العملية الا أن طريقا للقوافل التجارية القادمة من بلاد بنط المحملة بالمنتجات الاستوائية من افريقيا الى مصر وسوريا لكان من الممكن ألا يسلك أحد شبه الجزيرة العربية على الاطلاق •

وليس معنى ذلك أن شبه الجزيرة العربية فى عزلة تامة عن باقى الشرق الأدنى القديم فاحدى الأحوال اللافتة للنظر هى حقيقة أن العديد من الشعوب التاريخية ترجع أصولها الى تلك البلاد الصحراوية • هناك الأكاديون الذين أبلغنا عنهم العلماء أنهم انتقلوا الى بابل حوالى ٢٣٠٠ ق•م • وبعدهم جاء الآشوريين ، والكلديون ، والأموريون ، والآراميون والفينيقيون ، والعبريون ، وكل الشعوب السامية ، كلهم جميعا تركوا شبه الجزيرة العربية عندما ازدادت أعدادهم عن قدرة هذه الأرض على تحملهم ، وشقوا طريقهم تجاه الوديان الخصبة لنهرى دجلة والفرات • وبمرور الوقت كونت تلك الشعوب تاريخها ونسيت باقى العالم أصولهم فى شبه الجزيرة العربية القاحلة • وليست هذه حالة العرب الذين آمنوا برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) اذ بعد وفاته حمل أتباعه رسالته الى كل أنحاء عالم البحر المتوسط وأقنعوا العديد من الشعوب على الايمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وتحويل مدينة مكة التى كانت مغمور ةوغير معروفة الى اسم مكة المكرمة .

وكان من الممكن أن يكون كبر مساحة شبه الجزيرة العربية عاملا على جعلها أرضا مهمة لولا افتقارها الى الأمطار اذ أن مساحتها تعادل ثلث مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وهى شبه جزيرة كبيرة تحيطها تقريبا المياه ، بيد أن معظمها صحراء • ان موقعها المتاخم لمصر ، وسوريا ، وبابل كان من الممكن أن يكون مثاليا من وجهة النظر التجارية لو أنها كانت تنتج شيئا تصدره ، وبالاضافة الى وجود أراضى بها شديدة الحرارة وشديدة الجفاف ، وغير صالحة للانتاج ، وتوجد الزراعة على الحدود الخارجية لشبه الجزيرة فقط • فعلى امتداد الساحل الغربى الى الجنوب فى

اليمن وعسير تسقط الأمطار الكافية للسماح بزراعة التربة • وفي الحجاز الى الشمال موطن محمد [صلى الله عليه وسلم] (*) كانت الحياة ممكنة لوجود الواحات وينابيع المياه التى جعلت الصحراء مخضرة حيث أمدت البدو بالأعشاب التى تعيش عليها الجمال ومع ذلك فان فقر شبه الجزيرة العربية هو الذى دفع العديد من قبائلها فى العصور القديمة الى الهجرة الى بابل ، وهو نفس الفقر الذى لعب دورا غير مباشر فى حدوث الفتوح الاسلامية فى القرن السابع (**) •

ان الحياة الشاقة فى شبه الجزيرة العربية أوجدت شعبا شديدا معتمدا على نفسه وكانت الحياة هناك صراعا مستمرا من أجل البقاء ، وهى حالة يمكن تفسيرها فى وأد البنات حتى ظهور محمد [صلى الله عليه وسلم] ثم قضى عليها الاسلام • وانقسم العرب بصفة عامة الى طبقتين ؛ العرب أهل الحضر الذين عاشوا فى القرى والمجتمعات الأكبر مثل مكة والمدينة وعرب البادية الذين جالوا فى الصحارى والواحات بحثا عن الزاد • وكانت الحياة البدوية مميزة فى وسط وشمال شبه الجزيرة العربية ، والتى شملت الحجاز موطن محمد [صلعم] ، وشكل البدو معظم العنصر الأكثر قلقا لسكان شبه الجزيرة العربيــة ، واعتادوا على الاغارة التى كانت عنصرا أساسيا تقريبــا • ونظرا لفقر التربة وقلة انتاجهـــا ، صارت الاغارات على من يملك سبيلا أيسر للحياة ، وسيلة ضرورية للبقاء • وذكر شاعر بدوى : « أن مهمتنا هى أن نغير على الأعداء ، وعلى الجيران ، وعلى الشقيق ، فى حالة عدم وجود سوى ذلك الشقيق » (٢) • وثبت أن خلفاء محمد [صلى الله عليه وسلم] آمنوا بهذا المبدأ الأساسى عندما حملوا رسالته والسيف الى الشعوب خارج شبه الجزيرة العربية (***) •

ان وجود الخيل والجمل مسألة نمطية تقريبا بسبب الجفاف والحرارة الشديدة فى شبه الجزيرة العربية اذ بدونهما كانت الحياة فى شـــبه الجزيرة العربية غير ممكنة • وصار البلح الذى نقـــل من بابل سلعة

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

(**) يختلف المترجم مع المؤلف فى هذا الرأى • ويرى المترجم أن العرب خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى أواخر عصر رسول الله (صلعم) وفى عصر الخلفاء الراشدين كحملة رسالة قبل كل شىء وفوق كل شىء ومما يؤكد رأى المترجم الرسائل التى أرسلها رسول الله عليه الصلاة والسلام الى رؤساء وقادة العالم فى ذلك الحين يدعوهم فيها جميعا للاسلام • المترجم

(***) اثق أنه لا يغيب عن حصافة القارىء الكريم هذا القول المجحف ، وأنى لعلى يقين بما حدث عند نشر الدعوة الاسلامية خارج الجزيرة العربية فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الاسلامى الأول — المترجم •

رئيسية ، وكون لبن الجمل والبلح عنصرا أساسيا فى طعام البدوى • وأوصى النبى [صلى الله عليه وسلم] (*) بالنخلة قائلا « أوصيكم خيرا بالنخلة ، فقد خلقت من الصلصال الذى خلق منه آدم » (*) (٣) • وأمد الجمل ساكن البادية من العرب باللبن واللحم لاطعامه ، والوبر لصناعة خيامه ، والروث للوقود ، وهو وسيلة الانتقال الرئيسية • والواقع أن تاريخ المجتمع الانسانى فى شبه الجزيرة العربية يبدأ مع تحول الجمل الى حيوان أليف • فالجمل من نعم الله الكبرى (القرآن الكريم ١٦ : ٥ ـ ٨) (**) •

ان مناخ شبه الجزيرة العربية بالاضافة الى طبيعة الترحال لسكانها المتناثرين لم يشجع منذ أمد بعيد على اقامة دول سياسية ، ففى اليمن فى الجنوب ، ظهرت مملكة سبأ بحلول القرن الثامن ق•م ، بيد أن العشيرة كانت الوحدة الاجتماعية والسياسية بشكل نمطى سائد بصفة عامة • فلكل أسرة خيمتها ، وتشكل مجموعة الخيام عشيرة ، وتعترف مجموعة من العشائر برئيس أعلى لها ، وتكون القبيلة • وتمتع الشيخ ، رئيس العشيرة أو القبيلة ، بمركز القيادة ، بالرغم من أنها كانت مسئولية مارسها بناء على موافقة القادة الآخرين للجماعة • وفى مجتمع أكبر مثل مكة ، تركزت السلطة فى أيدى الأقلية من التجار الأثرياء الذين كانوا قادة لعشر عشائر أو أكثر ، والتى تكونت منها قبيلة قريش ، وسيطرت على المدينة • وولد محمد [صلعم] فى عشيرة هاشم ، وهى عشيرة متواضعة من الناحية الاجتماعية • وكانت عشيرة بنى أمية أشهر عشائر مكة ، وهى التى قدر لها أن تكون أسرة قوية (٦٦١ ـ ٧٥٠م) • فى التاريخ الاسلامى •

دخلت شبه الجزيرة العربية التاريخ حوالى القرن العاشر قبل الميلاد عندما زارت ملكة سبأ سليمان مع قافلة من الجمال (٣ الملوك ١٠) (***) وبعد ذلك استولت ملكة سبأ على الممالك العربية الجنوبية الأخرى ، وكانت مملكة معين Ma'in احدى تلك الممالك ، التى كانت نشطة فى استعمار الأرض المعروفة حاليا باسم الحبشة • على أن أول معركة حربية خاضتها شبه الجزيرة العربية ضد دولة كبرى كانت فى القرن

(★) أحقا ما ذكر هو حديث نبوى شريف !!! (المترجم) •

(★★) يقصد المؤلف من تلك الجملة تلخيصا لما ورد من الآية الخامسة الى الثامنة من سورة النحل ـ المترجم •

(★★★) الصواب سفر الملوك الأول الاصحاح العاشر : ١ ـ ١٠ وانظر الكتاب المقدس • المترجم •

السابع قبل الميلاد عندما لفتت حالة ثراء سبأ مملكة آشور فى الشمال • مملكة فى صحراء النجف ، عاصمتها البتراء • على أن أول محاولة قامت بها روما لاحتلال الحجاز ابان عهد الامبراطور أغسطس باءت بالفشل ، بيد أن البتراء نفسها سقطت فى يدى الامبراطور ترجان ســـنة١٠٦م • وتمتعت مملكة تدمر فى الشمال ، بفترة قصيرة من الشهرة فى القرن الثالث الميلادى ، وكانت فى بداية الأمر حليفة للرومان ، ثم صارت دولة مستقلة ، الى أن استطاعت قوة الرومان النشطة القضـــاء على وجودها سنة ٢٧٢م • ومدت دولة الحبشة نفوذها الى اليمن بنجاح معظم الفترة الأخيرة من أواخر القرن الثانى قبل الميلاد ، عندما نجحت محاولة أبناء حمير فى فرض سياستهم على اليمن • ومنذ أواخر القرن الرابع الميلادى استمرت القوتان العظميـــان فى ممارسة تدخلهمـــا فى شئون اليمن • احداهما كانت الامبراطورية الفارسية الساسانية ، التى كانت عاصمتها طيســـفون على نهر دجلة ، والأخرى الامبراطورية الرومانيـــة الشرقية (البيزنطية) وعاصـــمتها القسطنطينية • ولم تقتصر جهودهما على محاولة فرض النفوذ على اليمن ، وانما امتدت تلك الجهود لاقامة دولتين عربيتين تتبع احداهما الفرس والأخرى الرومان فى شمال شبه الجزيرة العربية وتحالف الفرس مع مملكة اللخمين على الحدود الشرقية للصحراء السورية ، بينما كانت القسطنطينية على علاقة صداقة مع الغساسنة فى الغرب •

تلك كانت أحوال شبه الجزيرة العربية سنة ٥٧٠م ، عندما ولد محمد [صلعم] • ومن كان يتوقع أن هذا الصـــبى اليتيم الذى ولد من أبوين فقيرين ، سوف ينتزع تاريخ شبه الجزيرة العربيـــة من بين أيدى جيرانها الأقوياء ، وأن يضع أساس عظمتها فى المستقبل • على أن ظروفا عديدة سبقت طموح محمد [صلعم] قبل أن يجعل من نفسه قائدا روحيا وسياسيا لشبه الجزيرة العربية (*) فمن ناحيـــة ولد فى مكة المدينـــة الرئيسية ، ومن ناحية أخرى أنه قام فى مكة التى بها الكعبة وهى التى جعلت مكة مدينة مكرمة عند العرب •

وفى داخل هذا البناء المستطيل الشكل غير المسقوف كان هنـــاك العديد من الأصنام التى عبدها العرب فى شبه الجزيرة العربية ، واعتادوا الحضور لزيارتها فى فترة هدنة الربيع • ويقال ان ابراهيم [عليه السلام] جد العرب ، هو الذى بنى الكعبة ووضع فيها الحجر الأسود ، الذى هبط عليه من السماء • وما أن أصبح محمد [صلعم] سيدا على مكة حتى طهر الكعبة من الأصنام واحتفظ بالحجر الأسود فى مكانه • والكعبة مازالت

(★) من الواضح أن المؤلف لا يعترف بالاسلام دينا ـــ المترجم •

موجودة حتى اليوم وهى أغلى الأماكن تكريما منذ القدم حتى الآن ويزورها عشرات الألوف من المسلمين كل عام للحج الى بيت الله الحرام (*) ٠

ولا نعرف سوى القليل عن محمد [صلعم] حتى أوائل العشرينات من عمره ، عندما عمل تاجرا فى قافلة تملكها خديجة [رضى الله عنها] التى كانت أرملة غنية ثم تزوجها ٠ وعندما بلغ الأربعين من عمره بدأ يدعو الى الايمان بالله الواحد الأحد ، والفرد الصمد ، وأن يساعد المسلم أخاه المسلم الفقير ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ٠ على أن معظم المبادىء التى نادى بها محمد [صلعم] تتشابه مع ما ورد فى تعاليم اليهود ، وكذلك العهد الجديد عند المسيحيين ، ومن المهم القول أنه نادى بالجهاد ضد الكفار ومعاملة أهل الكتاب بالتى هى أحسن ٠ ولا شك أن التشابه بين المبادىء الاسلامية ومعتقدات اليهود والنصارى كان عاملا مساعدا على سرعة ايمان العديد من الشعوب بالاسلام ٠

ان من معانى كلمة الاسلام أن يسلم المرء أمره الى الله [سبحانه وتعالى] وهى الفضيلة التى ظلت سمة لافتة للنظر احتفظ بها كل من آمن بمحمد [صلعم] واشتملت بمبادىء الدعوة الاسلامية على فريضة الزكاة قريبة الشبه بعشر الغلة أو المال الذى يدفع للكنيسة Fithe وصوم رمضان ، وحج البيت ، وايقام الصلاة مع استقبال الكعبة ٠ وسمحت المبادىء الاسلامية بتعدد الزوجات غير أنها حرمت الزنا وشرب الخمر ٠ وأكدت التعاليم الاسلامية على أن الاستشهاد فى سبيل الله طريق الجنة ٠

واذا كانت التعاليم الاسلامية حظيت بايمان الملايين عن طيب خاطر بعد وفاة الرسول (صلعم) بسنوات قليلة ، فانها لقيت الصد والمعارضة على يد قادة مكة ابان حياته ٠ اذ أنهم عارضوا عبادة الله الواحد الأحد ، لأنها تتعارض مع حياتهم الاقتصادية القائمة على الوفود التى تقدم القرابين للأصنام التى كانوا يصنعونها فى الكعبة ويعبدونها ٠ كما أنهم خشوا من قيام دكتاتورية فى حالة الاعتراف بنبوة الرسول (صلعم) ٠ واستاء أهل مكة لأن محمد (صلعم) سفه أباءهم لأنهم كانوا مشركين ، كما أنهم خافوا من أن يساعد من أمنوا بمحمد (صلعم) على تنفيذ ثورة اجتماعية واقتصادية تضع نهاية لمركزهم القيادى ٠

وفى صيف سنة ٦٢٢م هاجر محمد (صلعم) من مكة الى المدينة التى آوته ٠ وهى تبعد مائتى ميل الى الشمال ٠ على أن حياته تعرضت

(*) الواقع أن تعداد الحجاج الذين يزورون البيت الحرام سنويا يزيد عن المليون بكثير — المترجم ٠

لبعض المخاطر عند وفاة زوجته خديجة ، وعمه أبى طالب ، الذى كان شيخا لعشيرة هاشم والذى كان يحميه من المشركين • وفى مدى سنوات قلائل من وصوله الى المدينة استطاع أن يجعل من نفسه سيدا هناك • وبدأ يعيد الغزوات ضد القوافل الذاهبة الى مكة والخارجة منها • وبعد فشل محاولة جماعية قام بها المشركون لاحتلال المدينة سنة ٦٢٧ م ، والقضاء على الرسول (صلعم) ، ازداد عدد المؤمنين فى مكة المكرمة زيادة سريعة ، وساعده ذلك على فتح مكة سنة ٦٣٠م • واستعاد الكعبة من المشركين بحكمة وحافظ على مكانة مكة المكرمة • واتخذ المدينة (المنورة) محلا لاقامته الى أن دفن بها سنة ٦٣٢م •

ان محمدا (صلعم) لم يتخذ ترتيبات مسبقة لخلافته بل أنه لو ترك ابنا له من بعده لفرض ذلك مشكلة حقيقة • اذ كيف يخلف شخص عادى أحد الأنبياء ؟ ان حتمية حل الموقف لم يفت على كبار رجال مكة ، وعلى ذلك ففى الصباح الباكر بعد وفاته اختاروا أبا بكر الذى كان شيخا هرما ، ووالد عائشة زوجة الرسول ، كخليفة للرسول • واذا كان تصرفهم قد ضمن ولاء مكة بيد أنه لم يفعل شيئا تجاه رفض بعض القبائل فى مكة الذين لم يدينوا بالولاء سوى فى عهد محمد (صلعم) فحسب • اذ توقفت بعض القبائل عن دفع الزكاه وهى التى ساعدت على تدبير الشئون المالية للحكومة المدنية حديثة العهد • وقامت بعض القبائل باقامة الدليل على أنه طالما أن اتفاقهم كان مع محمد (صلعم) بصفة شخصية ، كما يحدث بين رؤساء القبائل ، فان هذا الاتفاق قد انتهى بموته • كما ظهر على الفور تقريبا أنبياء « كاذبون » فى أنحاء شبه الجزيرة العربية الذين نادوا بتعاليم تتمشى مع ايمانهم بتعدد الالهة مع عدم الالتزام بأى سلطة سوى سلطة كل قبيلة على حدة •

وواجه أبو بكر وكبار الصحابة تحدى قيادة مكة بكل حزم وعزم • اذ تم استدعاء كل قادر على القتال وقسموا الى أحد عشر قسما ، وكلف كل فريق باخضاع كل قسم فى شبه الجزيرة على حدة • وعرفت المعارك التى دارت بين مكة والقبائل الثائرة باسم حروب الردة ، ونعنى بذلك الخروج على تعاليم الاسلام • وطالما أن مدى القتال امتد الى أبعد مما كان متوقعا لاعادة القبائل المرتدة الى حظيرة الايمان ، فان هذا التعبير ليس مرضيا بالكامل • اذ ربما أن ثلثى شبه الجزيرة العربية ـ وهى الأراضى والقبائل التى لم تكن قد اعترفت بنبوة الرسول (صلعم) ـ قد اجبرت على الاعتراف بسيادة مكة عليها لأول مرة •

ان عملية غزو كل شبه الجزيرة العربية كان هدفا طموحا حتى

لو كان من المستحيل على أعداء مكة الاتحـاد ضدهـا ، بيد أن صعوبة المواصلات والنعرة الاستقلالية عند قبائل شبه الجزيرة العربية جعلت قيام تعاون فيما بينها ضد مكة ، أمرا مستحيلا • وكانت مهمة خالد بن الوليد الذى ربما كان أقدر القادة المسلمين الأول ، هى اخضاع الاقليم الأوسط من شبه الجزيرة العربية الذى تسكنه قبيلة بنو قحافة • اذ كان انتصاره على تلك القبيلة سنة ٦٣٣م ، وقتله لمسيلمة « الكذاب » عاملا مساعدا على اخضاع كل شبه الجزيرة العربية ونهاية حروب الردة • على أن سياسة الاستمالة التى انتهجها أبو بكر فى تعامله مع القبائل المهزومة عملت على تهدئة احساسهم بالمرارة ، وحققت السلام لأول مرة فى تلك البلاد •

ومع ذلك فان تحقيق السلام ترك شبه الجزيرة العربية كمعسكر مدجج بالسلاح ، ومن ثم واجهت أبا بكر ومكة أزمة جديدة • فالى متى يتوقع أبو بكر ومن معه أن تظل القبائل القلقة ملتزمة بتحريم الحروب بينها وهى عمل سكان البادية الوحيد الذى درجوا عليه لشن الاغارات لاستكمال ما يحتاجون اليه من قوت لأفرادهم ؟ فكان لا بد من وجود مخرج يمدهم بالاثارة الحربية والطعام ، والغنائم التى كانت تحققها لهم الاغارات • وكان الحل نوعا آخر من الاغارات ، وكان نوعا على نطاق أوسع من ذى قبل • ولم تكن تلك الاغارات ، ضد القبائل فى شبه الجزيرة العربية التى قبلت سيادة مكة عليها ، واما ضد الشعوب التى تسكن خارج شبه الجزيرة (*) •

وهذا النوع من الغزوات كان قد بدأه محمد (صلعم) عندما أرسل سنة ٦٣٠م حملة تكونت من حوالى ثلاثة آلاف مقاتل لسلب ونهب سكان مؤتة (**) التى تقع جنوب شرق البحر الميت تماما • واذا كانت القوات البيزنطية قد نجحت فى ابادة تلك الجماعة من الجند ، الا انها كانت سابقة لها ما بعدها • اذ لم يكن هناك خيار أمام أبى بكر ومكة بعد أن وجدوا آلافا من البدو المسلمين المتعطشين للقتال • وفى نهاية ٦٣٣م نظموا ثلاث غزوات للسيطرة على المناطق المحيطة بالحدود الجنوبية لسوريا • وكانت تلك المناطق معروفة للعرب ، اذ كانت بصرى وغزة مكانين مهمين لنهاية

(*) يلاحظ أن المؤرخ يخضع الفتوحات الاسلامية لنظرية التفسير المادى البحت للحركات التاريخية • ومرجع ذلك لعدم اعترافه بأن الاسلام رسالة سماوية وأن الدعوة الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية بدأت منذ عهد الرسول (صلعم) بالحكمة والموعظة الحسنة — المترجم •

(**) أحقا كانت غزوة مؤتة من أجل السلب والنهب !!! — المترجم •

طرق القوافل من الجنوب ، وموقعها فى تلك المنطقة • وعلى الرغم من أن حجم تلك القوات الغازية ـ حوالى ثلاثة آلاف رجل لكل غزوة ـ تكشف عن أهداف أكثر أهمية عن أى غزوات أخرى قام بها العرب ، فان قادة تلك الغزوات لم يفكروا فى شىء أبعد من مجرد القيام باغارات انتقامية ، كنوع من غزوات كبرى • على أن أبا بكر وكبار الصحابة عقدوا العزم على حرمان الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية من مدنها وحدودهما شمالا وشرقا • وبعد أن تحققت بشائر النجاح لتلك الأهداف أصبح من الممكن وضعها موضع التنفيذ • وتم اعداد غزوات كتب لها النجاح •

ان النجاح المثير للدهشة الذى حققته هذه الغزوات ، وما تلاها من انتصارات مذهلة على جيوش بيزنطية والفرس التى فاقتها فى التسلح والقوة العددية ، جعلت العلماء يعكفون على دراسة تغيرات هذه الظاهرة • اذ كيف استطاعت قوات أقل تجربة ومختلفة حضاريا ، وأقل عددا وعدة ، وخبرة ، أن تحقق انتصارات رائعة لهؤلاء العرب ، وبصفة خاصة ما بين ٦٣٣م ، ٦٤٢م لقد قيل عن الطبيعة الحربية لشبه الجزيرة العربية فى أعقاب حروب الردة وأيضا عن تحريم الاغارات ضد القبائل فيما بينها • وفوق هذا كانت الوصايا المتكررة التى أوصى بها محمد (صلعم) الصحابة بالجهاد ضـــد غير المؤمنين • وعلى الرغم من أن العلماء أبدوا شكوكهم فى درجة الدافع الدينى عند هؤلاء المقاتلين العرب (٤) ، فما لا ريب فيه أن تعاليم الرسول (صلعم) كانت عامل تماسك وتحقيق قدر من الوحدة مع أراضى وشعوب لم يعرفوها من قبل •

ولا ريب أن الرغبة فى الحصول على الغنيمة كانت الدافع الملح فى فكر البدو الذين انضموا الى القوات المتجهة شمالا • وما أن وجدوا المناخ المعتدل فى سوريا ، وفلسطين ، ووجدوا مستوى المعيشة المرتفع هناك حتى أنهم هجروا شبه الجزيرة العربية الشديدة الحرارة والصحراوية ، وتحركت فيهم رغبتهم فى الانتقال ومعهم أسرهم الى تلك الأراضى الجديدة للاقامة الدائمة • وأطلق خبير مشهور تخصص فى التاريخ العربى على هذه الحركة الى خارج شبه الجزيرة العربية ، « بأنها آخر هجرة سامية كبرى » (٥) وعلى الرغم من أن الحاح النمو السكانى هو الذى دفع الى حدوث الهجرات الجماعية الباكرة ، فان الموقف هنا كان الرغبة فى الحصول على الغنائم والاستمتاع بحياة أفضل •

وبفضل قوة احتمال العربى وشراسته تمكن من تحقيق الانتصارات الأولى على جيوش بيزنطة والفرس • اذ كان الفرد العربى من أشرس المقـاتلين فى عصره • فمنذ نعومة أظافره تعـلم ركوب الخيل والمبارزة

والتعاون مع أبناء عشيرته فى صد الغارات أو القيام بها • ومع ذلك فان متطلبات الطبيعة الحربية للقبيلة احتاجت الى أمور أخرى بخلاف مقدرة الفرد العربى على العدو السريع بالخيول ، والقتال بكل شجاعة • اذ أنه لم يكن يقدر على اجتياز حدود الجنود البيزنطية والفرس المدربين أولا عبقرية خالد بن الوليد القتالية وأخطاء أعدائه •

كانت أسلحة العربى قليلة ، سيفا ورمحا ، ولم يكن يحمل درعا يحميه • وكان النظام الحربى الوحيد الذى عرفه هو الهجوم السريع على العدو فى موجات متتالية للفرسان ، ومن النادر أن يكون هناك بينها فاصل زمنى • وافتقر العرب الى السلاح لدرجة أن الحملة الوحيدة على سوريا فى حياة النبى (صلعم) التى تكونت من ثلاثة آلاف مقاتل على مؤته ، المدينة التى تقع الى الشرق من الحدود الجنوبية للبحر الميت ، كانت بهدف الاستيلاء على السيوف التى كانت تصنع فى تلك المدينة (*) • وما أن قضى العرب على الجيوش البيزنطية وهزموهم حتى استخدموا أسلحتهم وطرقهم الاستراتيجية فى القتال •

خاض العربى معظم معاركه تحت ظروف طبيعية مألوفة اليه الى حد كبير • وليس من قبيل المصادفة أن الامبراطورية الضخمة التى أقامها المسلمون على مدى قرن بعد وفاة النبى (صلعم) ضمت أراضى قاحلة وشبه قاحلة ، فى أغلب الأحوال ، وهى أقاليم غالبا ما كانت فى مثل حرارة وجفاف شبه الجزيرة العربية نفسها • ويكفى أن معركتى اليرموك والقادسية وهما المعركتان المهمتان والفاصلتان عند ظهور الاسلام كسبهما العرب أبان هبوب عواصف رملية مصحوبة بسحب من الرمال فى صحراء رملية • واذ ما توفر الماء ، فالخيول العربية كانت أسرع الخيول فى العالم • واذا ما كان هناك نقص فى الماء ، وفرضت امتدادات الصحراء عائقا فى الحركة ، لجأ العربى الى حمله للاستمرار فى تقدمه • ويفضل هذا النوع من المناورات الحربية الجريئة والجديدة استطاع خالد بن الوليد عبور صحراء سوريا وفاجأ القوات البيزنطية على الجانب الآخر ، وهم الذين اعتقدوا أن الصحراء سوف تفوق قدرة خالد بن الوليد على الحركة بكل تأكيد (٦) •

واذا سلمنا بشجاعة العرب وحماستهم كمحاربين ، فان ما يمكن أن يفسر نجاحهم بجدارة يقابله ضعف أعدائهم • اذ لولا أن البيزنطيين والفرس كانوا قد أنهكوا أنفسهم فى حروب طاحنة لسنوات طويلة

(*) ليت المؤلف ذكر المصدر الذى اعتمد عليه فى هذه المعلومات !! اذ من الواضح انها ليست من الواقع فى شىء — المترجم •

والفرس كانوا قد أنهكوا أنفسهم فى حروب طاحنة لسنوات طويلة ، وبخاصة فى عهد الامبراطور هرقل (٦١٠م — ٦٤١م) ، لكان قيام الامبراطورية الاسلامية أمرا لا يخطر على بال بشر • اذ أن الموارد المالية البيزنطية كانت قد استنزفت الى الحد الذى أجبر القسطنطينية على الغاء اقامة عدد من القلاع على امتداد الحدود الصحراوية الى الجنوب ، ومنع الاعانات التى كانت تقدمها الى حلفائها العرب فى تلك المنطقة •

واجهت كل من الامبراطورية البيزنطية والفارسية شعوبا سامية كبيرة على حدودهما الذين لم يقبلوا كلية حكم هاتين الامبراطوريتين • اذ عارضوا الضرائب الباهظة التى فرضتها عليهم الحكومات « الأجنبية » التى كانت تتزايد فى حالة استمرار الحروب • كما عارضت تلك الشعوب السياسات الدينية • وحرص الفرس على نشر الديانة الزرادشتية • وهى سياسة لم تلق ترحيبا من الشعوب السامية فى العراق • وعلى الرغم من أن الشعوب السامية فى سوريا ، ومصر كانت مسيحية فى أغلب الأحوال ، فانهم عارضوا ما أمرهم به الامبراطور المسيحى « الأرثوذكى » فى القسطنطينية • ونص القانون الامبراطورى على ضرورة أن يعترف المسيحيون المونوفيزيتيون (*) بمذهب الطبيعيين ، والتخلى عن مذهب الطبيعة الواحدة الذى آمنوا به •

ولتلك الأسباب رفضت الشعوب فى سوريا ، وفلسطين أن تقدم المساعدة للجيوش البيزنطية ضد الغزاه العرب بصفة عامة • وفيما يتعلق بالفاتحين العرب الأول ، كان من الطبيعى تماما أن يدافع سكان سوريا وفلسطين عن أنفسهم طالما أنهم يقاتلون دفاعا عن أرواحهم وممتلكاتهم • وعندما وجدوا أن القوى البيزنطية عاجزة عن الدفاع عنهم ، وعرفوا أن الفاتحين وعدوهم بالتسامح الدينى والضرائب المنخفضة ، رحبوا بهم ، وفتحوا لهم أبواب مدنهم • وهناك قصة من المحتمل أنها حقيقية ، وهى أن العرب الذين أستولوا على حمص وقرروا الجلاء عنها ، عند اقتراب جيش بيزنطى بدلا من الدفاع عنها توسل سكانها المسيحيون للعرب قائلين ، « اننا نرغب حكمكم وعدلكم أكثر من حالة الاضطهاد والطغيان التى كنا نعيشهما من قبل » (٧) • وعندما غادروا العرب مدينة حمص ، أغلق المسيحيون أبواب المدينة فى وجه القوات البيزنطية ، ولم يسمحوا لهم بالدخول • ورحب اليهود بالعرب نتيجة للتفرقة التى تعرضوا لها تحت الحكم البيزنطى ، وكذلك فعل السامريون • وقدر العرب أهمية

(*) المونوفيزيتيون هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة والقائل بأن للمسيح عليه السلام طبيعة واحدة وهى الطبيعة الالهية وأن الطبيعة البشرية ذابت فى الطبيعة الالهية وان الله الكلمة صار جسدا — المترجم •

المساعدة التى قدمها لهم السامريون أبان الصراع ضد الجيش البيزنطى ، حتى أنهم أعفوا السامريين من الجزية التى فرضوها على غير المسلمين من الشعوب التى خضعت لهم (٨) ٠

ومع ذلك كانت احتمالات بقاء الحكم البيزنطى فى سوريا لا تبعث على التشاؤم الكلى ٠ اذ أن الجنود الذين اعتمدت عليهم بيزنطيـة فى التصدى للاغارات الشرسة التى شنتها القبائل العربية ، كانوا من أحسن جنود العالم تسليحا ٠ وتحت رحمة الظروف العادية ووفقا لوجود قيادة حكيمة ، كان فى استطاعتهم التصدى لغزاة الصحراء تماما ، مهما كانت حدة عدم الرضى التى ابدتها الغالبية العظمى من المونوفيزيتين الذين كانوا هناك ٠ اذ أن القوة الرئيسية للجيش البيزنطى كانت فى أقسامها من الفرسان الثقلى العدة ٠ وكان المحارب الفرد ، معروفا باسم كاتا فراكت Cataphracts (وهى كلمة يونانية ، مكسو بالدرع بشكل كامل) يحمل رومحا ، وسيفا عريض الحد ، وقوسا ، وجعبة سهام ، وخنجرا ٠ ويضع على رأسه قلنسوة من الفولاذ ، ويرتدى قميصا من الفولاذ يمتد من رقبته الى فخذيه ، وقفازا مدرعا ، وحذاء من الفولاز ٠ كما أن الفرس الذى كان يمتطيه كان أثقل بكثير من الجواد العربى السريع ، كما كانت خيول القادة والمحاربين فى الصفوف الأمامية مزودة بالعصابات المعدنية والدروع المعدنية الموضوعة على صدور تلك الخيول ٠

وعلى حين أن التنسيق الفعال بين الخيالة والرجالة ظل قائما حتى عصر الحروب الصليبية فان بيزنطة كانت بالفعل تستعمل الجند المشاه المثقلين بالأسلحة ، وان كانوا لا يستخدمون الا للدفاع عن قلاع الحدود ، وتنفيذ العمليات الحربية الصغيرة فى المناطق الجبلية التى لا يمكن استخدام الخيالة فيها ٠ واعتاد الجندى البيزنطى على وضع خوذة فلاذية على رأسـه ، وارتدى قميصا من الفولاذ ، وأحيانا قفازا مدرعا ، ودرعا للساقين ٠ وفيما يتعلق بالأسلحة فانه كان يحمل رمحا ، وسيفا ، وبلطه ، كان لها طرف حاد على أحد جنبيها ، أما الجانب الآخر فكان كالعنقود ٠ وكان يحمى نفسه بترس مستدير كبير ٠ وبسبب افتقار الجندى البيزنطى الى المقدرة على سرعة الحركة ، ووجود مشكلة الماء ، فانه كان من النادر ان يخوض وهو المثقل بالأسلحة معارك فى الصحراء ٠ ومن أجل استكمال النقص فى تعداد الفرسان المثقلين بالدرع Gravelines وللحصول على مزيد من المقاتلين لتحقيق توازن مع هجمات الحدود التى مارسها العرب بحركات سريعة ، عقدت القسطنطينية اتفاقا منتظما مع القبائل على الحدود الجنوبية مع الشعوب الأخرى مثل سكان ارمينيا لأنهم استخدموا فرسانا خفيفى العدة ، واستعملوا معدات وأساليب حربية مشـابهة للفرسان

العرب • ولولا تخلى هؤلاء الجنود المرتزقة عن ولائهم فى موقعة اليرموك ، لكان من المحتمل أن تنتهى هذه المعركة الفاصلة نهاية مختلفة •

وفى أواخر سنة ٦٣٣م ، عند انتهاء حروب الردة ، دعا أبو بكر (رضى الله عنه) كل القبائل العربية ، بما فيها القبائل التى فى جنوب اليمن الى ارسال المتطوعين للجهاد ضد غير المؤمنين فى سوريا • وطالما أن الهدف كان فتح تلك البلاد ، وليس مجرد مهاجمة الحدود ، فان الاغارات شابهت ما اعتاد عليها العرب باستثناء انها كانت على نطاق واسع وكانت أكثر تنظيما • اذ تم اعداد حوالى ثلاث وحدات عسكرية بلغ تعداد كل واحدة منها حوالى ثلاثة آلاف مقاتل من بين القبائل الأشد باسا وحبا للقتال • وتزايد تعداد تلك الوحدات عند تحركها صوب سوريا ، وعندما عبرت حدود الأراضى المسيحية كان قد وصل تعداد كل منها الى حوالى سبعة آلاف مقاتل • ويقول المؤرخون المسلمون أن أبا بكر (رضى الله عنه) قد أوصى بأ لايقتلوا شيخا ، أو امرأة ، أو طفلا أو يقطعوا شجرة مثمرة ، أو يقتلوا أى حيوان • ولا شك أن تلك الأوامر تتمشى مع طبيعة أبى بكر الخيرة ، على الرغم من أن تعليماته المتعلقة بالحيوان والحقول المثمرة ربما كانت ترجع الى احتمال انه كان يعنى المحافظة عليها لاستثمارها من قبل الغزاة •

وتكونت الحملة الأولى التى غادرت شبه الجزيرة العربية الى سوريا فى أوائل سنة ٦٣٤م من قبائل الحجاز ، وغرب شبه الجزيرة العربية ، التى اعتمدت عليها مكة اعتمادا كليا فى حروب الردة • اذ كان ذلك مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال • وعلى غير ما كانوا يتوقعون ، اتضح لهم أن حملتهم كانت مثمرة من الناحية المادية • وقاد هذه الحملة عمرو بن العاص القائد الشهير الذى فتح مصر • وتحركت الحملة الثانية بقيادة يزيد بن أبى سفيان ، شقيق معاوية الذى قدر له ان يكون قائدا مشهورا ومؤسسا للحكم الأموى • وتحركت جماعة ثالثة فى أعقاب يزيد تحت قيادة شرحبيل بن حسنة ، فى الوقت الذى تحركت فيه جماعة صوب العراق تحت قيادة خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » ، الذى أثبت عن جدارة انه أكثر من هؤلاء القادة توفيقا • وتلقى أبو بكر (رضى الله عنه) طلبا للنجدة من المثنى بن الحارثة ، شيخ قبيلة بكر فى شمال شبه الجزيرة العربية • وكان هذا الرجل مسيحيا • وكانت الحملات التى قادها ضد الفرس قد واجهت مقاومة عنيفة ، وطلب مساعدة أبى بكر العاجلة ، فى الوقت الذى تحركت فيه حملة خالد بن الوليد •

ويبدو أن خالدا قد أعد قواته للمسير قرب نهاية سنة ٦٣٣ م ، قبل أن تتحرك أى قوة أخرى • وغادر مكة فى الربيع التالى • وابان

تحركه زاد تعداد قواته التي ربما وصلت الى عشر آلاف رجل عندما دخل العراق • واكتفى في بداية الأمر بجمع الغنائم من القرى والتجمعات الصغيرة حتى وصل الى مدينة الانبار على الضفة الشمالية لنهر الفرات ، حيث أجبرها على الاستسلام • وفي العراق حقق خالد أول مكاسب للحدود العربية خارج شبه الجزيرة العربية • وباعتباره محاربا مؤيدا بالنصر ، كان في استطاعته التوغل في هذه البلاد الغنية لولا الأوامر التي وصلته من أبي بكر بوقف عملياته العسكرية هناك والاسراع الى سوريا حيث كان اللقاء المرتقب مع الجيش البيزنطي على وشك الوقوع •

وحتى تلك اللحظة كانت القوات العربية تقاتل في سوريا واجتاحت كل شيء في طريقها • على أن أحد العوامل التي ساعدتهم على التحرك في هذا الاقليم بحرية تامة ، كان نجاحهم في الاستعانة بالعرب الذين قابلوهم في هذه المنطقة ، والذين عملوا معهم عن طيب خاطر كمرشدين ، وهؤلاء المرشدون اما أنهم سبق أن تم طردهم من حدود الأراضي المسيحية ، أو أنهم كانوا ينتمون الى القبائل العربية التي لم تعد تتلقى الاعانة السنوية من القسطنطينية • وعندما تحرك عمرو بن العاص تجاه فلسطين استطاع أن يهزم قوة مسلحة تحت قيادة سيرجيوس Sergius حاكم الاقليم • وارتد الرومان على اعقابهم بعد هذه الهزيمة ، واعادوا تنظيم صفوفهم ، غير أنهم لحقتهم الهزيمة في فبراير سنة ٦٣٤م في حين تم ذبح قائدهم سيرجيوس • ويقال ان سيرجيوس لم يذبح ، وانما أخذ أسيرا • وكان عقابه لأنه نصح الامبراطور هرقل بعدم دفع أى اعانات لعرب الاقليم ، أن تم سلخ جمل ، وتم وضع سرجيوس داخل جلد ذالك الجمل وخياطة الجلد من حوله باحكام ، ثم ترك في العراء ليلقى حتفه خنقا وذلك عندما جف جلد الجمل بفعل حرارة الشمس (٩) •

ان موت سيرجيوس والقضاء على قواته ترك فلسطين مباحة للعرب • ونظرا لعدم وجود المنجنيق لدى العرب ، فانهم لم يحاولوا مهاجمة أى من المدن الكبرى في ذلك الحين • غير ان أسلوب القتال تغير بشكل مفاجيء • اذ أدرك هرقل في ذلك الحين أن اعداد الغزاة العرب وكذلك تدفق قواتهم على موجات متتالية جعل من الواضح انه ليس في مقدرته طردهم على نمط التعامل مع الغزوات الصغيرة التي كانت تجتاح سوريا وفلسطين من حين الى آخر • وأعد هرقل جيشا آخر على وجه السرعة ، على الرغم من أن ذلك الجيش لم يكن على مستوى متطلبات الموقف • كما أن معرفته من طبيعة عرب الصحراء الذين يفتقرون الى النظام جعلته يسيء تقدير خطورة التهديد • ولسوء صحته عين أخاه ثيودور Theodore قائدا على الجيش الجديد •

أما فى مكة ، فان أنباء ما حققه العرب من نجاح جعلت أبا بكر يتصرف بأسلوب واقعى • فبالاضافة الى ارساله قوات تعزيز الى سوريا، أصدر أمرا الى خالد بن الوليد بالتحرك على وجه السرعة صوب ذلك الاقليم ، لمساندة القوات العربية التى تقاتل هناك • وما زال عدد القوات التى صحبت خالد فى عبور الصحراء السورية موضع شك • ويبدو أن ذكر عدد حوالى ألف بتحفظ أمرا مقبولا ، طالما أن هذا العدد المحدد الذى قام بعمل بطولى تد فى اختراق صحراء لا ماء فيها يحمل صفة الشىء الذى لا يمكن تصديقه • اذ أن هذه الرحلة الشاقة والمحفوفة بالمخاطر والتى قطعها فى ثمانية عشر يوما ، لا بد وأنها تمت بالاستعانة بالجمال • وظلت الخيول التى اصطحبوها معهم على قيد الحياة بعد الاستعانة بالمياه التى أخذوها من أكراش الجمال المسنة التى ذبحوها فى رحلتهم •

وبفضل تلك الخطة العسكرية البارعة تجنب خالد بن الوليد قلاع الحدود التى كان من الممكن أن تعطل تقدمه بطريقة أو بأخرى • وبدون أى عقبات لحق خالد بزملائه العرب قرب دمشق ، ومن المحتمل أن ذلك كان بعد منتصف يونية ٦٣٤م • وبعد ذلك بعدة أسابيع ، فى أواخر يوليو أو أوائل أغسطس ، حارب خالد وحقق نصرا مؤزرا فى موقعة اجنادين ، التى تبعد حوالى عشرين ميلا غرب بيت المقدس ، على جيش بيزنطى تحت قيادة ثيودور تريثوريوس Theodore Trithurius أمين خزانة الامبراطورية • ولو لم يكن جيش خالد قد زاد عدده على خمسة عشر ألف مقاتل ، ونجح فى القضاء على عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة ثيودور ، فان هذه المعركة كان فى الامكان أن ترقى الى مستوى أعظم المعارك الفاصلة فى عهدها ، لولا أن تلتها معركة على نهر اليرموك بعد ذلك بقليل • ومع ذلك ظلت معركة لهـــا أهميتها الكبرى ، برغم استطاعة ثيودور انقاذ معظم جيشه •

ومات أبو بكر بعد عدة أيام من علمه بالنصر فى اجنادين وخلفه عمر بن الخطاب ، الذى تم اختياره خليفة • ولم يكن أمامه من خيار • فى عهده استمر عشر سنوات (٦٣٦ ــ ٦٤٦) ، تم ارســاء أركان الامبراطورية الاســـلامية التى كانت تتسع بسرعة • ان ايمان عمر الشديد ، وزهده فى الدنيا ، وحبه للعدل ، وعطفه على الجميع أكسبه احترام كل العرب ، وساعد على اتحاد الشعب الاسلامى ابان هذه الفترة الخطيرة التى صاحبت التوسع السريع • ومن بين قدراته الادارية ، كانت سياسته القائمة على استمالة « المرتدين » الذين طلب منهم المشاركة فى الجهاد ضد العدو « كمواطنين لهم كل الحقوق » • وتجسد تواضعه ،

وتمسكه الشديد بتعاليم الرسول (صلعم) فى حمله لقب « أمير المؤمنين » الذى اختاره لنفسه ، وتلقب به خلفاؤه حتى نهاية الخلافة سنة ١٢٥٨م .

ولم يتدخل عمر تدخلا مباشرا فى حملة سوريا التى كانت تسير في صالح المسلمين ، اذ قام خالد بن الوليد ، بعد انتصاره الرائع فى اجنادين ، بالتحرك صوب بصرى ، واستولى عليها دون صعوبة . ويقال أن حاكم المدينة خانها بكشفه للعرب عن وجود ممر سرى تحت الأرض يربط المدينة من تحت أسوارهـا . وحيث أن حاكم المدينة أسلم بعد سقوطها فان ذلك يعطى اعتقادا بصحة قصة ذلك النفق .

وأما عن الجيش البيزنطى ، الذى أعاد تنظيم صفوفه ، خلف حدود مدينة بيسان بعد هزيمته فى اجنادين ، فقد وجد نفسه مضطرا الى عبور نهر الأردن نتيجة لهجوم خالد بن الوليد . غير أن القائد المسلم الذى كان فى مواقع المتفوق التقى مع الجيش البيزنطى بعد ذلك بوقت قصير ، ربما فى يناير ٦٣٦م ، وهزم الجيش البيزنطى للمرة الثانية . وأدت هذه الهزيمة الى ازالة العقبة الأخيرة أمام حصار دمشق من قبل العرب . وطالما أن خالدا لم يكن لديه آلات الحصار ، كما انه لم يكن يتوقع التزود بها من شبه الجزيرة العربية ، لذلك لم يكن أمامه من سبيل سوى منع المؤن عن المدينة واجبارها على التسليم . ولم تستطع دمشق سوى مناشدة هرقل ، الذى كان فى حمص ، من أجل انقاذها . وبالفعل أرسل هرقل قوة من الفرسان ، غير أن العرب ردوهم على أعقابهم عندما حاولوا الوصول الى حدود دمشق ، ثم نجح العرب فى ردهم الى حدود حمص . وعلى مقربة من حمص تعرض العرب لهجوم شديد دفعهم للارتداد بسرعة تجاه دمشق .

كان هذا النصر الهزيل أمام حمص هو كل حظ هرقل طوال عهده الكئيب . ولما أصبح واضحا أن دمشق لم تعد تتوقع أى مساعدة حقيقية ، قامت تلك المدينة بفتح باب المفاوضات مع العرب ، واستلمت بشروط معينة فى أوائل سبتمبر . ووافقت المدينة على دفع اتاوة سنوية قدرها مائة ألف دينار ، فى الوقت الذى تعهد فيه العرب بحمايتها ضد أى شكل من أشكال النهب أو المصادرة . ولا ريب أن تلك الشروط السخية اتضح أنها كانت عاملا فى استيلاء العرب على الغالبية العظمى من المدن فى سوريا وفلسطين دون تحمل تكاليف الحصار الباهظة .

ووفقا لما أورده المؤرخ المسلم البلاذرى ، فان شروط الاستسلام كانت كما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا هو عهد خالد بن الوليد الى سكان مدينة دمشق اذا ما دخلهـا : انه يعاهدهم بتأمين أرواحهم

وممتلكاتهم وكنائسهم . ان سور المدينة لن يصاب بأذى . ولن يقيم أى مسلم فى منازلهم . كما أننا نمنحهم عهد الله ، وأمان رسوله ، والخلفاء والمؤمنين . ولن يصيبهم سوى كل خير طالما دفعوا الجزية » (١٠) .

وفى مواجهة ما حققه العرب من تقدم مستمر غير هرقل محل اقامته من حمص الى انطاكية . وعلى الرغم من انتصارات العدو وتدهور صحته فانه لم يفقد الأمل . اذ بدأ فى تكوين جيش جديد ، عقد عليه الأمل فى التصدى بنجاح لخالد بن الوليد ، وكون جيشه من جميع المواطنين الذكور الأصحاء الأجسام الصالحين للخدمة العسكرية ، ومن المتطوعين الذين استطاع الحصول عليهم مهما كان مكانهم ، كما ناشد القبائل المسيحية الصديقة ، وطلب سكان أرمينيا التعاون معه كجند مرتزقة . وانضم الى جيش هرقل حوالى عشرة آلاف تحت قيادة قائدهم فانيز Vanees ومثل هذا العدد تقريبا من عرب الغساسنة ، وعرضت قبيلة كلب خدماتها تحت قيادة جبلة بن الحيام ، شيخ قبيلة الغساسنة . ونظرا لان هذه القوات المرتزقة تكونت من الفرسان خفيفى السلاح على وجه التعميم ، فانهم اختلفوا قليلا فى المعدات الحربية وسرعة الحركة عن الغازين العرب .

ووفقا لما ذكره الطبرى ، فان العدد الاجمالى للجيش البيزنطى الذى قاده ثيودور تريثوريوس Theodore Thrithurius أمين خزانة الامبراطورية، من انطاكية فى ربيع ٦٣٦ م بلغ تعداده حوالى ربع مليون مقاتل ومن الواضح أنه رقم مبالغ فيه . ويميل المؤرخون المحدثون الى القول بأن عدد هذا الجيش البيزنطى تراوح ما بين ثلاثين ألفا وخمسين ألفا . وحجتهم فى ذلك أن أى قوى مقاتلة تزيد عن هذا الرقم سوف يصبح من العسير قيادتها فى مثل هذا المناخ الحار ، فى ذلك الاقليم مع نقص الموارد الغذائية والماء .

وبالمثل وجد العلماء صعوبة فى تقدير تعداد جيش خالد بن الوليد، فالمؤرخون العرب الذين كان يحلو لهم المبالغة فى ذكر تعداد الجيش البيزنطى ، والتقليل من عدد الجيش العربى ذكروا أن الجيش العربى تعداده ما بين خمسة وعشرين ألفا وخمسة وثلاثين ألفا ، وهو الرقم الذى قبله العلماء بارتياح . وهذه الأرقام الجديدة تعطى للجيش البيزنطى ميزة ضئيلة فى التفوق العددى . بيد أن هناك شيئا فاق ذلك بكثير عند العرب أهمية وهو وجود قيادة عربية موحدة تحت رياسة خالد بن الوليد ، أقدر القادة فى عهده ، هذا فى حين على الجانب البيزنطى ساد الاضطراب ، ان لم يكن الشك بين قادة الجيش . كما ان الروح المعنوية للجيش البيزنطى

كانت منخفضة ، فى حين عند العرب كانت عالية ، وتميل الى درجة الحماس الشديد ، بفضل التعزيزات التى كانت ترد من شبه الجزيرة العربية ٠

وقضى الجيشان الشهور الأخيرة من فصل الربيع وأوائل الصيف، كل منهما فى حذر شديد من الآخر ، وكل منهما كان خائفا من أن يكون فى موقع فى غير صالحه ، وكل منهما يأمل أن يضع الآخر فى موضع تكون به عوائق يستغلها الطرف الآخر ٠ وبالنسبة للقائدين ، كان خالد بن الوليد أبعد نظرا بخصوص ما يجب عليه أن يفعله ، وما يجب أن يتجنبه ــ اذ كان من الواجب عليه الا يوزع قواته فى جهود للدفاع عن المدن الكبرى التى سقطت فى يديه ٠ لذلك بالرغم من اعتراضات السكان المسيحيين فى دمشق وحمص عند جلائه عنهما ، فانه فعل ذلك ٠ فضلا عن ذلك بذل كل ما فى وسعه لفصل الجيش البيزنطى عن الموارد الممكنة للمساعدة من الشمال أو الغرب ، فى الوقت الذى نجح فيه استدراج هذا الجيش للقائه تجاه الصحراء جنوبا ٠ وهناك ظلت الصحراء طريقا مفتوحا للعرب حيث ظلت ترد عليهم التعزيزات الجديدة ، وحيث يستطيع الهروب أيضا اذا ما قدر له فقدان المعركة مع الجيش البيزنطى ٠ ولا بد ان خالدا وضع فى اعتباره أنه كلما اقترب من الصحراء كلما اقترب من تشابه ظروف الجفاف ، وطبيعة الأرض الرملية مع شبه الجزيرة العربية حيث يستطيع رجاله العمل فى أحسن أحوالهم ٠

ولا بد ان خالد بن الوليد كان على بينة من انخفاض الروح المعنوية السائدة فى الجيش البيزنطى والمتاعب التى تعانى منها قائد الجيش مع أهالى أرمينيا ، والغساسنة المرتزقة ٠ وحاول ثيودور اقناع كل من فانيز وجبله ، على أن يتخليا عن القول بانها معركة خاسرة ٠ وان بذله مثل هذا الجهد ، ونجاحه الى حد ما فى محاولاته ، يترك المرء فى حالة من العجب اذا ما كان الموقف بالنسبة للجيش البيزنطى قد تدهور ابان النصف الاول من سنة ٦٣٦م ٠ (١١) وبعد مناوشة بين خالد بن الوليد وجماعته من القوات البيزنطية فى الثالث والعشرين من يوليو ٦٣٦ ، حيث اضطرت هذه القوة البيزنطية الصغيرة الى التراجع ، وسارع الارمن بالغاء اتفاقهم مع هرقل وانسحبوا من المعركة ٠

ومع ذلك فان موقف الجيش البيزنطى فى ذلك الحين مازال غير ميئوس منه ٠ ففى خلال ثلاثة أيام من القتال المرير ، تمكن ثيودور من صد كل محاولات خالد بن الوليد ، وقطع كل اتصالاته بدمشق ٠ وفى منتصف شهر أغسطس حرك خالد جيشه وقيادته جنوبا فى منطقة قرب نهر اليرموك ، أحد روافد نهر الاردن ، وينبع فى حوران ، ويصب الى

الغرب من نهر الاردن ، حيث ينتهى جنوب بحيرة طبرية • واعتمد خالد على الوديان الصغيرة الضيقة والشديدة الانحدار التى تتخلل المنطقة فى حماية جيشه من هجوم الجيش البيزنطى ، الذى كان متمركزا شمال النهر •

وفى مساء التاسع عشر من أغسطس بدأت رياح شديدة الحرارة فى الهبوط من الجنوب ، وفى الوقت الذى كانت تلفح فيه هذه الرياح ظهور العرب ، فانها أثارت سحبا من الأتربة فى وجوه القوات البيزنطية بشكل مباشر تجاه الشمال • وفى العشرين من أغسطس ، عندما بدأ الجيش البيزنطى يغير من مواقعه ليتجنب القتال تحت تلك الظروف القاسية ، انسحب الحلفاء الغساسنة المسيحيون ، وولوا الادبار (١٢) • وفى تلك الفترة أصدر خالد أوامره ببدء القتال • وتلى ذلك معركة شرسة دارت رحاها فى يوم شديد الحرارة بشكل لا يطاق ، وفى حالة أقرب ما تكون من العاصفة الرملية الافحة • ويقال أن زوجات بعض قادة العرب نزعن أوتاد الخيام واستعملنها كهروات لدفع أى عربى تجاه المعركة اذا ما حاول الانسحاب • وبدأت المقاومة المسيحية تتعثر تدريجيا • وفى فترة قصيرة من الوقت بدأت عملية القتل الجماعى • وكانت بعض القوات البيزنطية قد لاذت بالفرار تجاه الروافد العميقة لليرموك • بيد أنهـا سقطت فى الكمائن وتم ذبحها • وحاول البعض الآخر الفرار فى عمق الرمال ، بيد أن هذه العملية لم تكلل بالنجاح ، وبخاصة بالنسبة للفرسان ثقيلى العدة Cataphracts اذ قام العرب بتقطيعهم اربا دون أدنى رحمة • وانتهت المعركة بالقضاء التام على الجيش البيزنطى ، وكان القائد ثيودور من بين القتلى •

وبعد أن انتهت المعركة الشرسة ، ساد سوريا هدوء عجيب • ويقال أن خالدا قال « ان سوريا ترقد هادئة كالجمل تماما بتمام » • ولم يبذل هرقل محاولة أخرى لانقاذ الموقف ، وانما انسحب الى جبال طوروس تجاه الشمال حيث لم يجرؤ العرب على الاقتراب منها • ثم عاد الى القسطنطينية، وغادر تلك الأراضى قائلا : « السلام لك ياسوريا ، كم أنت من بلد جميل ستكونين من نصيب العدو » •

ان موقعة اليرموك حددت مصير سوريا وفلسطين ومن بعد ذلك مصر بصفة نهائية • اذ فتحت حمص ودمشق أبوابها للمنتصر ، وكذلك فعلت معظم مدن الاقليم • فى حين ظل بيت المقدس صامدا الى أن سقط فى نهاية سنة ٦٣٧م • ونظرا لعدم امتلاك العرب لآلات الحصار لذلك استطاع البطريرك سوفرونيوس Sophonius الانتظار ، لا على أمل الحصول

على مساعدة هرقل وانما لمحاولة الحصول على شروط أفضل من الفاتحين. ويقال أن البطريرك أصر على التفاوض مع عمر بن الخطاب نفسه ، لأنه كان قد سمع عن حبه للخير ، وأمانته واستقامته • وكما حدث ، كان عمر فى فلسطين • وكان قد جاء لكى يتولى بنفسه الاشراف على تنظيم الأراضى التى فتحت حديثا • وبالفعل التقى الرجلان ولم يكن لعمر سوى قميص واحد • وعباءة واحدة • ولم تكن بتلك الملابس العديد من الرقع فحسب ، وانما كانت بالية جدا • وفى بداية الأمر رفض عمر الملابس التى أهداها اليه سوفرونيوس ، ثم بعد ذلك وافق ، على الرغم أنه أعاد تلك الملابس التى أهداها اليه • ومن المحتمل أن تكون هذه الرواية صحيحة ، مثلما قاله سوفرونيوس على مسمع من الملازمين له ، عندما شاهد عمر الجزء الداخلى من كنيسة القيامة • من كلمات دانيال النبى : « وبالحقيقة هذا هو الشيء البغيض عن الخراب الذى تحدث عنه النبى هو الموجود فى المكان المقدس » •

ومهما كانت طبيعة مطالب سوفرونيوس ، فمن الراجح أن عمر وصل الى بيت المقدس وفق ما اتفق عليه • وكان عمر مسلما ورعا ، وزار البقعة المقدسة التى بها معبد سليمان ، والتى عرج منها محمد (صلعم) الى السماء • ومع ذلك فان المسجد المنسوب الى عمر بن الخطاب ، لا ينسب اقامته لهذا الخليفة • اذ ظل يحمل اسم قبة الصخرة ، وهى الصخرة التى عرج منها الرسول (صلعم) الى السماء • وظلت أورشليم تحمل اسم بيت المقدس عند المسلمين •

ان معركة اليرموك دارت رحاها فى صيف ٦٣٦م ، وبعد ذلك بعام سدد العرب ضربة قاضية للامبراطورية الفارسية المنهارة ، عندما حققوا نصرا مؤزرا عليهم فى القادسية قرب طيسفون Ctisphon • كل ذلك بفضل الجمال التى ساعدت خالد بن الوليد على عبور الصحراء السورية ، وتحقيق انتصاراته المتتالية على الجيش البيزنطى عند اليرموك • وفى القادسية صوب العرب سهامهم الى أعين وخراطيم الفيلة التى أحضرها الفرس معهم ، وكما حدث فى معركة اليرموك ، ساعدت عاصفة رملية العرب على القضاء على الجيش الساسانى • وفى مدى سنوات قلائل سقطت بخارى وسمرقند ، ومدن تركستان فى أيدى الفاتحين العرب • الذين تقدموا عبر جبال الاندوس Indus حتى وصلوا الى البنجاب • وفى ذلك الحين اجتاح العرب مصر ، وفتحوا جزيرتى كريت ورودس ، وفى سنة ٦٩٨م ، استولوا على قرطاجة ودمروها ، وفى سنة ٧١١م عبر العرب ، أو بالأصح المسلمون المغاربة مضيق جبل طارق ثم عبروا جبال البرانس سنة ٧١٨م الى بلاد الغال • ان الذى جعل من الممكن فتح هذه

المساحات الشاسعة ، والذى فتح الطريق للانتصارات المذهلة التى تحققت فى الفترة ما بين انتهاء حروب الردة والذكرى المئوية الاولى لوفاة الرسول (صلعم) ، فى سنة ٧٤٢ م كان النصر الملطخ بالدماء الذى أحرزه خالد ابن الوليد ابان هبوب عاصـــفة رملية فى موقعة اليرموك فى أغسطس سنة ٦٣٦م (١٣) ٠

٤ ـ معركة هيستنجز

يقول علماء الجيولوجيا أن بريطانيا أصبحت جزيرة منذ حوالى خمسة وعشرين ألف سنة قرب نهاية العصر الجليدى ، عندما كانت قاعات المحيطات فى أعلى مستوى لها · وكان بحر الشمال مجرد مستنقع يصب فيه نهر الراين ، كما كان نهر التيمز رافدا لنهر الراين ، وهو الذى أصبح نهرا قائما بذاته ويصب فى البحر مباشرة · وتزا من « استغلال » نهر التيمز ، أكبر أنها بريطانيا مع انفصال أرض بريطانيا عن القارة الأوربية عندما تحركت المياه وملأت المنطقة المنخفضة والمعروفة حاليا باسم بحر المانش ·

لم يتأثر تاريخ انجلترا سواء من ناحية تطور علم التاريخ الطبيعى أو الانسانى مثلما تأثر بكونها جزيرة · وعلى ذلك فعلى المرء أن يضع فى اعتباره أن تلك الظاهرة هى الحدث الحاسم فى تاريخ انجلترا · واذا ما استخدم المرء تعبير « تاريخ » بمعنى الحوادث المدونة فى السجلات على نحو دقيق ، فلن يكون هناك حدث فاصل فى تاريخ انجلترا أكثر من معركة هيستنجز التى دارت رحاها فى الطرف الجنوبى للجزيرة فى الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٠٦٦ م· ان معركة هيستنجز ، « احدى المعارك التى حددت مصير الأمم فى فترات فاصلة ونادرة » (١) ·

وأهم نتيجة تمخضت عن انتصار وليم ، دوق نورماندى ، وأتباعه من النورمان على انجلترا فى موقعة هيستنجز ، كانت الارتباط السياسى بين بريطانيا والقارة الأوربية · وتقطعت أوصال الروابط المتينة التى كانت تربط بالامبراطورية الاسكندنافية ، اذ كانت بريطانيا منذ سنة ١٠١٦ م حتى سنة ١٠٣٥ م جزءا من الامبراطورية الاسكندنافية برئاسة كانوت Canute ، ملك انجلترا والدانمرك · وبدلا من ذلك أصبح دوق نورماندى ملكا وظل لعدة سنوات يحمل لقب دوق وملك · بل حتى بعد

طرد الانجليز من فرنسا وجد الانجليز صعوبة فى تسيان أن ملكهم حكم نورماندى فى وقت ما ، حتى أن هنرى الثامن الخاضع لزوجته ، وجد من الوقت ما سمح له باعداد حملتين فى محاولة لاسترداد الأراضى عبر بحر المانش .

ومنذ سنة ١٠٦٦ م وحتى نهـاية العصـور الوسطى كان النفوذ الفرنسى قويا فى انجلترا . كما أن اللغة التى نقلها النورمان ظلت لغه الكلام للطبقة الارستقراطية والانجليز المثقفين حتى القرن الخامس عشر . أما اللغة الانجلو سكسونية التى لم تكن تستعمل سوى بين الطبقات الدنيا الأمية ، ظلت مثار نقية حتى استردت القبول فى أواخر القرن الرابع عشر بظهور لانجلاند Langland وشوسر Chaucer . ولولا معركة هيستنجز وتدخل النفوذ الفرنسى ، لكانت لغـة الانجليز والشعب فى الولايات المتحدة مشابهة تماما للغة فى هولندا وشمال ألمانيا .

أدى انتصـار النورمان فى هيستنجز الى أن حلت الطبقة الحاكمة الفرنسية محل الطبقة الارستقراطية السكسونية على الفور تقريبا كما أدى الى استبدال الهيئة الكهنوتية برؤساء أساقفة ورؤساء أديرة فرنسيين بطريقة بطيئة الى حد ما ، لكنه كان استبدالا كاملا . على أن قدوم النورمان عجل بادخال النظم والمعاملات الاقطاعية بسرعة كبيرة . وتقريبا فى اليوم الذى تم فيه تتويج وليم ملكا لانجلترا صـدرت التوجيهات الملكية الى الكنائس الكبرى بتنفيذ الأوامر الخاصة بوضع التاج مع صورة للفرسان الأتباع ، وهو الشىء الذى لم يفعلوه من قبل . وبعد سنة ١٠٦٦ م ، استطاع الفرسان ، الذين كانوا أمرا جديدا على انجلترا أن يسيطروا على ميدان المعركة حتى نهاية العصور الوسطى .

وتعرضت التجارة والصـناعة الى قوة دفع مثيرة للانتبـاه نتيجة الارتبـاط الشديد بالقـارة الأوربية . (اذ حضر والد توماس بيكيت Thomas Becket من نورماندى ليصبح تاجر لندن) . ولا ريب أنه ما كان لانجلترا أن تفاخر بكفاية نظامها الحكومى فى أوربا فى أواخر القرن الثانى عشر لولا انتصار وليم فى هيستنجز . وبالطبع فانه لولا انتصار وليم ، ما كان صراع يبعث على الرثاء مثل حرب المائة عام .

قليلة هى المعارك التى جذبت انتباه العديد من العلماء أكثر من معركة هيستنجز . فالمفهوم أن تلك المعركة نالت صفة الحسم ، على الرغم من وجود شىء ما فوق نطاق أهمية المعركة ، وهو الذى يحدد قدر الاهتمام الذى يبديه المؤرخون . ولا بد من وجود دليل معاصر كاف فى متناول العلماء ليستندوا اليه فى كتاباتهم . وبالنسبة لمعركة هيستنجز فما زال

هناك قدر وافر من تلك الأدلة ، ويضاف اليها قدر ضئيل من « المشاكل » التى استمرت فى اثارة الجدل ٠

ان أكثر المصـــادر المعـــاصرة من ناحية القيمة ، والوحيدة التى لاريب فيهـا ، ما يطلق عليهـــا قطعة القمـــاش المطرزة بمدينة بييو Bayeaux-Tapestry ٠ وهى عبارة عن شقة من الورق الكتانى المطرز بالخيوط الصوفية فى سبعة ألوان تحكى بالصورة معركة هيستنجز ، وطولها مائتين وثلاثون قدم وعرضها عشرون بوصة ، واحتوت على اهتمام خاص بأدوار المسئولين عن تلك المعركة ، هارولد Harold ملك انجلترا ، ووليم William دوق نورماندى ٠ وترجع بعض الآراء الحـديثة تـلك القطعة المنسوجة والمطرزة الى ما بعد المعركة بحوالى اثنى عشر عاما ، وعلى وجه اليقين ليس بعد سنة ١٠٨٢ م ٠ ففى ذلك الحين اختلف أودو Odo أسقف مدينة بييو Bayeaux مع الروق وليم ، الذى كان أخا غير شقيق له ، الأمر الذى أدى إلى سجنه على يد وليم ٠ وأودو هذا هو الذى قام بتصميم ومتابعة تنفيذ قطعة القماش الكتانى المطرزة ٠ التى تقدم الدليل على ما ينتقص من درجة ولاء النورمان ، على الرغم من أنها تقدم معلومات عن ملابس القرن الحادى عشر ، والدروع ، والأسلحة : وأساليب القتال، وبناء القلعة ، ونقل الحيوان ، وإمداد السفن ، وكلها معلومات قيمة ٠

وأهم المصـــادر المكتوبة عن معركة هيستنجز هى حولية وليم من بواتسييه William of Poitiers ومن الواضح أنها أمدت من صنعوا قطعة القماش المطرزة بالمادة العلمية عن قصتهم ٠ وكتب وليم هذا حوليته فى الفترة ما بين ١٠٧٢م و١٠٧٤م واستمد جزءا من معلوماته مما كتبه وليم من جوميج William of Jumieges عن تاريخ الأدواق النورمان ، والجزء الآخر من الذين عاصروا تلك المعركة ٠ وعلى الرغم من أن وليم من بواتيه كتب حولية مهمة ، فمن الواضح ، الى من أبدى تعاطفه معه ٠ فالنسبة اليه كان هارولد ، « رجلا انجليزيا غبيا » ، وأنه « كان ملطخا بالرذيلة ، وقاتلا قاسيا » ، وأن ما فعله وليم لم يكن سوى عدل الله ، على أن افتقار وليم بواتيه للموضوعية ما هى الا خاصية اتسمت بهـا المصادر المكتوبة التى عالجت المعركة ٠

وعلى سبيل المثال ، يحكى هنرى من هنتجتون Huntington كيف ألقى وليم على رجاله خطابا طويلا ورنانا وبليغا جدا قبل المعركة عن جرائم هارولد ، وعن المآثر الرائعة لأجداده النورمان الشجعان لدرجة أن رجاله ، « استشـاطوا غضـبا واندفعوا فى حمـاس شديد صـوب العدو ، وبعنف يفوق الوصـف ، وتركوا الدوق وليم يكمل خطـابه

بمفرده » • على أن أكثر المصادر التى يمكن الاعتماد عليها حولية الانجلو سكسون Anglo-Saxon Chroncile ، وان كانت مقتضبة لسوء الحظ ، ولا شك أن ذلك كان وفقا للمبدأ القائل بأنه من الأفضل أن يقال ما قل ودل عن هذا العمل المؤسف • [أو خير الكلام ما قل ودل] •

ولو أن ادوارد المعترف Edward the Confessor (١٠٦٦ - ١٠٤٢م) أنجب ابنا ما دارت رحى معركة هيستنجز • وكان ادوارد هذا ابنا لايثليرد الثانى Ethelerd II ، والمعروف الى حد ما بشكل غير دقيق باسم ايثيلرد غير المستعد Ethelerd the Unready وكان متزوجا من اما Emma • وعندما مات ايثيلرد سنة ١٠١٦ م ، أكمل كانوت Canute ملك الدانمرك فتحه لانجلترا ثم تزوج اما • ولجأ ادوارد والفريد ابنا ايثيلرد من اما ، الى نورماندى طلبا للحماية ، حيث وافق دوقها على حمايتهما • وفى سنة ١٠٤١م استدعى هارثا كانوت Hartha Canute ابن اما من زوجها كانوت أخاه غير الشقيق ادوارد ، الذى اعتلى العرش فى العام التالى • ويبدو أن ذلك حدث بموافقة كل من الدانمركيين الذين استوطنوا بريطانيا Danes والايرلات earls الانجلو - سكسون • وتزعم هؤلاء جميعا جودوين Godwin ايرل وسكس Earl of Wesse الذى تزوجت ابنته ايديث Edith من ادوارد • بيد أن ادوارد ، ولسوء طالع بلاده ، لم ينجب ابنا ، وكان كلما كبر فى السن كلما زاد الاهتمام فى انجلترا وفى نورماندى بشأن من سيخلفه على العرش •

وهناك عدد من الظروف أقحمت النورمان فى مشكلة خلافة العرش الانجليزى • ولا يوجد ظرف بذاته فرض نفسه ، بيد أن تجمعها معا جعلها لها جميعا تأثير كبير ، على الأقل فى نورماندى • من ذلك ما يتعلق بحقيقة أن اما والدة ادوارد ، كانت اختا لريتشارد الثانى دوق نورماندى ، وهى فى الوقت نفسه عمة وليم الفاتح • والأكثر أهمية حقيقة أن ادوارد كان قد قضى فترة صباه وشبابه من سنة ١٠١٦ م الى سنة ١٠٤١ م ، فى المنفى فى نورماندى ، ابان فترة حكم كانوت الدانمركى وأولاده فى انجلترا • ولقد شب ادوارد نورمانديا فى أساليب تعامله أكثر من كونه أنجلو سكسونيا ، وأشد تشبها فى سلوكه بهؤلاء « الأجانب » ، وعندما صار ادوارد ملكا سنة ١٠٤٢م ذهب الى انجلترا عدد كبير من النورمان أكثر من ذى قبل ، وبعضهم عمل فى البلاط الملكى فى وظائف الكتبة والخدام ، والبعض الآخر أساقفة ورؤساء أديرة • وكان روبرت من جومبج Robert of Jumieges أسقفا لمدينة لندن سنة ١٠٤٤م ، ثم رئيسا لأساقفة كانتربرى Canterbury سنة ١٠٥١م •

واتضح أن سنة ١٠٥١م كانت حاسمة بالنسبة لمسألة من سيخلف ادوارد على العرش الانجليزى • واذا كان لدى ادوارد المعترف أى أمل فى اعتلاء وليم للعرش عن طريق الوراثة ، فليس هناك دليل صريح على وجود هذا الأمل قبل تلك السنة • فأبان سنة ١٠٥١م ، اشتدت حدة الخلاف المتزايد بين ادوارد والايرل جودوين اذ لام ادوارد لجودوين لموت أخيه الفريد • وكانت نتيجة ذلك أن أجبر ادوارد جودين على الذهاب الى المنفى • بل أن ادوارد قام بارسال زوجته اديث Edith ، ابنة جودين الى دير للراهبات • وفى تلك الفترة لم يكن لأتباع جودوين حول لهم ولا قوة ، لذلك تصرف ادوارد بحرية أكثر لصالح النورمان • وتمت ترقية روبرت من جوميج ، فى تلك الفترة • بل أن هناك بعض الآراء القائلة بذهاب وليم الى انجلترا فى زيارة سنة ١٠٥١م ، ويقبل العلماء هذا الرأى بصفة عامة ، ويقولون أنه سواء زار وليم لندن أم لم يزرها ، فمن المحتمل أن ادوارد أعطاه وعدا على نحو ما باعتلاء العرش •

أما عن كيفية عودة جودوين من المنفى سنة ١٠٥٢م فما زال هذا الموضوع مثار خلاف • ومن الواضح أن جودوين وادوارد توصلا الى نوع من التسوية ، بيد أن طبيعة هذه التسوية مازال يكتنفها بعض الغموض • ففى ذلك الحين هرب بعض النورمان من انجلترا أو طردوا منها ، ومن بينهم روبرت من جوميج ، وشغل ستيجاند Edith السكسونى مكانه فى كانتربورى • وأعاد ادوارد زوجته ايديث Stigand ثانية الى قصره ، ولا بد أن هذا يشير الى حدوث خصام كامل مع نورماندى ونهاية لكل آمال وليم التى كان يمنى نفسه بها للحصول على العرش • ثم بعد ذلك بسنوات قلائل سواء بناء على أوامر ادوارد المعترف أو باذنه ، أعاد ادوارد بن ادموند ايرنسايد • Edward, the son of Edmund Ironside (ابن ايثلير الثانى) من المنفى ، ولكونه كحفيد لايثيلير الثانى فان له الحق فى العرش وفقا للارث الذى لا غموض فيه •

ومع ذلك بدا أن ادوارد المعترف ظل على علاقات ودية مع وليم • ويحكى وليم ميواتيه وكذلك ما دون فى قطعة القماش المطرزة أن ادوارد أرسل الايرل هارولدبن جودوين الى نورماندى لكى يؤكد الوعد الخاص باعتلاء الدوق للعرش • ووفقا لهذين المصدرين ، وعدها رولد فى هذه الزيارة باستغلال نفوذه لعرض مسألة خلافة وليم للعرش فى حالة وفاة ادوارد ، بل أنه وافق على أن يقدم للدوق قلعته فى دوفر Dover والقلاع الأخرى التى يريد الدوق تشييدها • ولا شك أن النورمان كانوا مقتنعين بالكامل أن هارولد قدم تلك الوعود • وذلك ما أكد عليه أحد المؤرخين المحدثين على الأقل (٢) •

غير أن العلماء الآخرين وكتاب الحوليات الانجليز أقل اقتناعا بذلك ، وهم يوافقون على أن هارولد وجد نفسه فى بحر المانش حوالى سنة ١٠٦٤ م ، اما فى رحلة صيد واما فى سفارة الى وليم (وكان المعترف قد أرسله من قبل فى سفارة الى الشعب الفلمنكى Flanders) • ويوافقون على أن سفينته جنحت ، ووقع فى قبضة الكونت جوى من بونتيو Guy of Ponthieu الذى قام بتسليم هارولد الى وليم سيده الاقطاعى الأعلى ، وحصل منه على مكافأة • والتزم هؤلاء الكتاب الصمت بخصوص أية وعود قدمها هارولد الى وليم سواء كانت تفسر ذهابه الى نورماندى أو أن وليم أجبره على تقديم تلك التعهدات قبل السماح له بالعودة الى انجلترا •

وهناك اعتبار آخر يتعلق بمطالبة وليم بالعرش الانجليزى ، ذلك هو طموح وليم وقوته • ان انسانا أقل طموحا لن يطالب بمثل هذا الادعاء ، كما أن شخصا أقل قوة لن يمنى نفسه بالأمل فى تحقيق هذا المطلب • وكان وليم يدرك ادراكا كاملا منذ أن كان صبيا حقيقة أنه الابن الوحيد لروبرت دوق نورماندى ، وأنه ابن غير شرعى ، وكابن غير شرعى ، فان عليه أن يكون طموحا وحذرا ، اذا كان يأمل فى أن يرث الدوقية • وفى سنة ١٠٣٥م ، عندما مات روبرت فى نيقية ، عند عودته من زيارة الأراضى المقدسة ، كان على وليم أن يضاعف جهده ليكون طموحا وحذرا • ولم يكن وليم مجرد ابن غير شرعى ، وانما كان قاصرا أيضا ، اذ لم يكن قد تجاوز السابعة أو الثامنة من عمره • ولتأثره بحالة عدم الاستقرار العام فى غرب أوربا نتيجة لما عرف بعصر الاقطاع ، فان اللعنة المزدوجة الخاصة بعدم شرعية بنوته وكونه لم يبلغ سن الرشد ربما كان ذلك كله حملا ثقيلا يفوق طموح شاب مثل وليم • بيد أن سيده الاقطاعى الأعلى ، هنرى الأول ملك فرنسا ، ساعده فى موقعة فال – از – دون Val-ès-Dune سنة ١٠٤٧م ، وأنقذ دوقيته من أتباعه الذين ثاروا ضده • وربما أخذ هنرى الأول على عاتقه مهمة مساعدة وليم لأن والد وليم كان قد وقف بجواره رفقة الصديق عندما طردته باريس • ولم يدع وليم من ناحيته فرصة تمر دون ابداء مشاعر الاعتراف بالجميل • ومع ذلك ففى سنة ١٠٥٧م هزم وليم الملك هنرى نفسه فى موقعة فارافيل Veraville وصار مركزه قويا بعدها الى الحد الذى جعله يتجاهل أية شخصية فى باريس •

وبحلول سنة ١٠٥٧م كان وليم قد عمل على تدعيم مركزه فى داخل نورماندى وفى فرنسا الى الحد الذى جعله يتطلع الى امتلاك أراضى أخرى بعيدة • وكانت تحركاته تجاه تقوية مركزه ، بعد أن عمل على تأمين

دوقيته أن تزوج من ماتيلدا Matilda ابنة بلدوين الخامس كونت الفلمنكيين • وكان زواجه من تلك الفتاة على الرغم من الانذار الذى أصدره البابا ليو التاسع اشارة الى ارادة وليم الحديدية • وعلى الرغم من أنه كان رجلا متدينا الى حد كبير ـ وفقا لما ذكره أحد كتاب الحوليات ، « كان دمثا مع الصالحين من الرجال الذين أحبوا الله » ـ فانه لا يطيق أى تدخل من قبل رجال الكنيسة ، اذا ما حاولوا التدخل فى شئونه ، وليس واضحا الأسباب الدقيقة التى دفعت البابا ليو التاسع الى عدم الموافقة على الزواج • ففى العصور الوسطى كانت القرابة هى القاعدة المألوفة ، والتى نالت موافقة الجميع بشأن الزواج ، بيد أنه فى حالة وليم وماتيلدا فان ذلك لم يتم • ومن المحتمل أن يكون الملك هنرى الأول هو الذى طلب من البابا ليو التاسع منع الزواج خشية أن يعمل التحالف بين وليم والفلاندر القائم على الزواج على زيادة قوة تابعه الاقطاعى • وفى سنة ١٠٥٩م ، أى بعد زواج وليم وماتيلدا بحوالى ثمانى أو تسع سنوات ، سحبت البابوية اعتراضاتها ، وباركت الزواج ، وان كانت قد طلبت من الزوج والزوجة بناء كنيستين كبيرتين لكل منهما دير للتكفير عن خطيئتهما ، فى مدينة كين Caen • وعلى الرغم من أن الرجل الفرنسى المعاصر ، ربما فكر مليا فى الأسباب التى دفعت البابا الى الاعتراض على الزواج ، فانه ما زال يعبر عن امتنانه له بسبب الديرين الفخمين ، دير الرجال (س • ايتين S. Stienne) ودير النساء(الثالوث La Trinite) ، اللذان يضيفان التشريف على مدينة كين Caen • وشعر الجميع بالارتياح عند معرفة أنه بعد تلك المتاعب استطاع وليم الظفر والاحتفاظ بماتيلدا كزوجة له ، وأنه ظل طوال حياته متعلقا بها ، وهذا الأمر اشارة للاخلاص فى العلاقات الزوجية الذى لم يكن أمرا تقليديا عند السواد الأعظم الخلفائه فى العصور الوسطى •

ولم تتوقف جهود وليم فى العمل على زيادة قوة مركزه بزواجه من ابنة كونت فلاندر • ولما كان وليم واثقا من الموقف الحيادى الودى من جهة صهره ، لذلك استولى على أراضى مين Maine سنة ١٠٦٣م وهو كسب ساعده على حماية حدوده الجنوبية من طموحات كونت أنجو Anjou ويرى بعض العلماء أن وليم حاول الحصول على موافقة البلاط الامبراطورى الجرمانى على فكرة امتلاكه لانجلترا ، بيد أن هذا أمر مشكوك فيه • اذ لابد أنه كان على علم بأن المانيا ابان فترة النزاع الحربى التى أعقبت موت هنرى الثالث سنة ١٠٥٦م ، كانت غير قادرة على ابداء الموافقة أو الاعتراض ، بشكل فعال ، بخصوص ما اختار أن يفعله • واستطاع أن يتحمل تجاهل فيليب الاول Phelip I اذ كان ملك فرنسا الجديد

قاصرا ، وأكثر من هذا لم يكن من تولى الوصاية على عرشه سوى صهر وليم ، كونت فلاندر Flanders وفى سنة ١٠٦٠م ، مات كونت أنجو تاركا ذلك الاقليم فى حالة الاضطرابات العامة ٠

ويبدو أن الشخص الاوحد الذى حرص وليم على الحصول على موافقته لغزو انجلترا كان البابا ، وان كان مستشار وليم الدينى ، لانفرنك Lanfranc كان أكثر اهتماما بذلك من وليم نفسه ٠ وبعد تجربة وليم مع الأوامر البابوية ، فلا بد أنه كان مقتنعا بأن البابوية لا تستطيع أن تفعل شيئا يتعلق بتنفيذ أو اعاقة مشروعه ، ومن المحتمل أن لانفرنك Lanfranc أكد له على أهمية الحصول على موافقة البابوية ٠ وكان ستيجاند Stigand المحروم كنيسيا لا يزال يتربع على عرش رئاســة الأساقفة فى كانتربورى ، الذى كان يشغله روبرت من جوميج Robert of Jumieges وساعد ذلك على اعطاء البابا دافعا ، دون عناء لمنع وليم موافقته ، واستغل وليم تلك الموافقة وعلقها على لافتة من القماش حملت على عمودين ضمن اللافتات التى أمر بحملها ابان تقدم قواته لمحاربة هارولد فى هيستنجز ٠ وفى مقابل موافقة البابا كان على وليم أن يعزل ستيجاند Stigand ، وهو الشىء الذى فعله سنة ١٠٧٧م ، عندما عين مستشاره لانفرنك مكانه ٠ على أن البابا طلب فيما بعد أن يكون وليم تابعه الاقطاعى فى انجلترا ، الا أن وليم انزعج بشدة من هذا الطلب ٠

من بين ثلاثة طالبوا بأحقيتهم لعــرش انجلترا عندما مات ادوارد المعترف ، كان وليم الوحيد الذى نجح فى تحقيق دعواه على الرغم من أن هارولد بن جودوين اســتطاع عرض الحجة المقنعة الأقوى ٠ ففى سنة ١٠٥٣م كان قد أصبح ايرلا لمقاطعة وسكس Earl of Wessex ، ومنذ وفاة والده وحتى ذلك الحين حقق لنفسه شهرة بفضل مآثره الحربية فى ويلز Wales ٠ وفى عصر كان لا بد أن يكون الملك شخصية مقاتلة قبل أى اعتبارات أخرى ، فان شجاعة هارولد الحربية عملت على تزكيته لاعتلاء العرش طالما لم يظهر أحد أكثر منه مقدرة على مقاومة طموحات شخص « مغامر أجنبى » من المؤكد أنه سيحاول القيام بذلك ٠ لذلك لا بد أن ادوارد المعترف فكر وهو على فراش الموت ، واختار هارولد ليكون خليفة له ٠ ولعدة سنوات أسند ادوارد الى هارولد مسئولية حفظ سلام المملكة فى الوقت الذى كرس كل جهوده لبنـــاء دير وستمنستر Westminster ووفقا لما أورده المؤرخ فلورانس من وركستر Florence of Worcest ، كان هارولد « الملك الثانى فى المملكة » ابان السنوات الأخيرة من عهد ادوارد الثانى ـ وأصبح ملكا بصفة رسمية فى السادس من يناير فى اليــوم التــالى على وفاة ادوارد وتم تتويجه فى الكنيســة الكبرى فى

وستمنستر • وتبع ذلك التأييد الجماعي في المجلس الأنجلو ـ سكسوني المتكون من كبار الكهنة ورجال الدولة • وتصادف أن كان كثير من أعضاء ذلك المجلس في لندن وقت الاحتفال بافتتاح دير وستمنستر
Westminster Abbey

على أن الشخصية السكسونية المهمة التي تصدت لاعتداء هارولد للعرش لم تكن سوى توستنج Tosting أحد اخوته • ويبدو أن توستنج كان أصغر من هارولد بقليل ، وكان رجلا محتكا ، ومقربا من ادوارد المعترف • ومنذ سنة ١٠٥٥م كان حاكما لاقليم نورثمبريا Northumbria وهو أكبر الاقاليم ، وربما أكثرها أهميـة من بين الأقاليم الانجليزية earldoms ولو قدر له أن يظل في منصبه هذا حتى سنة ١٠٦٦م لاتخذ التاريخ الانجليزي مسارا آخر اذ ربما فضله ادوارد على شقيقه هارولد • غير أن أتباع توستنج الاقطاعيين ثاروا على حكمه القاسي ، وأجبروه على الذهاب الى المنفى • وفي ذلك الحين طالب الملك ادوارد من هارولد الاسراع بمساعدة أخيه • غير أن مساعدة هارولد كانت بطريقة غامضة ، وعلى مايبدو فانه لم يجن سوى الكراهية المريرة التي كان يكنها توستنج له •

ونظرا لأن هارولد تزوج من ابنة حاكم نورثومبريا فيما بعد ، فللمرء أن يخامره شعور بالشك في أن هارولد سعى الى عرقلة عودة توستنج الى نورثومبريا أكثر من محاولة اعادته اليها سريعا • ومع عدم توستنج ، تزايدت طموحات هارولد في وراثة العرش ، وكان في استطاعته الاعتماد على مساعدة أخويه الصغيرين جايرث Cyrth وليوفوين Leofwine وكان جايرث حاكما لاقليم شرق انجليا East Anglia أما ليوفين فكان حاكما لمنطقة تشمل لندن ، والمناطق الريفية في اسكس Essex وهارتفورد Hartford وشمال شرق مدينة بكنجهام Buckingham وكذلك سوري Surry وكنت Kent الى الجنوب •

وعندما وجد توستنج نفسه مضطرا الى ترك انجلترا ، توجه الى فلاندر Flanders اذ كان كونتها Count شقيقا (والدا ؟) لزوجته • وفيما بعد ، بدأ مهاجمة الساحل الشرقي لانجلترا بمساعدة المرتزقة الفلمنكيين وبعض الانجليز ، الذين كان قد استمالهم الى جانبه • وانضم اليه كوبسي Copsi أحد أصدقائه ابان وجوده في نورثومبريا Northumbria الذي كان يقود سبعة عشر سفينة لمساعدته في هجومه ، بيد أن محاولتهم جميعا منيت بالفشل الذريع • وعندما أبدى حاكما ميركيا Mercia ونورثوميريا مقدرتهما على دحر المغيرين ، تخلى

معظم رجال توستنج وسفنه عنه ، وعندئذ لاذ بالفرار الى اسكتلندا • وهناك التقت آماله مع آمال هارالد هاردرادا Herald Hardrada ملك النرويج الذى خامرته الرغبة فى أن يكون مطالبا ثالثا بعرش انجلترا •

كان هارالد هاردرادا أحد المغامرين الفيكنج فى ذلك العصر ، ومن المحتمل أنه كان أشهر المحاربين فى عهده • وفى فترة شبابه ترك بلاد النرويج وذهب الى روسيا ، حيث حققت شجاعته الحربية احترام ياروسلاف الحكيم Yaraslow the Wise له ، الظفر بيد ابنته أيضا • ثم رحل الى القسطنطينية وعمل هناك قائدا للحرس الفارانجى Varangian Guard لعدة سنوات • وفى سنة ١٠٤٧م عاد الى النرويج كملك ، أما فى سنة ١٠٦٦م ، قدم نفسه كمطالبا بعرش ادوارد بناء على معاهدة كان قد عقدها هارثا كانوت Hartha Canute Magnous مع ماجنوس Tyne ملك النرويج، أحد أسلافه وقريبه •

وبعد أن سبق السيف العذل أدرك هارولد أن خطورة التهديد من الشمال جاءت متأخرة بهدف ابعاد توستج ، اذ عرض هارولد على توستج اقليم نورثمبريا كمحاولة جاءت متأخرة مقابل ابعاد توستج عن هارد رادا • وعندما سأل توستج عن نصيب هاردرادا فى أية تسوية لم يكن جوابه سوى « سبعة أقدام من الأرض ، وربما أكثر ، اذ أنه رجلا طويل القامة » • ورفض توستج عرض هارولد بازدراء •

ولم يحدث من قبل أن غزا انجلترا جيش من الشمال مثل الجيش الذى قاده هاردرادا ، اذ كان جيشـــا قويا وشجاعا ، ومدربا تدريبا جيدا •

وعندما وصل هاردرادا الى مصب نهر تاين Tyne انضم اليه توستج وأصدقاؤه ، وتجاوز تعداد أسطوله ثلاثمائة سفينة عندما اتجه من بيرجن Bergen عبر شيتلاند Shetlands وأوركنز Orkneys • وفى أوائل سبتمبر ، اتجه هاردرادا ، وتوستج جنوبا ، وهاجما أثناء مرورهما شاطئ يوكشير Yorkshire واستمرا الى أن وصلا الى نهر همـــبر Hunber وأبحرا عبر هذا النهر حتى وصلا الى رافده أيوز Ouse الى أن وصلا الى ريكال Riccall • وفى العشرين من سبتمبر ، وعلى بعد حوالى ميلين جنوب يورك York عند بوابة فولكفورد Gate FultkfordW هزم الجيش الانجليزى الذى كان تحت قيادة كل من حاكم ميركيا Mercia ونورثمبريا • وكتب أحد المؤرخين أن الانجليز ، « لاذوا بالفرار بعد أن تشتت شملهم ، أما عن الذين غرقوا فى النهر (أيوز Ouse) ، فقد

فاقت أعدادهم ، أعداد الذين قتلوا فى المعركة » · وتقدم هاردرادا الى يورك York التى استسلمت ، وأقام معسكره على بعد تسعة أميال من المدينة عند جسر ســـتامفورد Stamford Bridge فى انتظار وصول الرهائن التى وعدته بها المناطق الريفية الشمالية northern Shires بانجلترا ·

وفى نفس الوقت كان هارولد مشغولا بتدعيم أركان عرشه المترنح · ففى أبريل سافر شمالا الى يورك حيث تزوج من ايلد جيث Ealdgyth شقيقة كل من ادوين Edwin حاكم ميركيا Mercia ، وموكار Cocar حاكم نورثمبريا ، كخطوة مقصودة ليتأكد له تعاون هذين الحاكمين الشماليين معه · وشهد شهر مايو انشغال توستج بالاغارات على امتداد الشاطىء الجنوبى الشرقى ، وهى الاغارات التى خشى توسنج من أنها ليست سوى غزو تمهيدى يمارسه وليم دوق نورماندى ، الذى كان يقدم تأييدا الى توستج من قبل · وما ان تم طرد توستج شمالا ، حتى عاد هارولد الى لندن ليبدأ استعداداته بكل جد واجتهاد للتصدى لقدوم وليم · ولم يكن لدى هارولد أدنى شك فى نوايا وليم ، اذ أن وليم كان قد اتهمه بالحنث باليمين عندما علم بأن هارولد تسلم التاج ، وهـــدد بأنه فى استطاعته الذهاب الى انجلترا بنفســـه لحرمان هارولد مما امتلكه بشكل غير قانونى ·

وليس معروفا عن اســـتعدادات هارولد سوى اســـتدعائه للقوات الشعبية ، فى فصل الصيف لحماية سواحل سكس Sussex وكنت Kent اللتان تقعان فى مواجهة نورماندى · وتولى بنفسه قيادة أسطول سكسون الذى كان موجودا فى جزيرة ويت Isle of wight · وفى الثامن من سبتمبر قام بتسريح القوات الشعبية ، ثم حرك سفنه تجاه الشرق فى طريقها الى لندن · وليس معروفا السبب الذى دفعه لاتخاذ تلك الخطوات فى هذا الوقت على وجـــه التحديد · وربما كان ذلك نتيجة الحالتين · أولا : احتمال انقضاء مدة الشهرين المطـلوبة لبقاء القوات الشعبية فى الخدمة العسكرية ، وأن أموالهم ومؤنهم قد نفذت · وكتب أحد المؤرخين : « لم يكن فى استطاعته أى شخص اجبارهم على البقاء أكثر من ذلك الوقت » · ثانيا : ان الرياح التى كانت تهب من الشمال ابان شهر أغسطس والتى جعلت الرحلة البحرية من نورماندى مستحيلة لم تستمر حتى سبتمبر فحسب ، وانما تحولت واشتدت ، حتى صارت فى سرعة الرياح الهوجاء · (وفقد كل من هارولد على الساحل الانجليزى ووليم فى مواجهة القناة الانجليزى فى نورماندى سفنا فى تلك العاصفة الهوجاء) · ومع هبوب الرياح يوما بعد يوم ، فانها قللت من خطر غزو

بريطانيا ، بالاضافة الى أن اقتراب فصل الخريف ، والطقس الردىء عملا على تناقص احتمال غزو وليم لانجلترا • كما أنه كان من الصعب على وليم أن يهاجم بلدا معاديا حتى لو كان ذلك فى فصل الصيف • والواقع أنه يمكن تلمس العذر لهارولد لاعتقاده أن وليم لن يهاجم بلدا أجنبيا فى حجم انجلترا بمصادرها الكبيرة من القوى البشرية والثروة •

ولم يكد هارولد يصل الى لنيدن حتى علم أن هارالد هاردادا Harald Hardrada قد أنزل قواته فى الشمال وهزم الحكام earls الانجليز فى موقعة فولفورد Fulford (٢٠ سبتمبر) • غير أن هارولد لم يضيع وقتا • اذ أسرع تجاه الشمال مصطحبا معه أقاربه ، وكل من استطاع تجنيده من قوات المقاومة الشعبية وهو فى طريقه • كان هارولد معروفا بالتهور ، بيد أن خبرته فى محاربة أهالى مقاطعة ويلز لابد وأنها علمته أهمية عنصر المفاجأة • وربما كان عنصر المفاجأة هو الذى حقق له نتيجة حاسمة عندما انقض على قوات هاردرادا فى موقعة جسر ستامفورد Stamford Bridge فى الخامس والعشرين من سبتمبر • غير أن المؤرخين لم يذكروا سوى الخسائر الفادحة فى الأرواح التى منيت بها قوات هاردرادا وتوستج فى تلك المعركة • اذ لم يبق سوى عشرين سفينة لنقل المقاتلين من النرويج ممن قدر لهم البقاء على قيد الحياة — أكثر من ثلاثمائة سفينة أتت بهم — وبعد ذلك بخمسين عاما ظلت أكوام ضخمة من عظام الموتى تشير الى تلك المعركة ، « ونصب تذكارية للأعداد الهائلة التى سقطت من الجانبين » •

كانت موقعة جسر ستامنورد Stamford Bridge أسعد أوقات هارولد ، بيد أنه لم يكن لديه وقت ليستمتع بها • اذ بينما كان جالسا فى حفل غذاء ، احتفالا بانتصاره ، أبلغه رسول بخبر وصول وليم الى سكس Sussex • وذلك لان الرياح التى كانت تهب من الشمال لعدة أسابيع غيرت اتجاهها أخيرا ، وهبت من الجنوب ، وبذلك استطاع وليم نقل قواته الى الشاطىء البريطانى • ولم يكن وليم شخصا مغامرا ، وانما كان واثقا من جيشه • وفوق ذلك ، فانه كان يعلم أن على هارولد أن يتصدى لجيشين من الغزاة جيش وليم من الجنوب ، وجيش هاردرادا من الشمال • وعلى ذلك ففى السابع والعشرين من سبتمبر ، أى بعد مرور يومين على معركة جسر ستامفورد غادر وليم نورماندى • وبالطبع لم يكن لديه علم بما كان قد حدث فى الشمال •

ويتضح من الاستعدادات التى أعدها وليم لهذه الغزوة أنه لم يكن مغامرا • اذ كان قد جمع جيشا بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وهو

جيش يصعب على ملوك ذلك العصر جمعه • وهذا العدد يشمل عددا كبيرا من غير المقاتلين ــ الذين يقومون باعداد الطعام ، والابحار بالسفن ، واقامة المعسكرات عند وصولهم الى الشاطىء الانجليزى ، واعداد الاستحكامات ، والاقامة بها • وعلى الرغم من أن وليم أقوى السادة الاقطاعيين فى فرنسا ، وعلى قدر من الثراء وفقا لمستويات العصر ، فان موارده لم تكن تسمح له على الاطلاق اعداد مثل هذا الجيش • لذلك جاء الجزء الأكبر من رجاله والمبالغ المطلوبة للغزو من أتباعه الاقطاعيين ، ومن أصدقائه ، ومن الرجال الذين آمنوا بعدالة قضيته ، والذين أبدوا رغبتهم فى ربط مصيرهم بمصيره • واتخذت عملية الغزو التى خطط لها طبيعة الخطة الجريئة المشتركة • اذ أن أتباعه الاقطاعيين لم يكونوا ملزمين قهريا بمساعدته • ذلك بسبب قرار غزو بلد أجنبى لم يصدر منه تهديد لنورماندى من ناحية، ولان العرف الاقطاعى لم يكن قد تبلور بعد الى الحد الذى يحتم على الاتباع الاقطاعيين تقديم عدد محدد من الفرسان لفترة معينة من الزمن من ناحية ثانية • وانما انضم أتباع وليم الاقطاعيون اليه بعد أن وعدهم بنصيبهم فى الأراضى والغنيمة •

وفيما يتعلق بالنسب التى قدمها أتباع وليم من الاقطاعيين النورمان فى جيشه ، فان ذلك مازال موضوعا خاضعا للتخمين • اذ حاول بعض أصدقائه نصيحته بالعدول عن عملية اعتبروها مجازفة ، ولا بد أن حكمة هؤلاء الأصدقاء دفعتهم الى الاحتفاظ بعدد من قواتهم فى بلدهم • ومع ذلك، فان قلب جيش وليم ــ الفرسان الذين تحملوا الوطأة العظمى للمعركة ، وأحرزوا النصر له ــ كانوا من النورمان ، ولذلك فنستطيع أن نفترض أن الاستجابة فى نورماندى لمشروع غزو انجلترا كانت طيبة • وأسهم فى تلك الحملة الكثير من الفرسان من اقليم بريتانى Brittany وهى بلد فقير فى أحسن الأحوال ، ولم يكن بها موارد تفى بطموحات شبابها • لذلك كانوا على استعداد لتخطى الصعاب من أجل تحقيق مستقبل أفضل فى انجلترا • وربما اشتركت أعداد قليلة من الفرسان من اقليم فلاندر، ومن أقليم ميان Maine ومن المحتمل اشتراك قلة من جنوب ايطاليا ، حيث استقر هناك كثير من النورمان فى أوائل ذلك القرن • ومع ذلك أطلق أحد المؤرخين العنان للمبالغة فى التعبير عندما كتب أن وليم تلقى المساعدة ، « من كل أنحاء فرنسا » •

كان معظم رجال وليم من الجنود المشاة ، وتقع عليه مسئولية تجنيدهم فى المقام الأول • وعلى الرغم من أن بعض أتباع وليم الاقطاعيين، أمدوه بكل تأكيد بأعداد قليلة من المحاربين بالسهام والرماح ، فمن المرجح أن معظم القوات المقاتلة من المرتزقة الذين خاضوا معركة هيستنجز قام

وليم بنفسه بتدبيرهم ، اذ أنهم لم يكلفوه كثيرا • وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر كان ينظر الى جنود المشاة على أنهم وقود للمعركة • وكانت هذه النظرة صحيحة فى القارة الأوربية بصفة خاصة • فى حين كان الفارس فى استطاعته حسم المعركة لصالحه تقريبا • وكان بعض هؤلاء الرجال من الجنود غير المحترفين ، والبعض الآخر كان ببساطة بلا عمل ـ من المشردين ، وقطاع الطرق ، والمجردين من القيم الأخلاقية ـ والذين اهتموا بالحصول على الغنيمة أكثر من اهتمامهم بالعمل • وقد أمدهم وليم بالأسلحة • وتوضح قطعة القماش المطرزة فى بايو Bayeaux Tapestry أكواما من الحراب ، والأقواس ، والسهام ، والمدى التى أعدت ليستعملها المشاة فى الغزو •

على أن عدم معاناة وليم من متاعب كثيرة على أيدى جنوده من المشاة ، انما كان تعبيرا عن اصراره الشديد على الانضباط والنظام • اذ كان من الصعب اجبار هؤلاء لجنود الرجال على لخضوع للنظام فى أوقات لهدوء ، كما كانوا أول من يلوذ بالفرار بمجرد شعورهم بأن المعركة تسير على غير ما يرام • وطالما أنهم يعيشون على ما يحصلون عليه من الغنائم ، وما يدفع لهم ، فانهم كانوا على استعداد لاحراق أى مدينة برغم عدم صدور أوامر لهم بذلك من قائدهم ، اذا كان ذلك يحقق لهم سرعة الحصول على الغنائم• ونظرا لشهرة وليم فى كسب المعارك ، والاستيلاء على القلاع ، والقضاء التام على مدن وقرى الأعداء ، فمن الممكن القول أن المرتزقة كانوا حريصين على الخدمة العسكرية معه •

على أن المشكلة الجديدة التى واجهت وليم ابان الاستعداد لحملته العسكرية كانت البحث عن وسيلة لنقل جيشه عبر القناة الانجليزية (بحر المانش) الى انجلترا • اذ أن الحملات الحربية البحرية ، لم تكن شائعة فى ذلك العصر • أما بالنسبة لفايكنج Vikings وسلالتهم من الاسكنديناففيين ، فلهم تاريخهم الطويل فى السفر بالبحر ، وفى حملاتهم الحربية البحرية التى دارت رحاها على ظهور السفن ـ وفى بيزنطة ، لذلك كان نقل القوات بحرا أمرا عاديا • ولعدة قرون وجدت القسطنطينية أنه من السهل عليها أن تعزز قواعدها فى المناطق الجبلية ببلاد اليونان ، وفى آسيا الصغرى ، بل وحتى فى ايطاليا ، بحرا أكثر من استخدام الطرق البرية • بيد أن شعوب غرب أوربا ، كانوا قد اعتادوا عدم ارتياد البحر بما فيهم النورمان أنفسهم الذين نسوا أساليب أجدادهم ، ومن حسن حظ وليم أنه بحلول النصف الثانى من القرن الحادى عشر كانت أوربا تبدى ملامح ايجابية لانتعاش التجارة البحرية • ولولا تعرض انجلترا لغزو

مشابه قامت به فرنسا فى القرن العاشر لما وجدت سفن لنقل القوات الغازية التى كانت تحت قيادة وليم .

واحتاج وليم الى سفن تكفى لنقل جيش بلغ تعداده حوالى عشرة آلاف مقاتل وبالاضافة الى الرجال ، كان هناك ما يزيد على ألفين من الخيول ، وهى المطايا التى يستخدمها الفرسان فى انجلترا . هذا فضلا عن المواد اللازمة لبناء قلعتين أو ثلاث بمجرد الوصول فضلا عن الكميات الضخمة من الأسلحة والدروع ، والمواد التموينية التى يحتاج اليها الجيش قبل توغله فى انجلترا . ومازال عدد السفن التى استطاع وليم جمعها موضوع خلاف وجدل . ويقدر أحد المصادر المعاصرة هذا العدد بحوالى ألف وخمسمائة سفينة بينما يذكر مصدر آخر أن العدد أقل من خمسمائة سفينة . ومهما كان العدد الحقيقى لتلك السفن ، فقد حصل وليم على بعضها بالمصادرة ، والبعض من أتباعه الاقطاعيين ، هذا بالاضافة الى الأعداد التى قام رجاله بتشييدها على شواطىء نورماندى . ومهما كان عدد السفن التى استطاع وليم جمعها ، فان عبور القناة الانجليزية (بحر المانش) شكل العقبة الوحيدة الخطيرة أمام نجاح مشروعه .

وفى الثانى عشر من أغسطس كان وليم مستعدا لعبور القناة الانجليزية . وعهد الى مجلس وصاية برياسة زوجته ماتيلدا Matilda بادارة شئون نورماندى، وتعاون معها روجر من بومونت Roger of Beaumont فى الوقت الذى جمع فيه جيشه حول مصب نهر الدايفز Dives وهناك انتظر ، ومرت الأيام ، ثم الأسابيع ، فى الوقت الذى ظلت فيه الرياح تهب من الشمال . ولم يكن فى استطاعته عبور القناة الا بعد أن تغير الرياح اتجاهها ، أو توقف هبوبها كلية . بيد أن الرياح لم تفعل هذا أو ذاك . وتحدث وليم من بواتيه William of Polher عن مشكلة الروح المعنوية التى يتحتم على وليم معالجتها حيث أن أسابيع الانتظار جعلت رجاله يبدون مشاعر الملل والقلق . ومع ذلك ، اذا كان وليم قد لعن الطقس فان هناك الكثير ما جعله راضيا عما فعله الطقس معه اذ لم تكن اصابة جنوده بمرض الدوسنتاريا كبيرة . وفى النهاية ثبت أن الطقس العاصف كان العامل الأكثر أهمية فى جعله ملكا على انجلترا . اذ لو أنه اتجه الى انجلترا قبل ظهور هاردرارا فى الشمال ، لهزمه هارولد الذى كان فى انتظاره .

وفى الثانى عشر من سبتمبر نقل وليم جيشه الى ساحل قاعدة جديدة على مصب نهر القديس فاليرى St. Valery . ولم يقدم المؤرخون تفسيرا لهذا العمل . وربما دفعت عاصفة هوجاء سفنه تجاه الشرق .

أو ربما قرر أن أقصر الطرق عبر القناة الانجليزية يقع عند مصب نهر سانت فاليرى حيث يقدم له مزايا أفضل من البقاء عند مصب نهر دايفز ، حتى لو أن جيشـــه قابل شاطئا أضيق فى انجلترا لا يسمح بتحريك سفنه الحربية بحرية أكثر • على أن حقيقة فقدانه لبعض السفن وحركة الرياح ابان تحركه يجعل احتمال شدة العاصـــفة الهوجاء هى التفسير الأرجح • ولابد أنها كانت عاصفة شديدة لأنها أيضا أفقدت هارولد بعض السفن عبر القناة الانجليزية •

ومهما كانت المزايا التى حققتها القاعدة الجديدة فى سانت فاليرى ، فان الرياح ظلت تهب من الشمال ، ولمدة أسبوعين آخرين استشاط وليم غضبا فى الوقت الذى كان فيه جيشه فى حالة انتظار • وفى حالة من اليأس أمر باخراج رفات القديس فاليرى من الكنيسة ، وحملها فى موكب مهيب ، عبر شوارع المدينة • وأخيرا ، اتجهت الرياح صوب الجنوب فى السابع والعشرين من سبتمبر فأعطى وليم الأوامر بالعبور ، وفى منتصف الليل بدأ الأسطول الحربى فى التحرك ، وكانت سفينة الدوق فى الطليعة، وعلى ساريتها مشكاة فيها مصباح • وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، الخميس الثامن والعشرين من سبتمبر نزل وليم وجيشه على الشاطىء الانجليزى عنـد خليج بفنسى Pevensey Bay • وفى اليــوم التالى ، تحرك جيشه صوب هيستنجز Hastings على بعد أحد عشر ميلا الى الشرق • وهناك أقام حصنا ــ وربما أقام قلعة وبها حامية فى بفنسى ــ وقرر الانتظار (٣) •

وما ان بلغ هارولد نبأ انزال وليم قواته على الأراضى الانجليزية ، فى الثامن أو الثالث من أكتوبر ، حتى غادر يورك York وانطلق مسرعا قاطعا حوالى مائة وخمسين ميلا ، ووصل مدينة لندن فى السادس من أكتوبر ، حيث قضى الأيام التالية فى حشد ما استطاع حشده من الجنود • وربما كان لديه أمل فى انضمام حكام الاقاليم الشمالية اليه ، ومعهم قواتهم وجنودهم • لكن بعد الخسائر الفادحة التى تكبدوها فى موقعة جيت فولفورد Gate Fulford فان أمل هارولد كان فى أحسن الأحوال ضئيلا • ومن الأكثر احتمالا أنه تأخر فى لندن لكى يحذر رجاله فى وسكس Wessex فى الوقت الذى أعطى أخويه جايث Gyth وليوفوين Leofwine فرصة لجمع رجالهما •

وفى الحادى عشر من أكتوبر اتجه هارولد بجيشه صوب هيستنجز التى تقع على بعد ثمانية وخمسين ميلا جنوب لندن ، وفى مساء الثالث عشر من أكتوبر ، أقام معسكره على بعد سبعة أميال شمال غرب المدينة •

ولا شك أنه كان يأمل أن يؤدى تحركه السريع من يورك الى لندن الى أن يأخذ وليم على حين غرة ، كما فعل مع الدانمركيين Danes فى موقعة جسر ستامفورد • واذا صدق مؤرخ وركستر Warcester Chronicler حينما قال « لم تكن تصف قوات هارولد قد احتشدت بعد » ، عندما وصل الى هيستنجز ، فانه لا بد أن يكون قد اعتمد على ما يشبه عنصر المفاجأة ، أو الحظ لتحقيق النصر •

وعلى منوال الحالة فى جيش وليم ، فما زالت هناك أسئلة لا تجد جوابا بخصوص حجم ومكونات جيش هارولد • منها كم كان تعداد تلك القوات ؟ لا بد وأن جيش هارولد كان يقارب تعداد جيش وليم ، بيد أن من المستحيل القول أنه كان أكبر أو أقل بكثير من جيش وليم • ويحدد المؤرخون المحدثون تعداد جيش هارولد بحوالى خمسة آلاف مقاتل ، على الرغم من أن المؤرخين المعاصرين قد خفضوا هذا العدد الى حوالى ثلاثة آلاف مقاتل • وعلى أية حال ، اتضح أن معركة هيستنجز ، كانت عملية أصغر من معركة جسر ستامفورد •

كان العنصر الرئيسى لجيش هارولد الذى ذهب الى هيستنجز يتكون من المحاربين المشاة مقابل منحهم اقطاعات housecarls وهؤلاء كانوا محاربين محترفين يتبعونه ويتبعون اخويه ، وكذلك من الاتباع الاقطاعيين الأثرياء • وكان من الممكن أن يعيش هؤلاء المحاربون مع الذين ينفقون عليهم ، أو فى منازلهم ، أو فى الأراضى التى تمنح لهم • وكانوا يمثلون حرسا شخصيا لسادتهم الاقطاعيين بيد أنهم كانوا أيضا على استعداد لتكوين قوة جاهزة للقضاء على ما يعكر صفو الأمن • ولم يكونوا يختلفون عن الأتباع الاقطاعيين بالقارة الأوربية الا فى أمر واحد مهم — كأنهم كانوا يحاربون دون ركائب ، اذ كانت خيولهم تستخدم وسيلة للانتقال فحسب •

وكانت طبقة الثين Thanes طبقة حربية الى حد ما غير أن لديهم بعض المعرفة والخبرة الحربية • وهم يمثلون ملاك الأراضى الأكثر ثراء تقريبا ، ولديهم قواتهم الخاصة التى تتكون من أفراد يعلو مستواهم بعض الشىء عن مستوى المزارعين Peasants الذين يشتركون فى قوات المقاومة الشعبية fyrd • وفى زمن الحرب كانت طبقة الثين تتولى قيادة العاملين فى المزارع المحلية تحت قيادة حاكم الاقليم earl ونظرا لأن الأحوال فى انجلترا كانت أكثر استقرارا عن القارة الأوربية ، فانهم كرسوا وقتا أطول لادارة شئون أراضيهم الزراعية ، والمساهمة فى أعمال منطقتهم الريفية ، ومحاكم المائة ووقتا أقل بالنسبة لزملائهم من

المقاتلين فى فرنسا ، وجعلت تلك الظروف منهم مواطنين على قدر من تحمل المسئولية والثقة بهم على الرغم من أنهم لم يكونوا على قدم المساواة فى المقدرة القتالية مع الفرسان ، الذين انضموا الى الكونتات والأدواق الذين ساعدوا وليم فى موقعة هيستنجز •

على أن الغالبية العظمى التى كونت جيش هارولد كانت من فئة سكان الريف الذين يعملون فى الفلاحة • وفى فترة ما ، فى القرون السابقة ، كان من واجب كل رجل قوى البنية أن يحمل السلاح ، كلما دعت الحاجة • على أن التغيرات التى بدأت فى عهد الفريد الكبير Alfred the Great حولت تدريجيا نظام قوات المقاومة الشعبية Fyrd الى جماعة من الجند منتقاة ، وفى عهد ادوارد المعترف لم يتم سوى اختيار فرد واحد من بين كل خمسة أفراد للعمل فى الخدمة العسكرية لفترة محددة • وفى ذلك الحين أصبحت عادة أسرع المزارع التى تشغل مساحة قدرها خمس هايدات Five hides والهـــايد مائة وعشرون هيــكتار ، وهى مســاحة تكفى من الناحية النظرية لاعالة أسرة زراعية واحدة — أن تقدم أحد أفرادها ، وأن تزوده بكل ما يحتاجه من سبل الاعاشـــة • ومن الممكن أن هؤلاء الفلاحين كانوا يختارون أقدر الأعضاء ليمثلهم اذا كان راغبا فى ذلك • واذا لم يكن هناك أحد راغب فى الخدمة العســـكرية ، فان عليهم أن يستأجروا أى شخص من خارج الأسرة ليتقدم للخدمة العسكرية •

وعلى الرغم من أن عصرنا الحديث بل تمسكه بالتخصص والتدريب يعجب لكيفية عمل مثل أولئك الجند الجدد الذين افتقروا الى التجربة فى ميدان القتال ، ففى عهدهم كانت الفضائل التى تعتمد عليها الغالبية تتمثل فى القوة العضلية ، والبراعة العقلية واليدوية ، وكذلك الدوافع الشخصية • ومن المحتمل أن الجنود المشاة التابعين لوليم لم يكونوا أكثر اعدادا أو أكثر مهارة قتالية من جنود هارولد • وحيث أن الكثير منهم كانوا من الجند المرتزقة ، ولم يكونوا يدافعون عن وطنهم أو بلادهم ، فللمرء أن يتوقع أنهم لم يكونوا على مستوى السكسون Saxons • ومن الجدير بالذكر أن وليم كملك لانجلترا لم يقم بالغاء نظام قوات المقاومة الشعبية Fyrd على الرغم من عدم وجود شبه له فى نورماندى • وبالاضافة الى المحاكم الادارية والمؤسسات الانجلو سكسونية الأخرى التى أبقى عليها وليم ، فانه شعر أن نظام قوات المقاومة الشعبية له مزايا حقيقية • واتضح أنه على صواب عندما ساعدته قوات المقاومة الشعبية فى القضاء على ثورة سنة ١٠٧٥م • وبالطبع فان قوات المقاومة الشعبية هى التى ساعدت فى القضاء على الجيش النرويجى فى موقعة جسر ستامفورد •

ان احدى الحقائق الملفتة للنظر والتى يكشف عنها تاريخ فن القتال هى التشابه الملحوظ فى الأسلحة وأساليب القتال بين كل من الطرفين المتقاتلين بل ان الرومان المفاخرين بأنفسهم ، والذين رفضوا الفترة طويلة تدريب الخيالة لاستخدامهم فى حروبهم ، وجدوا أن من الحكمة أن يطلبوا من حلفائهم ، أو من القوات المرتزقة تغطية احتياجاتهم عندما واجهوا عدوا كان يقاتل على ظهور الخيل • وفيما يتعلق بالأسلحة والملابس الحربية ذات الدروع ، لم تشهد معركة هيستنجز عن ذلك • فأقوى محارب مدرب تدريبا جيدا فى كل من الجانبين المتقاتلين كان يلبس قميصا ذا دروع تتكون من حلقات معدنية حديدية ويصل الى الكوعين والركبتين ، وسماه الانجليز برنى byrine ، وسماه الفرنسيون هوبرك haulberk اوستخدم الجنود فى كل من البلدين غطاء للرأس والعنق أو خوذات مخروطية ، لها امتداد مدبب فى حافتها لحماية الأنف • وارتدى عدد قليل الطماق المدرع (كساء معدنى لحماية الساقين) (*) وبالنسبة للأسلحة فانهم كانوا يحملون حربة ، وسيفا ، ورمحا ، وبلطة ، وقضيبا معدنيا شائكا لكسر الدروع وسيفا ثقيلا ذو نصلين حادين • ويحمون أنفسهم بتروس شكلها على مثال الطائرات المصنوعة من الورق ــ كانت مغطاة بالجلد ومصنوعة من الحديد ، أو البرونز ، أو الخشب ــ ومستديرة فى أعلاها بالنسبة للتروس الانجليزية • واذا كانت التروس تحمل علامات مزخرفة فانها كانت تشير الى شخصية ما ، أو عائلة ما • وبالنسبة لاودو Odo أسقف مدينة بايو Bayeaux فيقال أنه ظل يجرى هنا وهناك ، فى ميدان القتال أثناء معركة هيستنجز ، ولم يكن يحمل سيفا أو بلطة ، وانما هراوة ، اذ كان محرما على رجال الكنيسة اراقة الدماء •

وعلى الرغم من التشابه العام فى الأسلحة والدروع التى استخدمها ولبسها المحاربون الانجليز والنورمان ، فان هناك نقطتى خلاف واضحتين تتطلبان التعليق • فالملاحظة الاولى الأكثر أهمية هى دور الحصان • اذ اعتاد الانجليز استخدام مطاياهم للوصول الى ميدان المعركة • وهناك يترجلون ويحاربون دون استخدام الخيول • أما النورمان فانهم مارسوا الطريقة التى صارت شائعة فى القارة الاوربية ، وحاربوا وهم على ظهور الخيل • على أن القدرة الأكثر على الحركة والتحمل قابلتها ميزة أقل ، اذ أن خيولهم كانت تفتقر الى الدروع الواقية • فقد قتل الانجليز ثلاثة خيول كان وليم يمتطيها • أما الفرق الثانى المهم فهو استخدام السكسون للبلطة الحربية الدانمركية ذات المقبض الطويل • وهى السلاح الذى

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

استخدمه الفايكنج ابان اغاراتهم التى قامت على السلب والنهب • وظلت تلك البلطة تثبت تفوقها كسلاح تدميرى ، اذا ما استخدمها سكسونى قوى ببراعة ضد فارس نورمانى ومطيته •

كان المشاة فى الجانب الانجليزى ، وكذلك الجانب النورماندى يحملون الأقواس والسهام ، بالاضافة الى السكين والخنجر • ويتحدث المؤرخون المعاصرون عن أناس استخدموا القوس والنشاب ، على الرغم من عـدم ظهورهما فى قطعـه القماش المطرزة Bayeaux Tapestry • ولقد أحضر بعض الجنود من المشاة أسلحتهم بمعرفتهم ـ اذ قاموا بصنعها ـ فى الوقت الذى تم تزويد الآخرين بها كما تحكى قطعة القماش المطرزة • ومهما كان مصدر تلك الأســلحة فانها كانت تفتقر الى دقة التشكيل والتصنيع التى تتميز بها طريقة التصنيع الحديثة • وينطبق نفس الافتقار الى التشكيل الجيد على كل مظاهر الحرب فى العصور الوسطى ابان القرن الحادى عشر ـ واذا كان جندى المشاة محظوظا فانه كان يضع خوذة على رأسه ، أو يرتدى قميصا به دروع ، على الرغم من أن معظم المقاتلين اعتمدوا على الصدرة المصنوعة من الجلد ، والتى غالبا ما كانت مبطنة ، لحمايتهم من السهام • وتفوق جيش وليم بوجود رماة للسهام أكثر من عددهم فى جيش هارولد وهى اضافة مهمة لصالح النورمان فى رأى بعض المحللين •

لقد دارت رحى معركة هيستنجز فى أرض قفراء نسبيا ، ويحدد المؤرخ الأنجلو سكسونى مكان المعركة بوجود « شجرة تفاح رمادية » ، فوق تل فى الهضاب التى تبعد حوالى ست كيلو مترات شمال مدينة هيستنجز • ولم تكن تلك المنطقة هى التى اختارها هارولد لاستخدام القوة لحسم الموقف بينه وبين وليم • وانما كانت المكان الذى توقف فيه فى مساء الثالث عشر من أكتوبر ومعه رجاله بعد أن هرعوا من لندن الى هناك ، حيث وصلوا فى غاية الاجهاد والانهاك • وربما قرروا الاستراحة فى تلك الليلة ومباغتة معسكر وليم فى اليوم التالى • ورأى معظم المؤرخون أن هارولد لجأ الى الأسلوب نفسه الذى اتبعه مع النورونجيين فى موقعة جسر ستامفورد عندما أسرع تجاه وليم محاولا مباغتته • ومع ذلك ، فهناك احتمال أن يكون اسراع هارولد تجاه الجنوب كان يهدف الى عدم تمكين وليم من تخريب الاقليم ، الذى كان به معظم اقطاعات هارولد • وربما قامت قوات هارولد الاستطلاعية بتحذيره من التعداد الخطير لجيش وليم ، وربما انتظر وليم لاستكمال وصول التعزيزات كما اتهمه كل الكتاب •

على أن الموقف الذى كان واضحا تماما ـ هو عدم اتخاذ هارولد موقف الهجوم • بل ان حولية الانجلو سكسونى تقول أن النورمان انقضوا فجأة

على الانجليز قبل أن يستيقظوا من نومهم ، على الرغم من صعوبة تصديق ذلك • وكانت لهارولد قوات استطلاعية ، وأصدقاء عاشوا فى المنطقة ، أمدوه بالمعلومات علاوة على أنه اذا كان وليم قد ظهر بطريقة لم يتوقعها أحد ، فكيف استطاع رجال هارولد أن يجدا الوقت الذى يجمعون فيه جذوع الأشجار ، ويقطعون الأخشاب الثقيلة والسميكة ، والأخشاب الخاصة بحظائر الأغنام ، والأبواب الخشبية ، والموانع المادية المشابهة لكى يدعموا الحائط الواقى الذى واجهوا به وليم وجيشه صباح الرابع عشر من أكتوبر؟ وليس هناك مجال لانكار موقف هارولد القوى • وكان هارولد على قطعة أرض خالية من الاشجار فى غابة بالقرب من حافة تل عرضه ستمائة ياردة واستفاد هارولد من وجود وديان ضيقة شديدة الانحدار على الجانبين• واستطاع هارولد أن يلقى بنظرة الى أسفل التل حيث كان على جيش وليم أن يصعد من مكانه حوالى مائتى ياردة حتى يصل اليه •

ولم يذكر الكتاب المعاصرون شيئا عن الطريقة التى نظم بها هارولد رجاله خلف السور الواقى الذى شيدوه ، ونعنى بذلك ، ترسا الى جانب ترس وكتفا بكتف ومن ناحية أخرى ، يبدو أن جيش وليم ، قسم نفسه الى الأقسام التقليدية ، القلب ويتكون من النورمان ، والميسرة ويتكون من البريتون Bretons والميمنة وكان يشار اليها ببساطة الجناح « الفرنسى » وكل قسم من تلك الأقسام تضمن بوضوح طليعة من الرماة بالسهام الرماحين ، ويتبعهم جنود من المشاة الثقيلى العدة ، ومعهم فرسان على ظهور الخيل فى المؤخرة •

وحوالى التاسعة صباحا دفع وليم طليعة جيشه تجاه سفح التل بقوة مفاجئة • وما أن وصل جنوده من المشاة الخفيفى العدة الى موضع فى تقدمهم على التل ، حيث شعروا أن سهامهم يمكن أن تكون لها فعالية ، حتى سددوا ضرباتهم • غير أن هذه السهام لم تحدث الا أضرارا بسيطة ، اذ كان العدو يختفى بقدر كبير خلف التروس ، والوسائل الدفاعية الأخرى ، وبعد ذلك بقليل أمطرهم الرماحون بقذائفهم • وفى ذلك الحين بدأ الانجليز يقابلون الهجوم بمثله ، وبكل شىء استطاعوا رميه أو قذفه ــ بالبلطات والرماح ، والأحجار المربوطة بالعصى ، والسهام ــ وفعلوا ذلك بحماسة شديدة لدرجة أن البريتون وهم ميسرة جيش وليم تحولوا الى حالة من الفوضى ، وارتدوا على أعقابهم تجاه أسفل التل • على أن حالة الهلع التى أصابت البريتون شجعت بعض الانجليز على الاسراع خلفهم الى سفح التل على أمل ابادتهم ، وهم فى حالة هروب على غير نظام •

غير أن وليم أدرك الطبيعة الحرجة للموقف ، فتحرك بسرعة بفرسانه للتصدى للانجليز لمنعهم من المطاردة · وهى مناورة لم ينتج عنها انقاذ البريتون من الكارثة فحسب ، وانما أوقعت عددا كبيرا من الانجليز فى شرك لم يستطع أحد منهم الافلات منه ·

وهذه الحادثة هى احدى التفاصيل القليلة عن المعركة التى قام المؤرخون بوصفها · وعلى الرغم من أن القتال استمر لمدة ثمان أو تسع ساعات ونعنى بذلك حتى ظهور الغسق ، وبسرعة شديدة ، فان القارىء ترك ليخمن ماذا حدث تماما · ومن المحتمل أن المعركة ، اتخذت صفة العراك الصاخب – صراع عنيف بين جماعات وأفراد فى تلاحم دون أدنى نظام وبشكل عام – ودار الجزء الأكبر من المعركة على سفح التل أمام السور الواقى الذى عبره المحاربون السكسون ، وانقضوا ليطبقوا على العدو من تحتهم عند قاع سفح التل · وفى بداية تلك المعركة سقط أخوا هارولد ·

أما وليم فقد كان يقاتل بحماس شديد لدرجة أنه استبدل ثلاثة من الخيول بعد أن قتلوا من تحته · وفى احدى مراحل القتال انطلقت صيحة أن الدوق قد قتل ، وهو تطور كان من الممكن أن ينهى مقاومة النورمان على وجه السرعة ، لأن قطعة القماش المطرزة يظهر بها وليم رافعا خوذته ، وينادى على رجاله ، بأنه مازال على قيد الحياة ·

وربما قال المؤرخون الفرنسيون فى مناسبات عديدة – ثلاث مرات وفقا لما ذكره المؤرخ وليم من بولتيه William of Potiers ان وليم استخدم التكتيك الحربى الخاص الانسحاب المخادع ، وذلك فى محاولة لتفسير عمليات الانسحاب النهائى التى قام بها النورمان · ثم شن وليم هجوما معاكسا تمخض عن نتائج مروعة بالنسبة للعدو عندما أساء الانجليز فهم الانسحاب ، واعتقدوا أنه هزيمة ، وتقدموا بعيدا جدا عن دفاعاتهم · وان كان بعض المحللين لا يوافقون على هذا الرأى · ودافعوا عن هارولد باعتباره محاربا محنكا للحد الذى لا يجعله يتعرض ثلاث مرات لنفس الخدعة الحربية ، ولا سيما أن الانجليز تمتعوا بموقف جيد بالنسبة لميدان المعركة ، من خلال سورهم الواقى · ويشك المحللون أيضا فى مقدرة وليم على تنفيذ مثل هذه المناورة الصعبة · وقبل البعض الآخر كلمات بواتيه Poitiers بالمعنى الظاهرى ، وأصروا على أن الجيش النورمانى كان منظما ، لدرجة تسمح له باجراء انسحاب مخادع · كما أن تقدم السكسون البطىء ، والحذر ، أمام السور الدفاعى الحصين ،

قد أمد وليم وفرسانه بوقت كاف لاعادة تنظيم قواته من المشاة « التى كانت منسحبة » من أجل معاودة الهجوم ·

وعندما أنهكت المعركة الجميع دون تحول حاسم ، لما بدأ الغسق يتخذ شكلا نهائيا ، ازداد وليم قلقا وترقبا الى حد كبير · فاذا لم يستطع وليم كسب المعركة قبل قدوم الليل ، فانه سيجد جيشه المنهك فى الصباح التالى فى مواجهة الانجليز المفعمين بالنشاط من بين الذين سيتم اختيارهم ابان الليل ويقال وعلاوة على ذلك أنه أصدر أمرا بشن هجوم عام أخير وكتب له النجاح · اذ انهار السور الواقى ، وزاد الطين بلة ، أن سقط هارولد قتيلا (٤) · وبرغم كل ذلك لم يتوقف القتال · وعندما تقهقر الانجليز وتفرقوا فى الغابة التى بدأ الظلام يخيم عليها ، استدار بعض المحاربين من أصحاب الاقطـاعات التى كان يمنحها الملك لهم housecarls وهاجموا النورمان الذين كانوا يطاردونهم وقتلوا عددا كبيرا من أشجع رجال وليم قبل أن يسارع ، باجبار العدو على الارتداد كلية · وفى النهاية ، كمـا عبر المؤرخ الانجلو سكسونى تعبيرا مناسبا ودقيقا ، « سيطر الفرنسيون على مكان المذبحة » (٥) ·

حددت معركة هيستنجز مصير انجلترا الانجلو ـ سكسونية · اذ لم يعرف القادة الانجليز ماذا يفعلون على النور · ذلك لأن مقتل هارولد أفقدهم الرجل الوحيد الذى قبلوه عن طيب خاطر · وأعلن حاكم ميركيا Mercia وحاكم نورثومبريا ، وبعض رجال الكهنوت بما فيهم رئيس أسـاقفة كانتربورى ، ورئيس يـورك ، موافقتهـم على اختيار ايثلنـج Aetheling حفيد أخى ادوارد المعترف أو أخته ، بيد أنهم فعلوا ذلك دون حماسة · ذلك لأن الشاب كان صغير السن ، ويفتقر للخبرة التى تؤهله للثقة ·

وأظهر وليم من ناحيته الدهاء الذى عرف عنه ، وكذلك قسوته · وتحرك أولا الى رومنى Romney ، ودفر Dover لكى يطمئن على خطوط المواصلات مع نورماندى ، ثم ذهب الى كانتربورى ، التى حالفها الحظ ، لنجاتها من غضبه · وعند ذهابه هاجم رجاله الأراضى مرات متكررة ، وقتلوا الرجال والحيوانات وأحرقوا المنازل ، وحظائر الخيول ، وأدوات الفلاحة وغيرها ، ولم يتركوا خلفهم سوى الأسى والخراب والدمار ز وبعد أن أحرق أحد طوابير جنوده سوثورك Southwark اتجه بجيشه غربا تجاه نهر التيمز Thames والى ولنجفورد Willingford حيث استسلم ستيجاند السكسونى Saxon Stigand ثم عبر وليم نهر التيمز ، وفى

الوقت الذى وصل فيه الى بركهامستد Berkhansted فى طريقه الى لندن ، حضر اليه القادة السكسون الآخرون بما فيهم ادجار Edgar وهم على استعداد لأداء يمين الولاء له · وفى يوم عيد الميلاد ، وبعد مرور عام تقريبا على تتويج ايلدرد Ealdred رئيس أساقفة يورك للملك هارولد فى دير وستمنستر ، قام أيضاً بوضع التاج على رأس وليم الفاتح ·

٥ ـ معركة حطين

اختتم ، وليم رئيس أساقفة صور ، وأكثر المؤرخين أهمية في القرن الثاني عشر تاريخه عن مملكة بيت المقدس ، بتعليق موقع للكآبة في النفس وموهن للعزيمة • اذ كتب سنة ١١٨٤ م ، عن المسيحيين في سوريا ، « ان كوارث هذا الشعب المغلوب والذى تعددت بلاياه هي الموضوعات الوحيدة التي فرضت نفسها » (١) والواقع أن وليم كان لديه المبرر الذى جعله متشائما • اذ لم يكن الشقاق السياسي المتزايد الذى مزق شمل المسيحيين القلائل الذين اتخذوا من سوريا وطنا لهم ، أو اتفاق العالم الاسلامي تحت قيادة صلاح الدين الملهمة من الأمور الخافية • وكانت الامارات الصليبية في خطر شديد • فبعد ذلك بسنوات ثلاث ، وفي الرابع من يوليو سنة ١١٨٧ م ، ثبت صحة هواجس وليم السوداء ، عندما هزم صلاح الدين والمسلمون الصليبيين هزيمة نكراء • وفي الثاني من أكتوبر ، استسلمت بيت المقدس لصلاح الدين وصارت مملكة بيت المقدس أثرا بعد عين •

والواقع أن وضع المسيحيين كان خطيرا عندما كتب وليم تعليقه المنذر بالسوء سنة ١١٨٤ م ، على الرغم من عدم استحالة تغيير هذا الوضع • ولولا ثقة المرء في قدرات المؤرخ على وضوح الرؤية ، لكان من الممكن ايجاد مبررات تتعلق بصحته العليلة بأنها كانت سببا في تشاؤمه ـ اذ مات بعد ذلك بوقت قصير ـ وربما كان يعاني من الشعور بالمرارة الذى لازمه نتيجة لتنصيب هرقل بطريرقا لبيت المقدس برغم عدم استحقاقه لهذا المنصب ، منذ أربع سنوات قبل وفاة وليم ، في حين كان وليم تواقا لشغله •

عاني المسيحيون من الأزمات قبل سنة ١١٨٤ م ونجحوا في تخطيها • وعلى الرغم من أن معركة حطين كانت كارثة من النوع الفريد ،

فان ما جعلها أشنع مأساة ، بكل ما فى الكلمة من معنى ، هى حقيقة أنه لم يكن هناك حاجة قط لخوضها • ولولا اللحظة الفاجعة التى تقدم فيها جوى Guy ملك مملكة بيت المقدس باقتراحه الاهوج ، لاستطاع المسيحيون الاستمرار فى سياستهم الناجحة بصفة عامة فى تجنب المعارك الكبرى مع العدو ، الى أن تنهار الجبهة المتحدة التى أوجدها صلاح الدين • وفى تلك الحالة ، لم يكن العالم يعرف شيئا عن صلاح الدين ، أو عن ريتشارد قلب الأسد ، أو الحملة الصليبية الثالثة التى أوصلت هؤلاء الرجال جميعا الى الشهرة ، بل ربما لم يسمع العالم عن الحملات الصليبية التالية • ولتقلصت الفكرة الشديدة عن الحروب الصليبية فى غرب أوربا الى حد كبير • تلك الاعتبارات هى التى بررت اعتبار معركة حطين على أنها أحسم المعارك التى حدثت طوال عصر الحروب الصليبية •

وبدأ عصر الحروب الصليبية فى أواخر صيف سنة ١٠٩٦ م ، عندما احتشد الفرسان المسيحيون فى القسطنطينية ، استجابة للدعوة الملحة التى وجهها البابا أوربان الثانى لشن حرب مقدسة ضد المسلمين • اذ ألقى البابا أوربان الثانى خطابا طويلا ورنانا ومنعما بالتوبيخ والتعنيف على مستمعيه مركزا على سوء معاملة الحجاج الى الأراضى المقدسة ، والتى كانت فى ذلك الحين تحت قبضة المسلمين ، وذكرهم بأن أرض الكتاب المقدس « أرض الحليب والشهد » ترقب استردادها • ومن القسطنطينية شق الصليبيون طريقهم بالنضال والكفاح ببطء عبر الأماكن الشاقة فى آسيا الصغرى وسوريا • وبعد النجاة من كارثة محدقة تقريبا فى مناسبات عديدة ، حققوا هدفهم فى النهاية فى الرابع عشر من يوليو سنة ١٠٩٩ م ، عندما استولوا على بيت المقدس •

وبلغ عدد المحاربين الذين شاركوا فى هذه الحملة الصليبية حوالى ثلاثين ألفا (الكلمة اللاتينية للصليب Crux ، والتى جاء منها كلمة صليبى Crusade) • وفى هذه الحال ، كانت الاستجابة للدعوة البابوية كبيرة • اذ كان تعداد سكان أوربا قليلا ، والمنطقة لاتزال تعيش فى العصر الاقطاعى وكانت فترة من الفوضى النسبية عندما اهتم جماعة من النبلاء الأقوياء ، والذين امتلكوا الاراضى والمهتمين بزيادة ثرواتهم قبل كل شىء ابان سيطرتهم على أوربا سياسيا واقتصاديا • ولولا أن أواخر القرن الحادى عشر كان مفعما بروح حركة الاصلاح الدينى والانبعاث الروحى ، لاثارت دعوة البابا أوربان قليلا من الحماسة •

ومع ذلك لو أنه قد احتشد ضعف عدد المسيحيين الذين لبوا دعوة

أوربان لما كان هذا العدد كافيــا للتصــدى على الاطلاق للاعداد الهائلة للمحاربين الذين كان فى استطاعة العالم الاسلامى حشدها لو أنه كان عالما إسلاميا متحدا • بيد أنه لم يكن كذلك • اذ أن المسلمين فى سوريا ، والذين تحملوا الوطأة الكبرى للهجوم المسيحى ، لم يتلقوا سوى مساعدة ضئيلة من المسلمين فى بلاد ما بين النهرين أو من مصر • والمحصلة كانت أنه بحلول سـنة ١١٠٩ م ، كان الصليبيون قد اقتطعوا من العــالم الاسلامى أربع مناطق لأنفسهم على امتداد ساحل البحر المتوسط بما فيها مملكة بيت المقدس الى الجنــوب ، واقليم طرابلس ، وامارة أنطاكيــة القريبة من الشاطئ ، واقليم الرها فى أقصى الشمال والمحاذى لارمينيا تقريبــا •

وما ان صار بيت المقــدس تحت قبضــة الأيدى المسيحية حتى عادت الغالبية العظمى من المسيحيين الى أوطانهم فى أوربا • ومن يمن طالع حــكام الامارات المسيحية الصغرى الذين تركوهم من خلفهــم ، وكذلك سيطرة هؤلاء الحكام على أجزاء من العــالم الاســلامى الشاسع الأرجاء أن مجموعة الدول الاسلامية ظلت منقسمة على نفسـها ، كما كان الحال من قبل • وكانت هناك حوادث متماثلة عندما عقد شيوخ القبائل المسلمون تحالفا مع الامراء المسيحيين ضد المسلمين الآخرين ، وفى بعض الأحيان أيضا تحالف المسيحيون مع المسلمين ضد المسيحيين الآخرين • وكتوضــيح لعدم وجود هذا الاتحــاد ، استطاعت الامارات الصليبية الاعتماد ، فى العادة ، على سياسة الحياد ، اذا لم يكن فى استطاعتهم التعاون مع أمثال امارتى دمشق وحلب ، نظرا لأن هاتين الامارتين اعتبرتا الخليفة فى بغداد أشد خطورة على حكمها الذاتى من المسيحيين •

وعقب فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ ـ ١١٤٩ م) ، تنبه أقل الامراء المسـيحيون اتساما بالتبصر ، والذين ربما أدركوا ادراكا كاملا ضعف مركزهم الى ضرورة مصادقة المسلمين وكان سقوط امارة الرها سببا عجل بحدوث هذه الحملة الصليبية ، وأخذ كل من لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث Conrad III ملك المانيا ، على عاتقيهما مهمة انهاء ماكان يخشاه العالم المسيحى من بداية الهجوم الاسلامى الذى استهدف اقتلاع جذور الامارات الصليبية • غير أن كونراد فقد جيشه فى آسيا الصغرى ، فى حين حقق لويس نجاحا طفيفا • وعندما كتب على هذه الحملة الصليبية الفشل الذريع ، هاجـم المسيحيون دمشق الذين ارتبطوا معها بعلاقات ودية ، فى هجوم غير محكم • وكان الهجوم خاطئا وفاشلا ، بالرغم من أنه أعطى للمسيحيين درسا مفيدا ونعنى به ، أن استمرار تفكك العالم الاسلامى هو أفضل الآمال لبقاء المسيحيين •

وظهرت عوامل أخرى غير تفكك العالم الاسلامى ساعدت الامارات المسيحية على الاحساس بالأمل فى التصدى لهجوم المسلمين • وهو حضور الصليبيين الجدد كل عام • ففى غضون ١١٠٠ ـ ١١٠١ م وصل الى القسطنطينية ثلاثة « جيوش » فى طريقهم الى بيت المقدس • وكما حدث ، فلم يصل أى من تلك الى الجيوش أبعد من أناطوليا Anatolia حيث أصيبوا بالاخفاق ، بيد أن بعض الجماعات المسيحية وصلت الى سوريا ، وبصفة خاصة عندما تولت المدن الايطالية دور القائمين بنقل الحملات الصليبية وتوصيلها الى المدن المسيحية المحصنة على امتداد الشاطىء • وفى سنة ١١٠١ م وصل أسطول من جنوه الى ميناء حيفا محملا بالرجال والعتاد • وفى العام التالى وصلت مائتى سفينة من انجلترا بها الكثير من القوى البشرية المطلوبة • وحدث عندما كان الموقف حرجا أن أجبر الحجاج على الانضمام الى المقاتلين بالرغم من أنه لم يكن فى نيتهم القتال • وحدث هذا عام ١١٨٣ م ، أى قبل معركة حطين بأربع سنوات ، عندما قام صلاح الدين بهجومه الكبير على مملكة بيت المقدس • وعاما بعد عام ظل القساوسة والرهبان يذكرون المؤمنين بواجبهم فى مساعدة الحرب الصليبية بالرجال ، والمال ، واستجاب الحجاج والمحاربون كل عام لتلك الدوافع الملحة التى مارسها القساوسة والرهبان بكل قوة وعزم •

وثبت أن دور المدن الايطالية كان حاسما بالنسبة لبقاء الامارات الصليبية • اذ أن تلك الامارات كانت تفتقر الى الأساطيل التابعة لها ، فى حين كانت السفن البيزنطية فى الصورة بين الحين والآخر ، لأن الامبراطور البيزنطى كان فى حاجة اليها فى أماكن أخرى ، فى العادة • ومن أجل الوفاء بحاجات الصليبيين للسفن ، قدمت المدن الايطالية خدماتها • وكانت البندقية ، وجنوة ، وبيزا أكثر المدن الايطالية نشاطا ؛ كما كانت أيضا أكثر الجماعات المغامرة فى مجال زيادة نطاق التجارة التى حونت اقتصاد غرب أوروبا رويدا رويدا • وبالرغم من أن تلك المدن الايطالية المذكورة لم تفعل شيئا بشأن اقامة الامارات الصليبية ، فانها استغلت على الفور الفرصة الذهبية لصالحها فى زيادة عملياتها التجارية • والواقع أنهم لعبوا دور التجار ورجال الأعمال أولا ، ودور صليبيين ثانيا ، بيد أنه بدون مساعدتهم ، ما كان للصليبيين أن يحتفظوا بالأراضى التى سيطروا عليها الى مدى طويل •

ان السفن التى قدمتها المدن الايطالية مكنت الصليبيين من تجنب مخاطر الطريق البرى عبر آسيا الصغرى ، حيث تعرضت جيوش

مسيحية عديدة للفناء • وعمل قيامهم بالنقل البحرى على حل المشكلة الضخمة المتعلقة بامداد الصليبيين ، الذين أقاموا فى سوريا ، حيث نقلوا الأسلحة الحربية ، ومعدات الحصار • وأثبتت السفن الايطالية أنه لايمكن الاستغناء عنها فى عملية الاستيلاء على مدن المسلمين الحصينة على امتداد الشاطىء • بل أن الاستيلاء على مدينة بيت المقدس البعيدة عن الشاطىء سنة ١٠٩٩ م تم بسهولة بفضل وصول المعدات التى أنزلها أسطول جنوه فى مدينة يافا • وبعد كارثة حطين ، كان الاسطول الصقلى هو الوحيد الذى منع صلاح الدين من اكتساح طرابلس ، وانطاكية ، ابان موكب نصره فى أراضى سوريا •

ان الثمن الذى طلبته المدن الايطالية مقابل خدماتها كان باهظا • ففى مقابل تقديم سفنهم ومساعداتهم المالية ، فانهم حصلوا على امتيازات تجارية كبيرة تضمنت الحق فى الحصول على أحياء خاصة بهم بالمدن حيث أداروها كما لو كانت ملكا لهم • وفى سنة ١١٢٣ م حصلت مدينة البندقية على حى بكل مدينة فى مملكة بيت المقدس فى حين تمتعت كل من جنوه ، وبيزه بامتيازات مشابهة فى مدن أخرى • وقيدت تلك الامتيازات حركة الحكام فى ادارة شئون اراتهم ، بل حتى فى التعامل مع العدو ، طالما أن أهدافهم ، وأهداف أولئك الذين ينتمون الى المدن الايطالية ، فى حالة تعارض بصفة دائمة • وكان الايطاليون مهتمين بالتجارة بصفة أساسية ، بما فيها التجارة مع العدو ، وكانوا يعارضون أى سياسة من شأنها تعريض السلام للخطر • وكما حدث ، فان الأقلية المحدودة التى عاشت فى سوريا كانت فى العادة تطالب بسياسة السلام كطلب وحيد حكيم من الامارات الصليبية ، وهو نفس طلب المدن الايطالية بصفة عامة •

بل انه حتى فى الحالات الشخصية الخاصة ، لعب الذهب الايطالى دوره فى التأثير على مجرى التاريخ الصليبى • ويبدو للعيان توضيح لافت للنظر يتعلق بالخلفية التاريخية قبيل معركة حطين مباشرة • اذ وعد ريموند أمير طرابلس ، جيرارد من ريد فورت Gerard of Ridefort الذى كان مولعا بالترحل والمغامرات الفروسية فى انجلترا ، أن يزوجه أول وريثة غنية يمكن وجودها • وعندما مات دوريل Dorel السيد الاقطاعى من بوترون Lord of Botron ، قام ريموند Raymond باتمام زواج ابنة دوريل بتاجر ثرى من بيزا ، بدلا من أن يزوجها الى جيرارد ، بعد أن قدم اليه هذا التاجر البيزى ، ما يعادل وزن الفتاة ذهبا وفقا لما قيل فى حينه • واذا ما كانت هذه القصة الحقيقية،

فان ريموند لن يأسف على أى شيء أكثر من مجرد أنه حنث فى وعده الى جيرارد ، ومن ثم جنى على نفسه كراهية جيرارد الأبدية له · وترك جيرارد الخدمة العسكرية وصار فيما بعد رئيسا للرهبان الداوية Templers وفى الليلة السابقة على معركة حطين أقنع جيرارد ، جوى Guy ، ملك بيت المقدس أن يرفض الخطة الاستراتيجية السلمية التى تقدم بها ريموند ، وأن ينفذوا خطة مهاجمة صلاح الدين بدلا منها ، وهو الاقتراح الذى انتهى بنهاية مأساوية للمسيحيين وريموند ·

ومن المشكوك فيه ما اذا كان قد ثبت أى توال للاحداث له أهمية أكثر بالنسبة للامارات الصليبية فى جهودها لمقاومة المسلمين عن ظهور الفرسان الداوية Templers and Hospitallers ولكل من هذين النظامين العسكريين اتباعه فى شكل جماعات متحمسة دينيا من اجل مساعدة الحجاج عند زيارتهم الى مساعدة الحجاج عند زيارتهم الى الاراضى المقدسة · وبمرور الوقت اخذت هذه الجماعات على عاتقها تحمل مسئولية حماية الحجاج ، وتوقف هذا العمل التقليدى ، عندما أصبح هؤلاء الحماة محاربين على مستوى الكفاية · انهم قد أثبتوا أنهم أشجع المحاربين فى مواجهة العرب ، اذا لم تعد مهمتهم حماية الحجاج فحسب ، وانما امتدت الى محاربة المسلمين ، فى كل مناسبة وحتى الموت · واذا كان صلاح الدين قد سمح للأسرى بأن يفدوا أنفسهم أو أن يدفع الآخرون الفدية عنهم ، الا أنه لم يطبق ذلك على فرسان الدواية والاسبتارية · ونظرا لأنهم قد الزموا أنفسهم بالقسم أن يقاتلوا دفاعا عن اله المسيحين طالما كانوا على قيد الحياة ، لذلك فان صلاح الدين نفذ حكم الاعدام فى كل فرد من الفرسان الدواية والاسبتارية وقع تحت قبضة يديه ·

وشكل أعضاء هذين التنظيمين الجيش العامل الوحيد الذى كان فى استطاعة حكام الامارات الصليبية اللجوء اليه ، فى وقت المحنة أو الذى كان جاهزا لمقاومة بعض الجماعات المغيرة على المناطق الريفية · ونظرا لاعتماد الامارات الصليبية على تلك التنظيمات ، العسكرية ، فكان طبيعيا أن تتولى تلك التنظيمات مهمة قيادة ، وادارة الحصون القوية على امتداد حدود كل امارة ومن اليسير ادراك كيف صارت تلك التنظيمات تشكل عنصرا لاغنى عنه بمرور الوقت فى الحرب فى سوريا ولسوء الحظ ، غالبا ما حولتهم المنافسة المريرة الى أعداء ، على مثال المدن الايطالية · ومن أضعفوا أهميتهم أمام الحكام الصليبيين · وكانت التنظيمات العسكرية تابعة مباشرة للبابوية ، ولذلك خاضوا الحرب

كحلفاء ، لا كرعايا لملك بيت المقدس . وربما قام حكام الامارات الصليبية بمساواتهم مقابل تعاونهم على نفس الطريقة التى اتبعوها مع المدن الايطالية ..

ان ذكر الفرسان الداوية والاستبارية يعيد الى الذهن صور القلاع مثل قلعة الكراك للفرسان الفرنسيين Krak des Chevaliers التى حافظوا على سيطرتهم عليها ، وحشدوا بها أعضاءهم ، وضمت هذه القلعة المهمة ألفى مقاتل بالكامل ، ويشير هذا الى الأهمية الحيوية لتلك القلاع إبان عصر الحروب الصليبية . وكانت هذه القلعة تقع فى سوريا الشمالية حيث سيطرت على حركة سير القوافل من حمص وحماة الى بلاد ما بين النهرين . لذلك لم يكن فى استطاعة قافلة للمسلمين المرور ما لم تكن مصحوبة بقوة عسكرية قوية ، وذلك فى حالة الحرب . وينطبق نفس الشىء على قلعة كيراك Kerak القوية فى شرق الأردن جنوب البحر الميت ، والتى كان فى استطاعتها اعتراض سبيل القوافل بين دمشق ومصر .

وهذا يقدم لنا دورا مهما عن القلاع . اذ أن وجودها فى أماكن استراتيجية حيث سيطرت على حركة انتقال البضائع وشجعت المحافظة على السلام بين الجماعات المتعادية . وساعدت أيضا كمراكز ادارية لترسيخ دعائم الحكم المسيحى . وبفضل قيامها باحباط هجمات الجماعات العربية المغيرة ، فانها ساعدت على استعمار واستغلال المنطقة من الناحية الاقتصادية . وعلى الرغم من أن عدد هذه القلاع لم يكن كافيا ، وكذلك القوى البشرية بها ، فانهم حدوا من حرية جماعات المسلمين القليلة التى درت على مهاجمة المناطق الريفية . بل انه ربما تردد جيش كبير اذا مافكر فى المرور أمام قلعة قوية مالم يجد نفسه معرضا للمصاعب ، ومضطرا الى التراجع . وعلى الجانب المقابل ، أمدت تلك القلاع الجماعات الصليبية بمكان آمن عندما كانت الهزائم تجبرهم على التراجع أمام هجوم العدو .

وفى سنة ١٠٩٥ م عندما أعلن البابا أوربان دعوته أمام المجتمعين من رجال الكهنوت والاستقراطيين الفرنسيين فى كليرمونت Clermont من أجل خوض حرب مقدسة Crusade ضد (المسلمين) ، فانه فعل ذلك ردا على استغاثة وصلته فى العام السابق من الكسيوس كومنين Aiexius Comnenus الامبراطور البيزنطى . حيث طلب الامبراطور محاربين لمساعدته فى أناطوليا Anatalia ضد الأتراك السلاجقة ، الذين اجتاحوا الجزء الأكبر من هذا الاقليم بعد انتصارهم الذى جاء

بكارثة على الجيش البيزنطى فى موقعـة مانزيكيرت Maizikert سنة ١٠٧١ ٠ ان البابا هو الذى وسع دائرة الطلب الذى كان فى جوهره متواضعا من ناحية الامبراطور الى حركة واسعة المدى اشتملت على سبع أو ثمانى حملات صليبية ، وانضم اليها عشرات الآلاف من المقاتلين لمدة قرنين تقريبا قبل أن يتم طرد المسيحيين من بلاد شرق البحر المتوسط Levant ٠ ولم يكن الكسيوس يتصور شيئا بمثل هذا الطموح على الاطلاق ٠ اذ لم يكن هو أو من جاء بعده من أباطرة بيزنطيـة مهتمين ببيت المقدس والأراضى المقدسـة بدرجة اهتمامهم باقليم أناطوليـا وأنطاكيـة ٠

ومع ذلك لعب الأباطرة البيزنطيون دورا حيويا فى نجاح الحملات الصليبية اذ أن أسطولهم كان أقوى الاساطيل فى ذلك الجزء من البحر المتوسط ، وبرغم أن مصالحهم الامبريالية جعلتهـم يحتفظون بسفنهم قرب ديارهم فى العادة ، فانهم تعاونوا أحيانا مع الجهود الصليبيـة جنوبا حتى مصر ٠ ولولا ارتياب الصليبيين الراسخ فى الروافع الأساسية لبيزنطة ، بالاضافة الى أنانية هؤلاء الصليبيين ، لسجل تاريخ الصليبيين العديد من صفحات النجاح للمسحية ٠

حكمت القسطنطينية كلا من سوريا ومصر فى فترة تاريخيـة سابقة ٠ ونظرا لنجاح السادة الاقطاعيين الغربيين فى انتزاع المنطقـة الساحلية الشرقية من مجموعة الدول الاسلامية دون أن تقدم بيزنطـة مساعدة مباشرة ، لذلك فانهم ادعوا تبعية تلك الأراضى لهم ، برغـم القسم الذى أدوه من قبل أمام الكسيوس أن يفعل شيئا اقطـاعى أعلى لهم ٠ وفى ذلك الحين لم يستطع الكسيوس أن يفعل شيئا ليباشر حقوقه بالقوة ٠ وفيما بعد ، عندما واجهت الامارات الصليبية صعوبة فى الدفاع عن نفسها ، فلم يكن أمامها خيـار فى طلب مسـاعدة بيزنطة ونتيجة لذلك ، فان امارة انطاكية ، أقرب الامارات الى القسطنطينية ، كانت فى غالب الأحوال تعتبر اقطاعة تابعة للامبراطور ٠

وكان لوجود السلطة البيزنطية فى أناطوليا Anatolia ، وفى المنطقة التى تقع شرق فيليقية Cilicia أمرا خطيرا بالنسبة لوجود الامارات الصليبيه ٠ وقبل ابادة الجيش البيزنطى فى مايكريوكيفالون Mycriocephalon فى شرق أناطوليا Anatolia ، سنة ١١٧٦ م على يد الأتراك وهى الهزيمة التى قضت على بيزنطة كقوة عظمى فى تلك المنطقة ، لم يكن يشعر المسلمون فى الموصل بالحرية فى حشد قواهم

من أجل احتلال حلب ودمشق • وكانت هاتان المدينتان مفتاحا للسيطرة على شمال سوريا • وطالما ظل الحكام المسلمون مستقلين ، فانهم تعاملوا مع المسيحيين فى طرابلس ، وأنطاكية ، ومملكة بيت المقدس كامارات حاجزة عملت على حمايتهم من الهجوم المباشر من قبل الموصل وبغداد • وكان الجيش البيزنطى ، قبل كارثة ميكريوكيفالون يحافظ على توازن القوى من الناحية الواقعية بين الامارات الصليبية والمسلمين الذين تمتعوا بالحكم الذاتى فى حلب ، ودمشق ، الموصل • ان الهزيمة التى منيت بها بيزنطة فى مايكريوكفالون يمكن اعتبارها تطورا مهما أكثر من أى شىء آخر فى تتبع قصة السقوط النهائى لبيت المقدس على يد صلاح الدين •

والذى ثبت كعامل دائم فى تاريخ علو نجم الامارات الصليبية وأفوله كانت المقدرة الشخصية لحكامها • وربما يبدو هذا مدهشا طالما كان الملك أو الأمير سيدا اقطاعيا ، وكما كان الحال فى غرب أوربا ، يدير مملكة يدبر شئونها عدد من النبلاء الأثرياء أشباه المستقلين الى حد كبير • ونعم هؤلاء البارونات barons بحق استشارتهم فى كل الموضوعات المهمة تقريبا ، بل وحتى فى الموضوع المهم المتعلق بالخلافة حتى أنه اذا ماتبنى سيد « اقطاعى » سياسة يعارضها غالبية أتباعه اتهموه بالتهور والطيش • واذا كان هؤلاء الحكام خاضعين الوضع غير محدد المعالم على أطراف العالم الاسلامى ، الا أنهم كانوا أسعد حظا لتمتعهم بسلطة فاقت سلطة أبناء عمومتهم الاقطاعيين فى غرب أوربا • اذ كانت المسألة مسألة بقاء فى أغلب الأحوال لأنه مالم تتعاون الطبقة الارستقراطية مع سادتهم الاقطاعيين ، على الأقل فى فترات المحن ، فان ذلك سوف يجلب الضياع للجميع • وبسبب كبر مساحة مملكة بيت المقدس ، وحقيقة أنها تضم مدينة القدس ، فان ملك هذه المملكة مارس نوعا من السيادة الاقطاعية العليا على الامارات الصليبية الأخرى •

كان جودفرى من بوالون Godfrey of Bouillon أول حاكم لمملكة بيت المقدس عشية الاستيلاء عليها فى يوليو ١٠٩٩ م • وكان انجاز جودفرى الرئيسى هو الحاقه الهزيمة بجيش مصرى فى عصقلان • وهو النصر الذى ساعد على تقوية الحدود الجنوبية لمملكته • وعند موت جودفرى سنة ١١٠٤م خلفه شقيقه بولدوين Boldwin حاكم الرها • وحتى ذلك الحين كانت بيت المقدس تابعة للكنيسة من الناحية العملية • ولقد أثبت بلدوين الأول أنه لايقل مقدرة عن أخيه • اذ صد الهجمات العسكرية المصرية من الجنوب ، فى حين حقق وضعا قويا فى الشمال حتى اضطرت امارة حلب الاسلامية الى دفع اتاوة منتظمة له

اعترافابتفوقه عسكرية عليها • ويرجع الفضل الى ابنه بلدوين الثانى (١١١٨ ـ ١١٣١ م) فى الموافقة على وجود الرهبان الداوية Templars والاسبتارية Hospitallers وتشجيعهم على ممارسة دور المحاربين وذلك بأن عهد اليهم بالقلاع على امتداد الحدود الشرقية •

وخلفه الملك فولك Fulk كونت أنجو Anjou ، الذى تزوج من ابنة بلدوين الكبرى ، وفى ذلك الحين اتخذت السياسة الخارجية اتجاها مهما • وحتى هذه المرحلة شكلت كل من مصر فى الجنوب وحلب ودمشق فى الشمال تهديدات مستمرة لوجود المملكة • وبعد سنة ١١٢٨م ازداد تهديد وجود مملكة بيت المقدس خطورة • ففى تلك السنة استولى زنكى أتابك الموصل على مدينة حلب ، وفى السنة التالية ، استولى على حماه ، وهى مدينة كبرى فى شمال سوريا • وعلى ضوء ما حققه زنكى من نجاح لم تستطع كل من دمشق وبيت المقدس أن تتحملا البقاء فى حالة من العداء بصفة عامة حتى مجىء الحملة الصليبية الثانية التى جانبها التوفيق • ولم يتمخض الهجوم المسيحى على دمشق عن فشل ذريع فحسب ، وانما جعل هذه الامارة المسلمة ترتمى بين أحضان نور الدين ، ابن زنكى وخليفته ، وبذلك تفاقم التهديد لبيت المقدس من الشمال بدرجة خطيرة • وسعى الملك التالى ، بلدوين الثالث للرد على هذا التهديد بعقدة تحالفا مع الامبراطور فى القسطنطينية • وأفاد هذا التحالف مملكة بيت المقدس الى أن حلت الكارثة ببيزنطة فى موقعة مايكريوكيفالون سنة ١١٧٦ م •

كان من الممكن أن تكون وفاة بلدوين الثالث سنة ١١٦٣ م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره خسارة مأساوية لمملكة بيت المقدس لو لم يكن أخاه الأصغر عمورى الأول Amalric Amaruy) I قد برهن على أنه ملك موهوب لم يسبق أن شهدت مملكة بيت المدس مثيلا له • فمن بين انجازاته غير السياسية ، تعيينه وليم الصورى William of Tyre مؤرخا للبلاط الملكى ، اذ بدون حوليته الرائعة ، ما كان لنا أن نعرف سوى القليل جدا عن مملكة بيت المقدس ، والحملات الصليبية الأولى • واستمر عمورى الأول فى سياسة المحافظة على الصلات القوية مع الامبراطور البيزنطى ، الى حد قبول الوصاية على بيت المقدس • وتمخض هذا التحالف عن شعور خاطىء بالقوة دفع عمورى الأول ، والامبراطور البيزنطى الى محاولة غزو مصر • وكانت فكرتهم عن ثروة مصر الهائلة صحيحة تماما ، بيد أنهم أخطأوا الحسابات فيما يعتلق بتدهور أحوال هذه الدولة الاسلامية • وتمخض تدخلهم عن شىء واحد فحسب ، وهو

اضعاف مصر وفتح الباب لتدخل نور الدين ونائبه صلاح الدين الذى جعل نفسه حاكما على مصر بعد وقت قصير ٠

ثبت أن موت عمورى الأول سنة ١١٧٤ م كان كارثة مأساوية بالنسبة لمملكة بيت المقدس ٠ اذ ترك العرش الى ابنه الاصغر ، بلدوين الرابع ، الذى كان فى الثالثة عشر من عمره ، والذى لم يكن قاصرا فحسب ، وانما مصابا بمرض الجذام أيضا ٠ فمسألة خلافة العرش أزعجت عهد بلدوين بدرجة أدركها الجميع لمدة اثنى عشر عاما ٠ وكذلك مسألة الوصاية على العرش ، لأن بلدوين ظل قاصر لمدة عامين ، وبعد ذلك تطلب الأمر ملكا بدلا منه ، ابان فترات اشتداد المرض ٠ وكان ريموند الثالث Raymond III ، كونت طرابلس الوصى الأول على العرش ، الذى أثبت أن اختياره كان موفقا ٠ فعلى الرغم من أن تاريخ حياة ريموند قد سجل تقييمات متباينة ، فانه برز من بين القادة الصليبيين لعصره ، على أنه أحد الذين كانوا على استعداد للاعتراف بحتميه تحقيق قدر ما من التوافق مع العرب ٠ ووصفه وليم الصورى بأنه كان ، « رجلا مخيفا الى حد ما ، ومتوسط الطول ، وقسمات وجهه تشبه العقاب ، ولون بشرته داكنا ، وشعره أملسا وداكنا ، وبصره حادا، وكان عريض المنكبين » ٠

وميز حادثان لهما أهمية قصوى السنوات الأولى من عهد بلدوين الرابع ٠ الحدث الأول هو القضاء على الجيش البيزنطى سنة ١١٧٦ م ، فى مايكريوكيفالون ٠ وأبعدت هذه الهزيمة السلطة البيزنطية كعامل فى سوريا ، وبذلك حرمت مملكة بيت المقدس بطريق غير مباشر من حليف أساسى ٠ أما الحدث الآخر ، فقد حدث فى العام التالى ، ١١٧٧ م ، عندما منى صلاح الدين بهزيمة مريرة عند مونت جيزارد Mont Gisard الى الجنوب والغرب من بيت المقدس ٠ وفى ذلك الحين نجح صلاح الدين فى السيطرة على دمشق وسوريا الشمالية ، وأرسل جيشه الكبير لمهاجمة المناطق الريفية التى ليس بها دفاعات ، وكذلك القرى الواقعة بين بيت المقدس والشاطىء ، على أمل استدراج الصليبيين للدخول فى معركة ٠ ومن حسن حظ الصليبيين أن بلدوين الرابع رفض المعركة ، بيد أنه ما أن تبعثر جيش صلاح الدين فى عملياته القائمة على الغزو حتى أعطى بلدوين الرابع أوامره بالهجوم ٠ فكانت النتيجة أن تحطمت قوة العرب ، وهروب صلاح الدين المفاجىء الى مصر ٠ ولولا استخدام صلاح الدين جملا سريعا حمله الى مصر ، لتغير تاريخ الحروب الصليبية٠ والواقع أن العالم الاسلامى ظهر به رجال قلائل مثل صلاح الدين الذين كانوا قادرين على تحقيق التعاون بين الحكام المنشقين على أنفسهم ضد المسيحيين٠

كانت هزيمة صلاح الدين عند مونت جيزرد احدى فترات البهجة والسعادة فى عهد بلدوين الرابع الذى اتسم بالحزن . واذا كانت حالة بلدوين قد تدهورت بتزايد المرض عليه ، فان الموقف السياسى للملكة تدهور أيضا . فلكى يكون هناك وريث للعرش من بعده ، فانه زوج سيبيل Sibyl ، شقيقته الكبرى الى جوى من لوزيجنان Guy of Lusignan ، الذى كان وافدا جديدا من فرنسا ، وكان كونتا لمدينة يافا ، ومدينة عسقلان باعتباره أحد الأتباع الاقطاعيين الأقوياء للملكة . وعندما فقد بلدوين بصره ، عين جوى وصيا على العرش . غير أنه عزله بعد عام بسبب عدم صلاحيته وتكبره ، وعين ريموند أمير طرابلس بدلا من جوى ، ولكى ينهى وراثة سيبيل للعرش ، وكذلك جوى من خلالها ، فانه قام بتتويج ابن سيبيل من زوجها الأول (وليم من مونتفنيرات William of Montferat) اسم بلدوين الخامس . بيد أن الصبى مات فجأة ، بعد موت بلدوين الرابع وعندئذ نفذت سيبيل وجوى مؤامرة مع ريجنالد من شاتيلون Reginald of Chatillon ورؤساء المنظمات العسكرية ، والبطريرك هرقل . وقاموا جميعا باقرار سيادة البارونات الأخرين على بيت المقدس وكذلك ريموند من طرابلس ، لكى يمكن تتويج سيبيل وجوى ملكا وملكة . بيد أن ريموند رفض البيعة الاقطاعية ، وذهب الى مدينة طبرية .

ولم يكن يأمل صلاح الدين مثل هذه الفرصة المواتية لمهاجمة مملكة بيت المقدس فى هذا الوقت من الشقاق المرير بين القادة المسيحيين ، اذ أنه كان يتطلع لى مثل هذا الأمر . وكان على أهبة الاستعداد ، وكان صلاح الدين قد قام بتكملة بعث مجموعة الدول الاسلامية الذى بدأه زنكى فيما بين ١١٢٧ – ١٢٢٨ م ، عندما أقام حكما مبينا على السيطرة على حلب ، وحوران ، والموصل . وفيما بعد أجبر زنكى امارة الرها على قبول سيادته سنة ١١٤٤م ، بيد أن الاغتيال أنهى حياته . وأكمل ابنه نور الدين من حيث انتهى والده . فاستولى على دمشق ، وأجبر الأمراء المسلمين شبه المستقلين فى شمال سوريا على الاعتراف بسيادته ، واجتاح أجزاء من امارة انطاكية التى تقع شرق نهر العاصى . وعندما طلب شاور ، الوزير المصرى الذى كان يناضل من أجل السيادة ، المساعدة من نور الدين ، أرسل اليه جيشا بقيادة شيركوه الكردى ، ونجح شيركوه وعين شاور وزيرا ، بيد أنه قتله بعد وقت قصير وتولى الوزارة صلاح الدين فى مارس ١١٦٩م .

كان صلاح الدين أشهر قادة الأمة الاسلامية فى القرن الثانى عشر، ونشأ فى مدينة بعلبك حيث عين زنكى والده حاكما . وخدم صلاح الدين

فى بيت نور الدين وفيما بعد ذهب مع عمه شيركوه الى مصر • وما أن صار صلاح الدين وزيرا فى مصر حتى عمل على بناء قوة هذا البلـــد العسكريه ، وامتدت سلطته سريعا على شبه الجزيرة العربية واليمن • وفى سنة ١١٧١م قضى على الحكم الفاطمى الذى افتقر الى المقدرة فى مصر ، وأمر بالدعاء فى المساجد للخليفة العبـاسى فى بغـداد ، وبذلك أعاد الوحدة المذهبية فى مصر وآسيا على المذهب السنى • وفى سنة ١١٧٤م نعم بقدر كبير من الحظ السعيد عندما مات نور الدين تاركـا خلفه ابنا وحيدا فى الحادية عشر من عمره • فسارع صلاح الدين شمالا، وتزوج أرملة نور الدين ، وسيطر على سوريا • وفى سنة ١١٨٥ م أجبر الخليفة العباسى فى بغداد على الاعتراف به سلطانا على العالم السنى • وفى ذلك الحين أصبح قادرا على القضاء على مملكة بيت المقدس وكذلـك الامارات الصليبية الأخرى •

وقبل أن نتابع حسن طالع صلاح الدين وسوء طـــالع الامارات الصليبية حيث وصل هذان الجانبان الى الذروة عند موقعة حطين ، فانه من المفيد أن ندرس مواطن القوة العسكرية الذاتية ومواطن الضعف عند الخصمين • ان المشكلة الأساسية التى واجهت الامارات الصليبية فى جهودهم للدفاع عن أنفسهم ضد هجوم المسلمين كانت النقص فى القوى البشرية ، فقليل من الأسر بخلاف طبقة النبلاء تركت أوربا للاستيطان فى الشرق ، ومن بين هذه الأسر عـدد قليل من الرجال كان قد جـــاء الى الشرق • وظل هؤلاء المسيحيون الوافدون يمثلون أقلية صغيرة بين عدد الأصليين الكبير • وكانت عناصر الغالبية من المسلمين والعرب • وتحت الحكم المسيحى كانوا ايجـــابيين معظم الوقت ، بالرغم من أن سلوكهم كان يحمل ترقب ظهور كارثة • وكان من المؤكد الا يتوقـــع قيامهم بتقديم مساعدة ضد أى هجوم من قبل المسلمين •

ولا يمكن قول أكثر مما قيل فيما يتعلق باليونانيين والسوريين المسيحيين الذين عاش أجدادهم فى تلك البلاد قبل ظهور الاسلام • ولقد عاشوا فى اطمئنان تحت الحكم الاسلامى اذ دفعوا ضرائب بسيطة ، ومارسوا معتقداتهم بدون تدخل ونظرا للعلاقـــات الودية بينهم وبين حكامهم المسلمين ، فانهم لم يرحبوا بقدوم الغربيين بأى حمـــاس ، واعتبروهم أدنى منهم من الناحية الثقافية بالاضافة الى أنهم يمثلون طائفة مذهبية منشقة • أنهم ساعدوا الصليبيين على مضض • أما فيما يتعلق بطرد الصليبيين ، فانهم لم يحركوا ساكنا لمنع المسلمين •

وفى هذه الحال كان على الامارات الصليبية والقادمين لها من الغرب

الاعتماد على أنفسهم بصفة أساسية لمواجهة التهديد الاسلامى • وقدمت تنظيمات الرهبان العسكرية عنصرا كبيرا للقوة • والمساعدة الاخرى جاءت من التدفق المستمر للمحاربين القادمين من أوربا • ومن حين الى آخر قدم الحجاج المساعدة • وفى بعض المناسبات كان من امكن القضاء على تلك الامارات لولا تعاون المدن الايطالية •

على أن كثر المصادر التى أمكن الاعتماد عليها لتقديم المحاربين كان يتمثل فى الطبقة الارستقراطية الاقطاعية التى تسيطر على الأرض وفى مملكة بيت المقدس كان أكثر هؤلاء أهمية السادة الاقطاعيون للبارونيات الأربع الكبرى لتى انقسمت اليها المملكة • وكان يتبع كل بارون مائة فارس • أما الفرسان المستقلون المسئولون عن الحماية المباشرة للملك ، قدموا خدمات شخصية • وقدمت الجماعات المسيحية الكنسية والمدنية نصيبا من المحاربين الذين كان بعضهم من الفرسان والغالبية من الرجالة • ومن الناحية النظرية كان لدى ملك بيت المقدس ألف من الخيالة، وحوالى عشرة آلاف من الرجالة • بل أن هذا العدد النظرى كان قابلا للانخفاض ابان هجمات نور الدين وصلاح الدين على الاطراف الشرقية للمملكة أو عندما تعرضت تلك المناطق للاغارات التخريبية •

واضطر الصليبيون الى استخدام الجند المرتزقة لتعويض النقص فى القوى البشرية • فعلى سبيل المثال قبل معركة حطين مباشرة ، وفى سنة ١١٨٣م ، فرض ملك بيت المقدس ضريبة لجمع المال لاستئجار القوات المحاربة مقابل راتب • وفى الاوقات العادية استفاد ملك بيت المقدس من المبالغ المستمرة من الاموال التى اعتادت الجماعات المؤمنة بالقرب على ارسالها ، ومن الذين لم يكن فى استطاعتهم المجىء شخصيا ، لذلك رغبوا فى أن يكون لهم نصيب فى النعم الالهية الخاصة التى وعدتهم بها الكنيسة عن طريق هذه الوسيلة غير المباشرة • وفى الثمانينات من القرن الثانى عشر قدم هنرى الثانى مبلغا كبيرا من المال تكفيرا من مشاركته فى مقتل توماس بيكيت Thomas Becket

وفى وقت الضرورة الملحة لجأ الامراء الصليبيون الى محاولة أخيرة وهى اعلان التعبئة العامة ، والتى عرفت باسم arriere-ban وهذه الخدمة العسكرية المبنية على مبدأ اجبار كل رجل حر على المساعدة فى الدفاع عن المجتمع • ونظرا لأن الرجال الذين تم تجنيدهم على هذا النحو افتقروا ، فى العادة ، الى الخبرة والمعدات الحربية ، لذلك فان نظام التعبئة العامة كان وسيلة طبقت فى المواقف الشديدة فقط • على أن الرجال الذين تم تجنيدهم بهذه الوسيلة ربما كان فى استطاعتهم

استغلال مواهبهم المحدودة ، على أحسن الأحوال ، فى الدفاع عن المدن والقلاع ، بيد أن وجودهم لا يمكن على الاطلاق أن يلغى الحاجة الى الدفاع عن الحاميــات العسكرية المحترفة والكبيرة • وبالقياس الى فشل أو عدم مقدرة الامارات الصليبية فى الاحتفاظ بالجيوش العاملة لمجابهة العدو بقوة ، وفى نفس الوقت تزويد الحاميات بالقدر الكافى للدفاع عن مدنهم ، فان ذلك يعنى هلاكهم •

وعلى النقيض من ذلك فقد كان فى استطاعة صلاح الدين حشد أى عدد من القوات احتاج اليها • اذ كان فى استطاعة صلاح الدين حشد القوى البشرية من مصر وسوريا ، ومن الموصل بعد سنة ١١٨٥م ـ التى أمدته بحوالى ستة آلاف فارس فى جيشه ـ حتى أنه لم يشعر بأى نقصان • فربما فقد صلاح الدين جيشا ، كما حدث له فى موقعة مونت جيزارد سنة ١١٧٧م ، ومع ذلك ظل قادرا على معاودة تهديد المسيحيين فى العام التالى • واذا كان صلاح الدين افتقر الى المواهب الادارية وكان فى نفس الوقت كريما بافراط فيما يتعلق بتنظيم الموارد المالية ، فانه أيضــا كانت لديه مشكلة مالية ، بالرغم من أنها لم تكن على مستوى خطورة مشكلة أعدائه الصليبيين • وظلت مشكلة صلاح الدين الرئيسية هى كسب الامراء الاقوياء والاحتفاظ بولائهم له ، وهم الذين حكمــوا أقاليمهم كحكام مستقلين من الناحية الواقعية • وكان كل أمير ملزما بتقديم المعونة المالية للحرب ضــد المسيحيين وتقديم عدد محدد من الفرسان • ونظرا لتمتع صلاح الدين بالاحترام الشـديد ، لايمـانه العميق ، دون تكلف ، ولحسن تقديراته ، فانه تمكن من الاعتماد على تعاون الامراء معه ؛ على الاقل طالمـا كانت بشائر النجاح تبدو فى الافق •

وعلى الرغم من أن صلاح الدين كانت لديه الوسيلة لزيادة الموارد البشرية أكثر من الصليبيين ، فان حجم جيشه فى المعارك الفعلية كان مقاربا لجيش أعدائه بصفة عامة • والذى حدد عدد رجاله الذين اصطحبوه فى معاركه لم يكن فى العادة اعتبارات الكفاءة القتالية بقدر ما كان عن طبيعة الأرض ومناخ سوريا • ان فقر التربية وكذلك نقص موارد الميـاه جعلا من استخدام الجيوش الكبرى أمرا غير عملى • وينطبق هــذا بصفة خاصة على المشاة ، الذين شكلوا عبئا حيث كانوا يشقون طريقهم ببطء ومشقة عبر مسافات طويلة يتحتم عليهم اجتيازها ، ولهذا السبب كانت جيوش العرب تتكون على وجه الحصر أو القصر من الفرســـان تقريبا ، فيما عدا مصر ، حيث حارب رماة النبــال المشــاة • وفى ســوريا وفلسطين حل رماة السهام من الفرســان محل رماة النبال من المشــاة •

ومن ناحية أخرى كانت الجيوش الصليبية ، تتكون من الكثير من المشاة لاسباب عديدة • منها أنهم افتقروا الى الخيول ، فى الوقت الذى كان العرب يحصلون عليها دون عناء •

ومن ناحية ثانية ، قلما ظهر العدو فى حالة استعداد للحرب ، فقد كان على الصليبين حشد كل ما يستطيعون حشده من الرجال ، وبخاصة المشاه ، الذين قاموا بواجب حماية القلاع والمدن • ومع ذلك ، فـان السبب الأساسى فى استخدام المشاة أن ذلك ثبت أنه أمر لا يمكن الاستغناء عنه كحاجز دفاعى بين الفرسان الصليبيين المثقلين بالأسلحـة والفرسان العرب الذين تميزوا بسرعتهم وخفة أسلحتهم • ونظرا للوابل المنهمر من السهام الحربية التى سددها العرب ، بالاضافة الى مقدرتهم على شن الغارات المتكررة ، فان فرسان الصليبيين كثيرا ما كان يتم القضاء عليهم قبل أن يتم القتال الالتحامى •

وحينما نتفحص عن كثب نوعيات المقاتلين المواجهين لبعضهم البعض فى سوريا ، نجد أن الفارس الصليبى كان أشدهم جميعا عدة وعتادا ، وهذا التفوق انما هو نمط مماثل لما كان عليه المحارب فى غرب أوربا ، حيث تمخضت الأحوال عن وجود مثل هـذا النوع من المحـارب • وكان تفوق هذا الفارس أمرا معترفا به فى الشرق الادنى برغم من ارتفـاع درجة الحرارة ، والنقص فى الاعلاف ، والمياه كثيرا ما جعـل القتال صعبا الى حد كبير • وكان هذا الفارس الصليبى يحمل رمحا وسيفا ، وخنجرا فى أغلب الأحوال أيضـا • وارتدى الفارس ملابسا لحمايته تتكون من قميص به دروع ذات زرد وله أكمام ، ويصل حتى ركبتيه • وقطع أخرى من المعدن لحماية ساعديه ، ومعصميه ويديه ، ورجليه ؛ بل وحتى قدميه • ويغطى الجزء الأمامى من راسه خوذة اسطوانية او مخروطية ، تحمى رقبته والجزء الأكبر من وجهه قلنسوة مدرعة • وتحمل مطيته المدرعة تدريعا ثقيلا ، صفائح معدنية واقية ، بالرغم من أنها ليست على مستوى راكب تلك المطية • ولو كانت الصفائح المعدنية الواقية الخاصة بالحصان على مستوى الفارس بالنسبة للدروع المعدنية لاتخذ تاريخ الحروب الصليبية مجرى آخر • فعندما توقف ضجيج معركة حطين ، واختفت سحب الغبار ، كان من النادر وجود فرس من الجيش المسيحى على قيد الحياة ، فى حين كان هناك مئات من الفرسان الذين لم يصابوا بأى أذى •

ولكى يمـد الصليبيون أنفسهم بالفرسان حمـلة الأسلحة الخفيفة

لتدعيم مرقف الفرسان الاقوياء من حملة الاسلحة والمعدات الثقيلة ، وينفذوا المهمات المحددة المناسبة للفرسان الذين لديهم المقدرة على الحركة السريعة ، لجأت الامارات الصليبية الى سكان البلاد الاصليين ، واعتمدت على الحلفاء • وفى العادة عرف هؤلاء الفرسان باسم الفرسان الاتراك حملة الاسلحة الخفيفة Turcopoles اذ أنهم حاربوا على غـــرار ما كانوا يفعلون فى بلادهم • واستعمل الأتراك النبال والسهام ، وبذلك شكلوا قوة معادلة للفرسان الرامين بالسهام للعدو واستخدم الصليبيون الأتراك فى عمليات الاستطلاع أيضا • وساعدت حركتهم فى تقييد حركة الفرسان العرب فى الاغارة على المناطق الريفية • وعندما يشاركون فى القتال ضد جيش ضخم للعدو فانهم كانوا ينضمون الى الفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة •

ان المشاة الذين قاتلوا مع الجيوش الصليبية أعدوا أنفسهم كشركاء عاملين مع الفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة فى كل العمليات الحربية الكبرى • واختلفت معداتهم ومهاراتهم وفقا لخطتهم القتالية • فالجنود المرتزقة ، وضعوا على رؤوسهم قلنسوة من حديد ، وأحاطوا أجسادهم بنوع من الزى الحربى ، وهو فى العادة معطف جربى gamberson أو عباءة من الجلد السميك أو الكتان المبطن : ويحمل الفرد منهم ترسا ، وقوسا ، أو قوسا ونشابا • وكان القوس والنشاب أثقل من القوس العادى ، وأكثر صعوبة فى الحمل ، بيد أن قذائفه لها قوة ماحقه لدرجة أنها تستطيع تكسير الدروع والاوصال على مدى قريب • ويقوم المشاة بالتصدى للعدو معتمدين على كثرتهم العددية بالاضافة الى السهـــام الشديدة التى يطلقونها الى أن تحين اللحظة التى ينقض فيها الفرسان ويشنون هجوما شديدا •

وتحرك العدو وفقا لمتطلبات المعركة :

اذ تقدم رجاله العدو بيننا وبين خيالهم ، وظلوا محتفظين برباطة الجأش والثبات كالبنيان المرصوص • وكان كل فرد من رجالهم مرتديا عباءة من اللباد ، ومن تحتها قميص من الدروع المحكمـة التى لم تحدث بها سهامنا أى أثر • وفى نفس الوقت صوبوا تجاهنـــا الاقواس والنشاب ، التى أصابت الخيل والخيالة ، وطرحتهم أرضا بين المسلمين• ولاحظ بينهم رجالا حمل الفرد منهم ما بين واحد الى عشرة رماح مثبتة على ظهورهم ، وبرغم معاناتهم من الاجهاد فى خطاهم العادية ، فانهم لم يتخلوا عن موضعهم بين قواتهم • وانقسم المشاة الى قسمين : قسم تقـدم ليغطى الفرسان ، فى حين تحرك القسم الآخر على امتـداد الشاطىء

دون الاشتراك فى القتال ، وانما استهدف الراحة • وعندما تعب القسم الأول ، استبدال الأماكن مع القسم الثانى ، وأخذ دوره • وسارت الفرسان بين قسمى المشـــاة ، وظهرت فى الوقت المنـــاسب الذى رغبت فيه المهاجمة » • (٢) •

وتشير هذه الصفحة من كتاب المؤرخ المعاصر الى نوعية التكتيك الحربى والاجراءات الوقـائية التى مارسها فى العـادة المسيحيون ضـد الأعداء العرب • على أن كثيرا من معلوماتهم عن كيفية التعامل مع العدو قد اكتسبوها بالممارسـة • بيـد أن بعض هذه المعرفة اكتسبوها من المستشارين العســكريين فى القسطنطينية • واذا كان بعض الصليبيين مالوا الى الاستهزاء من تحذير هؤلاء المستشارين عن الخيالة الأتراك الذين اشتهروا بسرعة الحركة ، فان تعرضهم للابادة فى موقعـــة دوريليوم Dorylaum فى آسيا الصغرى ، وهى المعركـة الأولى للحملة الصليبية الأولى كان من الممكن أن يكون درسا واقعيا • وفيما بعد علمتهم تجاربهم فى سوريا دروسا أخرى كان عليهم أن يعوها من أجل بقائهم ، مثل عدم الابتعاد كثيرا عن مصــــادر المـــاء ، وعـــدم مواصلة مطـاردة جيش منسحب ، وعدم الانتشار بحثا عن الغنائم ، والا يعرضوا أنفسهم لخطر الوقوع فى حصار على يد العرب الذين اشتهروا بالمزاوغة والدهاء •

وكان الصليبيون مجبرين على أن يتعلموا درســا قاسيا بصورة خاصة وهو أهمية المحافظة على الوحدة المتماسكة والمنظمة ضد عدو كان هدفه الأساسى القضاء على تلك الوحدة • وفى فرنسا كان على الفارس أن يعتمد على نفسه الى حد كبير فى مهمته العســكرية • فبعد هجوم مفاجىء أولى ضد العدو ، ربما يقوم هذا الفارس بالهجوم على أحد أفراد العدو ، و يهاجم جماعة من العدو متعاونا مع العديد من زملائه • بل ربما خرج من المعركة عندما يشعر أنه قد بذل كل ماهو مطلوب منه فى ذلك اليوم • بيد أن الأمر فى سوريا ليس كذلك • اذ لابد عليه أن يظل مرافقا لجيشــه ، وعليه أن ينسق تحركاته مع تحركات المشاة ، الذين كان وجودهم حيويا بالنسبة لحياة الجيش • ويجب عليه الا يسمح بوجود ثغرات بين صفوف جيشه ، أو أن يسمح للعدو السريع الحركة بأن يباعد بينه وبين المشاة • وباختصـــار ، يجب عليه أن يتعلم النظام ، وهى فضيلة كانت غريبة كلية بالنسبة لشخصية الفارس •

وفى محاولة لتحقيق قدر من التماسك فى الجيش الصليبى ضد العدو الذى سعى الى القضاء على هذا التلاحم ، أصبح من المعتاد تقسيم القوة الضاربة الى وحدات صغيرة • وكانت تلك الوحدات الصغيرة تتلقى

تعليماتها المباشرة من قائد واحد الذى اتبع بدوره خطة استراتيجية معدة من قبل حظيت بموافقة القادة • وكانت تلك الوحدات لاتهاجم فى وقت واحد ، وانما فى موجات متتالية ، وتهاجم مواضع مختلفه فى خطوط العدو • ان الهجوم المفاجىء الذى تقوم به جماعة من الفرسان الأشداء ، لم يكن أمرا جديدا بيد أنه في فرنسا كانت الحاجة الى بعض التعاون بعد هذا الهجوم أمرا نادرا ، طالما أن العدو يحارب فى العادة بنفس هذا الأسلوب المنظم • أما فى سوريا فانه يكون أمرا انتحاريا مالم يتحقق شيئا من الاتحاد بين القوات المقاتلة وعلقت الداوية Templars أهمية على مسألة استمرار التعاون مع الجيش ابان المعركة الى حد أنهم جسدوا هذا الشرط الأساسى فى نظمهم الأساسية وعاقبوا بقسوة أى فارس يترك موقعه دون اذن •

كانت مسألة التعاون بين الفرسان والمشاة هى أشد الأمور خطورة بالنسبة للجيوش الصليبية ، وكان موضع المشاة ، فى العادة بين الفرسان والعدو ، حيث شكلوا حاجزا وقائيا ضد سهام العدو التى قد تصيب خيول الفرسان بطريقة أو بأخرى • وساعد تكتلهم أيضا على ابطاء الهجوم المباشر للاتراك الذين اتصفوا بسرعة الحركة والذين حاولوا مهاجمة جناحى الجيش الزاحف • وقدم الفرسان المساعدة بدورهم للمشاة اذا ما حاول فرسان العدو الضغط بشدة عليهم • وفى العمليات الهجومية حينما تحين الفرصة للفرسان للقيام بالهجوم ، يفتح المشاة طريقا ، ويسمحون للفرسان بالهجوم من خلاله • وكان فى استطاعة ريتشارد القضاء على كل جيش صلاح الدين لو لم ترفض الاسبتارية Hospitallers أوامره ، وقاموا بمهاجمة العدو قبل أن يعطيهم الملك ريتشارد الاشارة بالهجوم • وبالرغم من هذا الخطأ ، فان تحرك الاسبتارية الذى اتسم بالعجلة ، أجبر ريتشارد على أن يأمر قواته بالهجوم وهو مكره وفتح المشاة الصفوف والحق هجوم فرسان الملك احدى الهزائم الشنيعة التى تعرض لها صلاح الدين فى حياته •

وهنا وصف لمؤرخ مسيحى عن هذه المعركة • « فى طول سطح الأرض وعرضها فى استطاعتك مشاهدة جماعات الأتراك المدربين تدريبا جيدا ، وأعداد وافرة من الاعلام المتعددة الألوان ، وقد اصطفوا فى جماعات وسرايا من الخيالة ، وأما تعداد المشاة فقط والذين كانوا مزودين بالدروع ، فيبدو أنه زاد على العشرين ألفا • وانقضوا على قواتنا بدون انحراف ، وبسرعة تفوق سرعة النسور أو العقاب • تحول الهواء الى اللون الأسود نتيجة لشدة حركة حوافز خيولهم ، وأحدث العازفون على الآلات الموسيقية ضجيجا مفزعا بالنفير ، والأبواق ، والطبول ،

والصنجات ، وكل أنواع الآلات النحاسية فى الوقت الذى انقضت القوات من الخلف بصراخهم وصيحات الحرب • لأن (المسلمين) يعتقـدون أنه كلما علا الضجيج ، كلما زادت قوة الروح المعنوية عند المقاتل المسلم وكذلك هاجمتـــا الأتراك ـ عليهم اللعنة ـ من الأمام ، ومن الخلف ، وهاجموا جناحى جيشنا ، واندفعوا بقوة ، وصاروا على مقربة شديدة الى الحد الذى لم يمكن مشاهدة الأرض الجرداء لمسافة ميلين ، اذ أنها كانت كلها مغطاة بجيش العدو الكثيف » •

وعندما أصدر ريتشارد الأمر بالهجوم فى النهاية ، هنا وصف شاهد عيان من المسلمين ما حدث : « وعلى نحو مفاجىء شاهدنا فرسان العدو ، الذين تقدموا معا فى ثلاث تكتلات ضخمة ، يلوحون برماحهم ، ويطلقون صيحات الحرب ، ويندفعون نحونا بسرعة ، وفجأة فتح لهـم المشاة ثغرات بين صفوفهم ليسمحوا لهم بالمرور خلالها » •

ان مقدرة الجيوش العربية على سرعة الحركة فرضت نفسها على التكنيكات الحربية التى اعتادوا عليها ضد الجيش الصليبى ، الذى كان أكثر استخداما للدروع • وطالما أن العـرب لديهم المقدرة على الحركة والمناورةبدرجة أسرع من أعدائهم المسيحيين فانهم استطاعوا فى العادة تجنب المعارك التى لا يرغبون خوضها • وفى استطاعتهم اختيـار الزمان والمكان لشن هجومهم • واذا بدت مصير الحرب أنها ليست مواتية فانهم ربما انقلبوا على أعقابهم بعـد اشتراكهم فى القتال مع العـدو ، وولوا الأدبار وربما أعادوا حشـــد قواهم فجأة ، وعاودوا القتـال • هذا هو ما وصفهم به تماما المؤرخ المسيحى عندما تصـدوا للملك ريتشارد والصليبيين عند تقدمهم صوب أرسوف • « أن (المسلمين) لم يرهقوا أنفسهم بالدروع الثقيلة كما فعل فرساننا ، فانهم كانوا قادرين دائما على أن يبرزوهم فى سرعـة الحركة ، لذلك كانوا مصـــدر قلق مستمر • وعندما يتعرضون للهجوم فانهم اعتادوا الانسحاب بأقصى سرعة ، وأما عن خيولهم فهى أكثر الخيول سرعة فى العالم ، ويمكن للمرء أن يشبههم بطـائر الخطاف Swallow فى خفة الحركة والسرعة • وعندما يرون أنك توقفت عن مطاردتهم ، يتحول هروبهم الى هجوم عليك انهم مثل الذباب المزعج الذى فى مقدورك طرده لفترة قصيرة من الوقت ، ثم يعود ثانيه فى اللحظة التى تتوقف فيها عن صده بشدة ، وطالما أنك مستمر فى الصد ، فانه يظل بعيدا • وكذلك المحارب التركى اذا ما رغبت عنه بعد أن تجبره على الابتعاد فانه يطاردك حتى عقر دارك دون توان ، بيد أنه يلوذ بالفرار اذا استدرت اليه •

ونظرا لأدراك العرب لتفوق الفارس الصليبى بسبب دروعـــه وأسلحته الأثقل فأنهم حاولوا انهاكه عند تقدمه عن طريق الغـارات المتكررة على جناحي جيشه • وذكتشفوا أيضا الهجوم العنيف والمستمر لفترة طويله الذى يمارسونه ضد مؤخرة جيش زاحف يتمخض عن وقوع كل الجيش فى حالة من الارتباك ، حتى لو فشل هذا الهجوم فى تدمير هذا الجزء الأساسى من الجيش • وعندما يتجهون صوب العدو ، فانهم يطلقون وابلا حقيقيا من السهام من أقواسهم المخيفة ، ثم يقتربون عندما يشعرون أنهم أفقـدوا العـدو اتزانه ، ويهاجمـون بالـرمح ، والسيف المستقيم ذى الحدين ، و لسيف وحيد الحد الاعقف قليلا • واذا ما نجح الجيش الصليبى فى صد الهجوم ، فانهم يولون الأدبار أو يتظاهرون بذلك • على أن يعاودوا الهجوم بعد ساعات قلائل أو بعد أيام قلائل ، الى أن يدركوا أن العدو لايتوقع هجوما بدرجة لاريب فيها وأحيـانا تنجح الجيوش العربية فى استدراج المسيحيين الي الدخول فى معركة مع قوة معدة كشرك للعدو أو بالتظاهر بالتقهقر • وربما ترتب على ذلك تبدد شمل الصليبيين لتلهفهم على احراز نصر مزعوم ، هذا فى الوقت الذى يجدون فيه العـرب قد شنوا عليهم هجوما معاكسـا محدثا كارثة مروعة • وقبل معركة حطين بمائة عـام كان أتو الثـانى Otto II ملك ألمانيا من القلة المحظوظين ، اذا استطاع الافلات عند ما نصب له العرب كمينا فى جنوب ايطاليا •

ونتيجة لمقدرة القوات الاسلامية على الحركة السريعة ، ولتفوقهم البشرى والحقيقة الواضحة أن المسيحين لا يشغلون سوى موطىء قدم على حدود العالم الاسلامى ، لذلك سلم الأمراء الصليبيون منذ البداية تقريبا بضرورة اقرار وانتهاج استراتيجية دفاعية ضـد العدو • ان الصليبين حاولوا تجنب الدخول فى معركة بكل حساباتهم • اذ كان فرسـانهم المحترفون فى حد النـدرة ومن الصعب وجـود بديل لهم • كما أن الشعور بالرضى نتيجة للنصر كان قصير المدى ، طالما أن العـدو بموارده الهائلة قادر على معاودة القتال بعد وقت وجيز • ولم يدخل الصليبيون المعركة الا عندما يكون النصر أكيدا ، وعندما يصعب عليهم تجنب القتال شريطة عدم حدوث نتائج خطيرة • اذا كان القضاء على جيشهم بمثابة كارثة لعدم توافر الموارد التى يحتاجون اليها • لذلك ما أن تم القضاء على الجيش الصليبى حتى تحـددت نهاية لمملكة بيت المقـدس • قـال المـؤرخ أسـامة (بن منقذ) (*) المسلم ان الفـرنج (الصليبيين) هم أشد الرجال حذرا فى الشئون الحربية) •

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

ان نجاح انتهاج هذا النوع من الاستراتيجية الدفاعية عمل يعود الى ذكاء الأمراء الصليبيين. ومع ذلك لا مفر من الحقيقة القائلة بأنه لو كان العالم الاسلامى موحدا تحت حكم شخصية مقدورة على شاكله الخليفة عمر (٢) (عمر بن الخطاب رضى الله عنه) (*) ، لما كانت الاستراتيجية الدفاعية كافية لبقاء الصليبيين ولما قدر لها النجاح لمدة جيل أو جيلين قبل معركة حطين باستثناء الطبيعة الموسمية للقتال فى سوريا ، ولم تكن غالبية الجند العربية محترفة للقتال ٠ اذ كانوا يشتركون فى القتال لعدة أشهر ، وبعدها يشعرون بالملل تدريجيا ، ثم يصرون على العودة الى بلادهم وأسرهم ٠ وبنفس القدر كانوا تواقين للعودة من حيث أتوا اذ كانوا يحاربون من أجل الغنيمة فى المقام الاول. وبعد خمسة أو ستة أشهر من القتال كان فى استطاعتهم جمع كل ما فى مقدرتهم على حمله معهم ، ومن ثم فلا مبرر للاستمرار فى القتال ، على أية حال ، فان الامطار والطقس البارد فى نهاية كل عام كانت من أسباب وضع نهاية للقتال ، فى العادة ٠ وبحلول فصل الربيع التالى واجه صلاح الدين المشاكل الدائمة ، وذلك باقناع الامراء بانتطوع ومعهم قواتهم الجديدة التابعة لهم ، ونجح فى جعلهم كالجسد الواحد بعد أن حولهم الى قوة قتالية متماسكة وقادرة على القضاء على الصليبين قبل أن ينهى سقوط الامطار القتال مرة ثانية ٠

لابد لنا من العودة للاحداث التى أفضت الى الكارثة فى حطين ٠ ان الرجل الذى يتحمل المسئولية الرئيسية لتحريك هذه الاحداث هو ريجينالد من شاتيليون Reginald of Chatillon (أرناط) * أمير حصن الكرك ، الذى اتصف بالشجاعة وان كان يميل الى التهور ٠ لقد كان يوما كئيبا على مملكة بيت المقدس عندما قرر ريجنالد أن يجرب حظه فى سوريا ، بعد أن حضر مع لويس السابع ابان الحملة الصليبية الثانية ٠ ويبدو أن ريجينالد كان فارسا تقليديا مولعا بالمغامرات الفروسية ، وكان متهورا ، وشجاعا ، ووسيما ، بيد أنه كان يفتقر الى الحكمة والانضباط الذاتى ٠ واستحوذت وسامته وسلوكياته المفعمة بالحيوية على اعجاب كونستانس Constance حاكمة أنطاكية الأرملة والتى اقنعت بلدوين الثالث فى لحظة ضعف أن يسمح لها بالزواج من ريجنالد ٠ وفى سنة ١١٦٠ م قدم العرب خدمة جليلة للمسيحيين عندما أسروا ريجنالد لمدة ستة عشر عاما فى حلب ولم يحرك أحد ساكنا من أجل فديته ٠ وعند اطلاق سراحه تزوج ستيفانى Stephanie

---

(*) أرناط هو الاسم الذى درجت المصادر العربية على اطلاقه عليه ــ المترجم ٠

وريثة أمارة شرق الأردن المهمة • وتوجد فى المنطقة قلعة الكرك Kerak القوية ، والمعروفة باسم صخرة الصحراء ، والتى تقع فى منطقة عالية جنوب البحر الميت مما جعلها تسيطر على طريق القوافل بين دمشق الى الشمال ومصر ومكة الى الجنوب •

وفى صيف سنة ١١٨١م ، وابان فترة هدنة ، اعترض ريجينالد سبيل قافلة كانت فى طريقها الى مكة • وفى السنة التالية بنى عـــدة سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف على شاطىء البحر الميت ، ونقلها مفككة الى خليج العقبة حيث قام بتجميع اجزائها وشرع فى مهاجمة الســفن التجارية الاسلامية على البحر الاحمر جنوبا حتى الموانى التى تخــدم مدينتى مكة والمدينة • بل يقال أنه اعتزم مهاجمة مكة المكرمة والمدينـة المنورة ، فاستشاط صلاح الدين غضبا • وفى أوائل ســنة ١١٨٧م عندما انقض ريجينالد على قافلة للمرة الثانية ، ابان فترة هدنة ورفض اعادة كل ما استولى عليه من أمتعة وأسرى ، برغم طلب جوى ملك بيت المقدس بالحاح • لذلك كله أعلن صلاح الدين الجهاد ، وأقسم أن يقتـل ريجينالد بيديه • وفى الرابع والعشرين جمع صلاح الدين والامــراء التابعون له حوالى عشرين ألف مقاتل شرق بحيرة طبرية قرب حدود الأراضى المقدســة • وبعد ذلك بيومين ، وفى يوم الجمعة المبـارك عند المسلمين ، والموافق السادس والعشرين من يونية ، عبر صلاح الدين نهر الأردن وبدأت الحرب •

وفى نفس الوقت كان الملك جـوى ومستشاره يعـدون العدة على قدم وساق للتصدى لهجوم صلاح الدين • على أن استعداد القائد المسلم كان أشد الاستعدادات خطورة على الصليبيين • فعلى الرغم من خوفهم وكراهيتهم لريموند فان الموقف كان فى غاية الخطـورة ممـا دفعهم الى ارسال وفد اليه طلبا لتعاونه غير أن الموقف كان من الصعوبة الى حد استحالة انقاذه • اذ لم تكن العلاقات مجرد دية بين ريموند وصلاح الدين فحسب نظـرا لاحترام كل منهما للآخر ، وانمـا كان ريموند ما يزال يشـعر بالمرارة بسبب الطريقة المتكبرة التى عالج بهـا جـوى وزملاؤه مسألة اعتلاء ريموند للعرش • غير أن الموقف كان خطيرا للغاية مما جعل ريموند يبلع كبرياءه ، ويقدم وعده بالمســاعدة • اذ كان يدرك أنه اذا ما ضاعت مملكة بيت المقدس من أيدى المسيحيين ، فان الدور سيأتى على امارته فى طرابلس •

ولم يحدث للمسيحيين أن حشدوا جيشا كبيرا مثل ما جمعوا هذه

المرة وبناء على طلب المساعدة ، أرسل بوهيموند Bohemond أمير أنطاكية، ابنه ريموند ومعه خمسين فارسا • وأخلت المدينة والقلاع أنفسها من حامياتها • وأعلن الملك التعبئة العامة arriere-ban من أجل حشد كل القوى البشرية • وتم انفاق الذهب الذى أرسله هنرى الثانى مؤخرا على الجند المرتزقة وتم احضار بقايا الصليب الحقيقى (*) من بيت المقدس • كعمل أخير بهدف التقليل من المخاوف والعمل على رفع الروح المعنوية بأقصى قدر ممكن • وربما بلغ تعداد الجيش حوالى ثمانية عشر ألف مقاتل ـ منهم ألفا ومائتين من الفرسان ثقيلى العدة وأربعة آلاف فارس خفيفى السلاح ، وباقى العدد من المشاة ـ وتجمعوا جميعا فى صفورية ، وهى مدينة صغيرة فى امارة طبرية على بعد حوالى أربعة أميال شمال غرب الناصرة •

وهناك فى صفورية ، فى الثانى من يوليو ، اجتمع الملك جوى ومستشاروه فى مؤتمر خطير • اذ أن الكارثة لا ريب فيها • لقد فرض صلاح الدين المعركة الفاصلة ، ولابد من اتخاذ قرار • وعندما فشلت محاولات صلاح الدين الأخرى باستدراج الجيش المسيحى للقتال ، هاجم مدينة طبرية ، وسيطر على كل من فيها ، وضرب حصارا حول القلعة التى لجأت اليها اسكيفا Eschiva زوجة ريموند أمير طرابلس • الى استغاثة اسكيفا هى التى جعلت جوى يعجل بدعوة مستشاريه وما يجب عليهم أن يفعلوه هو اما أن يتحرك الجيش الصليبى الى طبرية وفك الحصار عن القلعة ، كخطوة سوف تؤدى الى معركة كبرى مع صلاح الدين أو يظل فى صفورية وينتظروا الخطوة التالية لصلاح الدين •

على أنه أصبح واضحا ببساطة تامة أن وجود الجيش الصليبى ، وكذلك مملكة بيت المقدس يتوقف على ما يقرره الصليبيون • ويبدو أن المستشارين المجتمعين أدركوا ادراكا كاملا هذه الحقيقة ، ولذلك استمرت المناقشات بانفعال شديد لعدة ساعات • غير أن الناطق بلسان هؤلاء المستشارين ، والذى حبذ البقاء حيث كانوا فى صفورية لم يكن سوى ريموند زوج اسكيفا Eschiva اذ كانت لدى ريموند خبرة طويلة بكل مظاهر القتال فى سوريا ، وبالتكتيكات الحربية لصلاح الدين على وجه التخصيص • وحذر القادة الآخرون من أن هجوم صلاح الدين على طبرية ليس سوى مجرد شرك أعد باحكام على أمل دفع الجيش المسيحى

(*) هذا وفقا للاساطير المسيحية ـ المترجم •

على مغادرة صفورية • وأن مركزهم فى صفورية قوى • وأن طبيعة المنطقة تحميهم من التعرض للمحاصرة ، كما أن قربهم من قلاعهم والقرى الموالية لهم يكفل لهم الحماية والطعام ويمدهم الينبوع الكبير الذى يقع جنوب صفورية مباشرة بكل ما يحتاجون اليه من الماء •

ولفت ريموند أنظار المجتمعين الى أنه اذا كانت رغبة صلاح الدين خوض معركة ، فان عليه أن يذهب اليهم فى شهر يوليو ، أشد شهور السنة حرارة وجفافا وأن يجتاز أرضا صخرية وكلها جرداء ، وباختصار يتعرض لظروف تثنى أى قائد حكيم عن الهجوم • وللسبب نفسه ، فانه سيكون عملا انتحاريا بالنسبة للمسيحيين اذا ما حاولوا المسير حوالى خمسة عشر أو ستة عشر ميلا الى طبرية تحت تلك الظروف الشاقة ، دون أدنى أمل فى الحصول على الماء طوال تقدمهم وتعرضهم لهجمات فرسان صلاح الدين المستمرة • وحثهم ريموند على الانتظار اذ أن الوقت كان فى صالح المسيحيين • ان تجنب المعركة مع صلاح الدين لمدة شهور قلائل يساعد على تفرق الجند من حوله ، وكذلك تخفيف حدة الازمة تدريجيا •

كان هناك بعض الأفراد الذين فندوا مزاعم ريموند بحماس شديد ، وعلى رأسهم جيرارد من رايدفورت رئيس الداوية ، وريجينالد، ومنذ اللحظة التى أقرت فيها غالبية المستشارين حجج ريموند ، وانتهاء الاجتماع فى منتصف الليل تقريبا أصبح معلوما أن الجيش المسيحى ، سيبقى فى صفورية • وقبل نهاية تلك الليلة ذهب جيرارد ، وربما ريجينالد الى خيمة جوى فى محاولة أخيرة لاقناعه بتغيير رأيه ولم يكن ريجينالد بالشخص الذى يتجنب مشروعا محفوفا بالمخاطر ، فى حين أن حقد رايدفورت المستمر على ريموند ، ربما دفعه الى اكتشاف مواطن الضعف فى الاستراتيجية التى أوصى بها عدده الشخصى •

وربما كان هناك سبب مباشر لشعور رايد فورت بالمرارة تجاه ريموند • اذ يقبل بعض العلماء صحة رواية المؤرخ المسلم أن ريموند سمح منذ شهرين على بدء معركة حطين ، لابن صلاح الدين ، باجتياز طبرية لكى يغير على الاراضى المسيحية ، بناء على طلب من صلاح الدين• وكان هذا انتقاما لاستيلاء ريجينالد على القافلة بالقرب من حصن الكرك• ولقد أعلن ريموند موافقته على هذا الطلب المدهش لغرابته لكى يحافظ على مشاعر صلاح الدين الودية نحوه ، وان كان قد أصر على أن تدخل الجماعة المغيره المنطقة بعد شروق الشمس ، وأن تغادرها قبل الغروب •

على ان ريموند أرسل تحذيرا الى المسيحيين بأن يظلوا في قراهم حتى لا يتحرش أحد بهم ، والهدف من ذلك هو حمايتهم من التعرض للخسائر الفادحه • ومن الواضح ان المغيرين احدثوا قليلا من الأذى ، بيد انهم واجهوا جماعه من الفرسان الداويه والفرسان الاخرون ابان عودتهم بالقرب من الناصرة وقضوا على الغالبية العظمى منهم ، تاركين حوالى ستين قتيلا من الفرسان الداويه في أرض المعركه • وكان رايد فورت من بين القلة التى أفلتت من المذبحة • واذا كانت هذه الحادثة قد تمت ، فانها لابد وان اقنعت ريموند بضرورة مصالحه جوى لكى يضفى غطاء على موقفه المثير للشكوك ، وأنها تقدم الدليل للشك فى مدى الاعتماد على ريموند •

ان مسألة ولاء ريموند هي التي سيطرت على حديث رايد فورت مع جوى اذ قدم رايد فورت الدليل على أن ريموند ليس بالرجل الذى يمكن الثقة فيه • اذ كان قد رفض ذات مرة استضافة جوى ، كما ان كل فرد يعلم أنه صديق لصلاح الدين أليس هو الذى أصر على البقاء فى صخورية ليحمى صديقه صلاح الدين من الهزيمة ؟ وربما حذر رايد فورت جوى من أن العذوف عن محاربة صلاح الدين فى ذلك الحين قد يضفى عليهم الاتهام بالجبن • وذكره بأنه اتهم بالجبن منذ سنوات مضت ، سنة ١١٨٣م ، عندما رفض الدخول مع صلاح الدين فى معركة عندما تقدم صلاح الدين فى ذلك الحين ، وضرب المناطق الريفية بالقرب من توبانيا • ولابد أن رايد فورت قد ذكر جوى باعتباره سيدا اقطاعيا اعلى ، أن الواجب الأول للملك يحتم عليه الاسراع فى مساعدة سكيفا Eschiva تابعته الاقطاعية ، التى الحت فى طلب مساعدته • وفوق ذلك لابد أنه قد أقنع جوى أنه ، برغم اشتداد درجة الحرارة والنقص فى مورد المياه ، فمن المحتمل أن يقضى عليهم صلاح الدين اذا هاجمهم فى مكانهم ، لذلك فمن الواجب تحرك الجيش صوب طبرية • وأنه والداوية سيتوليان حماية مؤخرة الجيش اذ من المحتمل أن يركز العرب أشد هجومهم عنفا • وأنه استطاع أن يضمن للملك أن هذا الجزء من الجيش سوف يؤدى واجبه •

وأيا كانت الحجج التى حاول كل من رايد فورت وريجينالد عرضها ، فقد غير جوى رأيه ، واستعد الجيش المسيحى الذى انتابته حالة من الاضطراب للرحيل فى الساعات الاولى من صباح الثالث من يوليو • وكان ريموند فى مقدمة الجيش ، بينما كان جوى قائدا لقلب الجيش ، وتولى الداوية ورايد فورت المؤخرة • وتزايد الاحساس بالشر

لدى كثير من الصليبيين منذ تحركهم وبخاصة عندما ازدادت حرارة الجو وزاد عطش الرجال والحيوان ، فى الوقت الذى أمطرهم فيه الرماة بالسهام فى جيش صلاح الدين بوابل من السهام من كل صوب وأصبح الموقف لا يحتمل شيئا فشيئا ٠

وعند الظهر أبلغ رايد فورت الملك جوى أن رجاله لم يعد فى استطاعتهم التحرك الى الامام ٠ اذا أصبحوا فى حالة انهاك ٠ اذ انه بسبب شدة حرارة الجو ، ونقص المياه ، والهجمات الشرشة التى واصلها فرسان العدو دون توقف لم يعد فى امكان رجاله المسير ٠ واذا لم يأمر جوى بالتوقف عن المسير ، فسيحدث العدو ثغرة بين رجال رايد فورت، وباقى الجيش يترتب عليها حتما القضاء التام على الجميع ٠ وبرغم أنه كان قرارا خطيرا ، فان جوى شعر أنه ليس أمامه خيار فى هذه الحالة ٠ فأصدر جوى الامر بالتوقف ، واقامة معسكر ، وهم فى وسط الصحراء حيث أطلق العدو الصيحات العالية ، بعد أن حشد أعدادا كبيرة من حولهم ، مع أنهم مازالوا فى منتصف الطريق الى طبرية ، وعلى بعد عدة ساعات من مكان الماء ، وبالنسبة لريموند ، والعديد من القادة الآخرين كان قرار جوى بالتوقف بمثابة كارثة ووفقا لما ذكره أحد المؤرخين ، فان ريموند ، ما أن علم بقرار جوى حتى صرخ قائلا : « واحسرتاه ! وا مصيبتاه ! يا الهى ! لقد انتهت الحرب ، وأصبحنا فى تعداد الموتى !

وعسكر الجيش الصليبى بصفة مؤقتة فى العراء ، فى مكان يدعى ماريسكاليا Marescallia بالقرب من قرية حطين ، عند أسفل سفح هضبة صغيرة داكنة اللون بلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة آلاف قدم عن قرية طبرية ٠ ويطلق السكان الاصليون على الهضبتين الصغيرتين عند قمة التل اسم قرنى حطين ، ويقال أن المسيح ألقى موعظة على الجبل فى هذا المكان المرتفع ٠ وبالنسبة للمسيحيين تكشف لهم أن تلك الليلة كانت من ليالى جهنم بكل حق وصدق ٠ اذ لم يكن هناك ما يطفىء ظمأهم ، فلم يكد الغبار أن يهدأ حتى أشعل العرب أغصان شجيرات أحدثت دخانا خانقا كاد أن يقضى عليهم خنقا ٠ وكتب المؤرخ أن الحصار الذى ضربه العدو حول الصليبيين كان محكما للحد الذى جعل من المستحيل على هرة اجتيازه ٠ وبالاضافة الى حالة اليأس التى انتابت المسيحيين ، عندما أطلق العدو صيحة الابتهاج بالنصر قائلين : « الله أكبر ! لا اله الا الله ! » ان ضعف الروح المعنوية للجيش المسيحى نتج عنه حالة من الاجهاد البدنى الشديد والذعر بشكل كامل ٠

وفى صباح اليوم التالى ، فى الرابع من يوليو ، استأنف الجيش الصليبى الذى علت وجوه رجاله وملابسهم الاتربه والغبار ، ومسيرهم الشاق وحتى حوالى الظهيرة استمر الرجال فى التقدم ، وفى ذلك الحين كانت قد تلاشت مقدرة المشاة على المقاومة كلية • لقد عانوا الامرين من متاعب اليوم السابق ، وفى ذلك الحين رفضوا أن يلحقوا بالفرسان، وتسلق المشاة سفح التل ، ومن المحتمل انه أحد قرنى حطين ، وتسمروا فى مكانهم برغم توسلات قادتهم ، ونصائح الاساقفة الذين أرسلهم جوى ليحضهم على القتال • وهناك التقى بهم العرب • ومن لم يذبح من الجنود كالماشية ، أو يصاب بجروح قاتلة ، ساقه العرب ليباع فى أسـواق النخاسة •

وفى الواقع كان الموقف باعثا على اليأس • فبدون حماية المشاة، أصبح الفرسان مكشوفين لهجوم رماة السهام العرب بشكل مباشر • وتمكن ريموند وأتباعه من أن يشقوا طريقهم عبر الحصـار ، ولازوا بالفرار • وكانت قلة أخرى قادرة على النجاة بنفس الطريقة • ويقـال أن ستة من الفرسان تمكنوا من الفرار • وربما أغرى صلاح الدين الحال الحرج للجيش الصليبى ، ولذلك أمر صـلاح الدين بشن هجـوم أخير •

ودارت أشرس المعارك ضراوة على قمة أحد القرنين ، ومن المحتمل على قمة القرن الذى شهد مذبحة المشاة فى أوائل النهار • ووفقا لشهادة ابن صلاح الدين فان الفرسان المسيحيين : « شنوا هجوما مروعا ضد قواتنيا ودفعوهم صوب والدى فنظرت اليه ولاحظت أنه بدا حزينا وشاحب الوجه ، وممسكا لحيته بيديه » • وحينئذ وبناء على متابعة صـلاح الدين للامر بقوة وعزم ، شن المسلمون هجوما معاكسا ضد المسيحيين تمخض عن ترك المسيحيين لمكانهم ، والنزول الى سفح التل للمرة الثانية غير أنهم صدوا المسلمين ثانية • على أن هجوما معاكسا للمسلمين حقق نجاحا • وما أن رأى صلاح الدين سقوط علم الملك على الأرض حتى قفز من على صهوة جواده وسجد لله شكرا • اذ تأكد أنه أحرز النصر النهائى •

كانت المذبحة كبيرة جدا ، وتم أسر أعداد كبيرة مـن المسيحيين ويقال أن صلاح الدين ذبح ريجينالد بيده • وأطلق صلاح الدين سراح جوى ، وبعض كباررجال دولته وأى شخص آخر استطاع أن يفدى نفسه بما طلبه صلاح الدين من الذهب ، باستثناء الدوية والاسبتارية • اذ قام صلاح الدين باعدامهم علنا • ونجا رايد فورت حيث تجرع مـرارة

الكارثة التى تحمل مسئوليتها الى حد كبير · أما الصليب الحقيقى فلا يعلم أحد شيئا عن مصيره ·

كانت نتيجة معركة حطين مفجعة ، وعاجلة ، ودائمة · فنظرا لأن الحاميات فى كل أنحاء مملكة المقدس قد استنفدت ايان التصدى لقوة العدو العددية ، فان كثيرا من القلاع استسلمت دون مقاومة تقريبا · اذ ذكر عربى أن اثنتى وخمسين قلعة تم السيطرة عليها فى الحال · وفى العاشر من يوليو سقطت عكا · وفى الرابع من سبتمبر سقطت عسقلان · وفتحت بيت المقدس أبوابها لصلاح الدين فى الثانى من أكتوبر ، وصارت مملكة بيت المقدس أثرا بعد عين · على أن صلاح الدين واجه صعوبات فى المدن الساحلية نظرا لتلقيها المساعدات من البحر · وظلت كل من طرابلس ، وأنطاكية ، وصور فى أيدى المسيحيين غير أن الهزيمة الشنيعة التى نجم عنها فقدان الكثير فى أقصر وقت ، هزت أوربا الغربية من الأعماق ، ودفعتها للقيام بعمل فورى — ففى يناير الذى تلى سقوط مملكة بيت المقدس كان كل من ريتشارد Richard ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس Philip Augustus يخططان بالفعل للقيام للحملة الصليبية الثالثة ·

ولو أخذ القادة المسيحيون بنصيحة ريموند ، ولم يغادروا صفورية من أجل فك الحصار عن طبرية ، ما كان هناك حاجة الى حدوث معركة حطين ، أو حملة صليبية ثالثة ، وربما لا حاجة أخرى أو فرصة لاوربا لارسال جيوش كبرى الى سوريا · وبعد موقعة حطين ، بدأت مكانة صلاح الدين العالية ، ونفوذه فى الانحسار ، ولم يحدث للعالم الاسلامى أن أنجب قائدا فى مثل منزلته الرفيعة للاستمرار فى الحرب ضد العالم المسيحى · وبالنسبة لاوربا الغربية ، فمنذ الربع الاخير من القرن الثالث عشر فصاعدا ، فان ملوكها كانت لديهم أهداف أكثر أهمية من أن يشغلوا اهتمامهم بالقيام بحملة صليبية أخرى ·

٦ ـ معركة بوفين

كان هنرى الثانى ملك انجلترا ، ولويس التاسع ملك فرنسا فى منازعات متكررة • اذ كان لويس متضايقا بسبب الاعـداد الكبيرة من الاقطاعات التى كانت تحت حوزة هنرى فى فرنسا ، بما فيها الاقتطاعات المهمة مثل نورماندي Normandy وأنجو Anjou وهناك أيضا اقطاعية تولوز Toulouse فى جنوب فرنسا والتى بسببها أكد كل منهما على أحقيـة تبعيتهـا له • واكتسب هنرى حقوقه عنـدما تزوج اليانور من اكويتين Eleanor of Aquitaine التى كانت زوجة للويس من قبل • وكان لويس قد طلقها لعدم قدرتها على انجاب ولد له • ولما تزوجت هنرى أنجب منها خمسة أبنـــاء ! (١) واختلف الملكان أيضـــا بســبب توماس بيكيت Thomas Becket رئيس أساقفة كانتر بيورى Canterbury وكانت الاجراءات القاسية التى اتخذها هنرى لتشويه سمعة هذا الأسقف تشويها كاملا دافعا له على الهروب الى فرنسا ، حيث وجد المأوى عند الويس • وأخيرا ظل لويس يشجع أبناء هنرى المشاكسين على تحقيق طموحاتهم الخاصة بالسيطرة على اقطاعات والدهم التابعة له فى فرنسا •

ومن ذلك فان تلك المنافسة كانت الصفة المميزة لملوك « العصور » الوسطى الذين تربطهم علاقات الجوار • ولم يكن يحمل أحدهما للآخر أى كراهية أو حقد • ويبدو أن هذين الملكين استفادا من علاقاتهما الزوجية القوية التى ربطتهما باليانور ، التى كانت عالية الهمة ، الأمر الذى جعلهما يشعران بمشاعر الرفقاء ، على أية حال ، رحب هنرى بالملك الذى تربطه به صلة القربى فى دوفر Dover ومنها اصطحبه الى مزار توماس بيكيت الشهير فى مدينة كانتر بيورى سنة ١١٧٩م • وقد حدث أن نال لويس شفاعة القديس لابنه العليل ، فليب Philip الذى كان يحتضر ،

وشاركه هنرى فى صلواته ، ولو كان هنرى يعلم ما تخفيه الأيام لما شارك لويس فى صلواته ، ولما سمح له بالقدوم الى كانتر بيورى ليلتمس شفاعة القديس العظيم • ذلك لان الصبى فيليب استرد صحته ، وأبان عهده التالى تحت اسم فيليب أغسطس (١١٨٠ - ١١٢٣م) فعل أكثر مما فعله أى ملك فرنسى • وكان ذلك على حساب انجلترا ومصالح هنرى هناك • وفى بوفين Bouvines احدى المعارك الفاصلة فى العصور ألوسطى ، أهال فيليب الجدار على هذه المصالح •

وأبدى فيليب الثانى ، والمشهور فى التاريخ باسم فيليب أغسطس قدرا يسيرا من الدلالة التى تبشر بعلو مرتقب فى التاريخ جعله ملك فرنسا الأعظم فى العصور الوسطى • وكان لايرى ألا بعين واحدة ، وربما كان ذلك سببا فى جعل الناس يتخذونه مادة للمزاح • بيد أنه لايوجد شيء يقلل من مكانه الرجل نفسه • وقليل من الحكام امتلكوا قدرا كبيرا من المعرفة العملية أو المقدرة والمثابرة لتحقيق أهدافهم • وبالطبع ليست كل تلك المثابرة وهذا الاصرار ضرورى ، وذلك فى الحالة التى ظهرت مع فيليب وزوجته أنجبورج Ingbeborg حيث طلق زوجته فى اليوم التالى لزفافها اليه • ثم اعادها فى النهاية الى قصره بعد عشرين عاما من المنازعات مع البابوية ، التى تصدت للدفاع عنها وحاربت من أجلها •

وكما حدث قدمت مشاكل فيليب مع زوجته أنجبورج مثالا واضحا آخر على اصراره ومثابرته• اذ كان قد تزوج أنجبورج شقيقة ملك الدانمرك سنة ١١٩٣م ، لكى يحصل على مساعدة الأسطول الدانمركى فى غزو انجلترا • سنة ١٢١٣ أعاد فيليب أنجبورج الى عصمته ، لكى يقود حملة صليبية بابوية ضد انجلترا عندما أراد البابا أنوسنت الثالث Innocent III عزل الملك حنا John • وتلك كانت الفكرة المتسلطة تسلطا مطلقا على فيليب وعاش لها طوال حياته • ولم يكن قانعا بحرمان ملك انجلترا من كل الاقطاعات التابعة له فى فرنسا فحسب ، وهو الشيء الذى حققه تقريبا ، وانما كان هدفه الأساسى هو التوحيد الفعلى لتاجى انجلترا وفرنسا بشكل واقعى تحت أسمه أو اسم أبنه •

تعلم فيليب ، منذ صباه ، أن ينظر الى انجلترا كعدو • بل ان أى شاب قليل النضج العقلى كان يدرك هذه الفكرة ، اذ كان هنرى ملك انجلترا يحكم أجزاءمن فرنسا تزيد على مساحة الأجزاء التى كان يحكمها والده لويس • على أن الأراضى التى امتلكها هنرى فى فرنسا كانت فى حوزته على انها اقطاعات تابعة لملك فرنسا ، وان على هنرى أن يقدم كل مستلزمات الولاء الاقطاعى المادية فى شكل خدمات أو أموال • على أن هذه

العلاقة الاقطاعية لم تخف حقيقة أن هنرى مارس نفوذا أو سلطة أكبر فى تلك الأقاليم . وجنى منها موارد مالية أكثر ممـا حصل عليه لويس . وربما قبل لويس هذا الوضع ، بيد أن أبنه فيليب وجد أنه أمر لا يمكن السكوت عليه .

واشتملت ممتلكات هنرى على سلسلة من الاقطاعات التى امتدت على طول كل الشاطىء الأطلسى من نورماندى فى الشمال الى أكويتين Aquitaine فى الجنوب . ولا يوجد ملك فرنسى لديه الوسيلة للعمل بطريقة أو بأخرى يقبل موقفا يرى فيه ملكا أجنبيا يدير شئون مساحات كتلك من الأراضى الفرنسية ، لذلك بذل فيليب كل جهد لتغيير ذلك المـوقف . وأولى فيليب معظم عنايتـه بأقليم نورماندى الذى يقع فى مواجهة بحـر المانش ، الذى يفصل بين انجلترا وفرنسا ، والذى من المحتمل أنه كان أغنى وأفضل الاقطاعات ادارة بالنسبة للاقطاعات التى كانت تحت يد ملك انجلترا . وابدى عناية أقل بأقليم اكويتين الذى كان بالجنوب ، وان كان أكبر الاقطاعات التى كانت تحت يد ملك انجلترا . بيد أنه من الصعب السيطرة عليه ، وفى نفس الوقت كان أبعد الأقاليم عن أنجلترا . أما أقليم تولوز Toulouse فقد تجاهله تقريبا ، كما تجـاهل الحملة الصليبية الاليجنسـية Albigensian Crusade التى كانت تقاتل هناك ، تلك الأقاليم التى فى الجنوب والجنوب الغربى يمكن تركها الى حين ، اذ كانت انجلترا أشد أعداء فيليب خطورة . لذلك ما أن وضع فيليب يده على نورماندى ، فانه لم يحقق لنفسه الامان من تهديدات انجلترا فحسب ، وانما جعل نفسه فى موضع يسمح له بتهديد انجلترا .

وباستثناء انجلترا أبدى فيليب اهتمـاما كبـيرا باقليم فلاندرز Flanders وذلك لان وقوع أقليم فلاندرز فى الشمال الغربى لفرنسا وفى مواجهة انجلترا ، اضفى على هذا الاقليم أهمية غير عادية ، اذ كانت هناك تجارة نشطة متزايدة بين انجلترا وأقليم فلاندرز تقوم على انتقال الصوف الانجليزى الخام الى فلاندرز فى مقابل المصـنوعات الصـوفية الفلمنكية . وكان لويس والد فيليب قد ادرك الأهمية الاستراتيجيـة للاقليم بالنسبة للدفاع عن فرنسا ، وكذلك الخطر الذى تشكله تجارة الأصواف على فرنسا فى المستقبل . وخطب لويس لابنه فيليب وريثة الاقليم المتاخم لاقليم فلاندرز من ناحية الجنوب ، والذى يقع فى المنطقة التى عرفت باسم أرتواز Artois فيما بعد . ثم تزوج فيليب الفتاة . وعندما كان فيليب فى سوريا مشاركا فى الحملة الصليبية الثالثة ، جاء نبأ وفاة والد زوجته . لذلك ترك ريتشارد قلب الأسد والحرب مع

صلاح الدين ليعود الى وطنه لوضع يده على أقاليم ارتواز الذى آل اليه بحكم الوراثة فى تلك الفترة الحرجة ٠

ومنذ أن غادر فيليب سوريا فجأة ، لم تعد هناك أى محبة أو ثقة بينه وبين ريتشارد ٠ اذ كانوا من قبل أصدقاء وحلفاء ، على عكس ما كان عليه الحال مع هنرى الثانى والد ريتشارد ٠ وكان فيليب أصغر سنا من ريتشارد ، بيد أنه كان أكثر دهاء من زميله القوى البنية ، وعمل على تقوية المشاعر الودية مع ريتشارد على أمل استغلاله ضد والده ٠ وكان قد قام بتشجيع ريتشارد الابن العاق ، فى طموحاته للسيطرة على اقطاعات هنرى فى فرنسا ٠ وهو مطمع سوف يؤدى الى اثارة الوالد على ابنه بالاضافة الى وضع ريتشارد تحت تصرف فيليب ، حيث كان فيليب واثقا من مقدرته على السيطرة عليه ٠ وتشمل تلك الاقطاعات الجزء الأغنى ، والأكثر سكانا فى امبراطورية هنرى التى عمل من أجل اقامتها بكل جهد منذ زمن طويل ٠ وبرغم أنها كانت مملكة مترامية الأطراف ، فان هنرى لم يكن مستعدا للتخلى عن ادارة أى جزء منها ليس لمجرد الأنانية ، وانما الخوف من أن اساءة أبنـائه لادارتها ، قد يسمح بتحويلها الى فيليب ٠ وفى النهاية انقلب كل أبناء هنرى على والدهم ٠ اذ قبل وفاة هنرى فى يوليو ١١٨٩ م ، قام ريتشارد بالتبرأ من ولائه لوالده ، وأعلن تبعيته الاقطاعية لفيليب با قطاعاته التى كا يملكها اسميا من والده فى نورماندى ، وأنجو Anjou

واذا كان فيليب قد أعتقد أن ريتشارد من الممكن أن يكون عدوا أقل عداوة من والده هنرى الثانى ، فانه كان مخطئا ٠ اذ عوض ريتشارد عن افتقاره الى القدرات الادارية والدبلوماسية بمعرفته للشئون الحربية وتمتعه بقدر من الشجاعة الشخصية ، التى توازنت مع تفوق فيليب فى درايته بفن ادارة شئون الدولة ، وابان فترة بقاء ريتشارد فى سوريا لمحاربة صلاح الدين كان فيليب قد دخل بقواته الى اقليم نورماندى بناء على تستر حنا John الأخ الخائن لشقيقه ريتشارد والذى أغراه فيليب فى خططه لاعتلاء عرش انجلترا ٠ وعندما عاد ريتشارد من الحملة الصليبية ومن سجنه فى ألمانيا ، استرد على الفور الأراضى التى كان فيليب قد وضع يده عليها ٠ ثم سلم ريتشارد الاقليم المعروف باسم فيسكن Vexin الى فيليب على أمل الوصـول الى تسوية دائمة معه ، وهذا الاقليم عبارة عن قطعة أرض مثلثة الشكل متداخلة بين أراضى نورماندى وأنجو ، وهى بمثابة مفتاح يمكن منهـا السيطـرة على نورمـاندى ٠ ولكى يحبط كل محاولات فرنسا للسيطرة على اقليم نورماندى ، شيد ريتشارد قلعة جيلارد Chateau Gaillard على جزيرة فى نهر السين Seine وهى أقوى

قلعة عرفتها غرب أوروبا ٠ وهكذا قابل فيليب شخصا لا يقل عنه فى شىء ويصعب عليه اخضاعه اليه ٠ على أنه لولا أصابه ريتشارد بالميكروبات من جراء جرح سهم (٢) أودى بحياته فى ابريل ١١٩٩ م ، لتغير مجرى تاريخ انجلترا وفرنسا ٠ولما كانت معركة بوفين Bouvines ، أو اذا مادارت رحى هذه المعركة ، لما انتهت بالنصر لصالح فيليب ٠

ووجد فيليب فى حنا شقيق ريتشارد خصما أقل تشددا ٠ الا أنه فيما يتعلق بمدى مواطن الضعف فى شخصية حنا فقد يختلف العلماء فى تقديراتهم ٠ وبصفة عامة ، وصفوه بأنه كان غادرا وقاسيا ، ولا يبالى من شىء ، وشديد الدهاء ومخادعا ، ومخلصا لوالدته فحسب ، اذ كانت والدته ايليانور Eleanor صديقة الاوحد ٠ وبرغم ماقيل عن حنا ، فانه كان من الممكن أن يترك سجلا تاريخيا ايجابيا فى صالحه ، لولا المؤرخون الديريون المعادون له الذين كانوا يخشون بأسه ، لولا المشاكل الخطيرة التى جابهته ٠ على أن العديد من تلك المشاكل كانت منصنعه ٠ ومن أمثال تلك المشاكل خلافه الذى طال أمده من البابا أنوسنت الثالث Innocent III بسبب ستيفون لانجتون Stephen Langton الذى أختاره البابا لمنصبرئيس أساقفة كانتربيورى ، بيد أن حنا لم يوافق عليه ٠ وفى هذا النزاع استطاع حنا أن يبرهن على أن أسلافه الملكيين قاموا جميعا باختيار الرجل الذى كان يشغل هذه الكرسى الاسقفى ٠ ومع ذلك فان رفضه المتشدد لقبول ستيفن ، وهو الموقف الذى جلب عليه صدور قرار الحرمان الكنسى ضده ، والكثير من البلايا على انجلترا ، لذلك يقع اللوم على عناده ، وعلى حاجته الى موارد الكنيسة المالية التى صادرها آبان دوام فترة الحرمان الكنسى ٠

وكان زواج حنا مفاجىء من ايزابيلا من انجوليم Isabella of Angouleme عقبة أخرى وضعها فى طريقه ، وربما كان الهيام بها هو الذى دفع حنا الى الزواج منها عندما قابلها فى اكويتين Aquitaine وهو فى طريقه الى كاستيل Castile حيث كان عليه اتمام استعدادات زواجه من وريثة البرتغال ٠ ويبدو أن والدة حنا باركت هذا الزواج ، وهى كانت مسنة ، بيد أنها ظلت متوقدة الذهن ، ويعنى ذلك انها كانت تتحكم فى المسائل الغرامية ٠ وكانت ايزابيلا وريثة لاقليم انجوليم ، وهو الاقليم الذى له تاريخ طويل فى معارضة الحكم الانجليزى فى اكويتين ٠ وكانت مخطوبة من قبل الى هوج براون Hugh the Brown من بيت لوزيجنان Lusignan وهى أيضا أسرة معادية للحكم الانجليزى٠وكان من الممكن أن يوحد زواج ايزابيلا من هوج تلك الاسرتين القويتين فى تحالف قوى ٠ معرضا للخطر أى أمل انجليزى فى السيطرة على أكويتين ، وبالمثل كان من الممكن أن

يقطع وسيلة المواصلات البرية بين آكويتين فى الجنوب ، والاقطاعات الانجليزية الاخرى فى الشمال ٠

وعلى الرغم من أن زواج حنا السريع يمكن تفسيره وفقا للدوافع الدبلوماسية ، فانه قدم لفليب أغسطس الذريعة القانونية لاعلان مصادرة اقطاعات حنا عندما تخلف عن المثول أمام القضاء فى باريس لسماع قرار المحكمة الاقطاعية ٠ وكان هوج وعائلة لوزيجنان قد ناشدوا الملك فيليب أن يدفع لهما التعويضات التى طالبوا بها بعد رفض حنا ٠ وكان اقحام فيليب نفسه فى هذا النزاع أمرا مناسبا تماما فى مثل هذه الحالة ، حيث أنه السيد الأعلى لكل من حنا وعائلة لوزيجنان ٠ ولا يستطيع أحد أن ينكر ابتهاج فيليب بسبب فشل حنا فى استرجاع عائلة لوزيجنان ٠ وكان فيليب قد أعد العدة لغزو نورماندى ٠ واذا لم يكن احتقار حنا للمحكمة برفضه الحضور أمامها لم يقدم المبرر لفيليب لاعلان مصادرة ذلك الاقليم ، لكان قد اخترع بعض المبررات الأخرى للغزو ٠

كان من الممكن أن يواجه فيليب صعوبات فى تنفيذ قرار محكمته فى باريس لولا الاخطاء الاخرى التى ارتكبها حنا ٠ اذ لم تكن نورماندى سعيدة فى عهد حكم حنا المتسلط ، وثار هذا الاقليم بسبب أعمال السلب والنهب التى مارستها قواته المرتزقة بصفة خاصة ٠ ومع ذلك فان أقليم نورماندى كان من الممكن أن يواصل بعزم وعناء فى مقاومته لفيليب لولا معاملة حنا لآرثر Geoffrey شقيق حنا الأكبر ، وكان كونتا Count وابنا لجوفرى Arthur كان آرثر هذا شابا فى الخامسة عشر ، لاقليم بريتانى Brittany بعد وفاة والده ٠ ولو أن قواعد الوراثة ثم تطبيقها بكل دقة لاعتلى آرثر العرش الانجليزى عند وفاة ريتشارد ، وهو الأمر الذى تمنى فيليب حدوثه ٠ بيد أن ريتشارد وايليانور أعلنا موافقتهما على اعتلاء حنا للعرش ، لان كل منهما شعر بعدم مقدرة آرثر على التصدى لخطة فيليب الماكر فى الاستيلاء على نورماندى ٠ والاقطاعات الانجليزية الأخرى ٠ ولفترة من الوقت أطلق فيليب العنان للأمل فى أن يعتلى آرثر العرش ٠ ولكن أخيرا فى سنة ١٢٠٠ م اعترف بحنا كملك شرعى على كل هذه الاقطاعات فى فرنسا ٠

ثم غير كل ذلك صدور قرار المحكمة فى باريس ٠ اذ اعترف فيليب على الفور بآرثر كحاكم على بريتانى ، ومين Maine وأنجو Anjou وآكويتين ، أما نورماندى فقد آلت الى فيليب مباشرة وفقا لقرار المحكمة ٠ وبدأ الموقف شيئا بالنسبة لحنا ، اذ كان على آرثر وعائلة لوزيجنان ، وأصدقائهم الاتجاه جنوبا الى آكويتين ، فى الوقت الذى اتجه فيه فيليب بقواته الى نورماندى ٠ وقامت قوات آرثر بهجوم سريع واحتلت مدينة

ميريبو Mirebeau التى تصادف وجود ايليانور ، والـدة حنا بها ٠ ونجحت ايليانور فى الهرب الى قلعة المدينة ، وأرسلت منها رسالة عاجلة الى حنا طلبا للمساعدة ٠ وهذه هى المرة الوحيدة فى حياته التى أبدى فيها حنا استعدادا حقيقيا وعن طيب خاطر ٠ اذ وصل على وجه السرعة ، لانقاذ والدته ، وأسر آرثر الذى لم يكن يتوقع ذلك ، وكذلك أسر لوزيجنان أثناء استغراقهما فى نومهما فى فراشهما ٠

وكان وقوع آرثر بين يدى حنا، نذيرا بتبدد أحلام فيليب التى ذهبت ادراج الرياح ٠ وعندما اختفى آرثر ، انطلقت شائعات ان حنا قتله فى ثورة غضب انتابته وهو ثملان ٠ على أن جريمة حنا الحقيقية أو المشكوك فيها جعلت المقاومة فى نورماندى والأقاليم الشمالية الأخرى ضد فيليب تتضـــائل ٠ وفى ديسمبر ١٢٠٣م ، تخلى حنا عن كل فرنســا باستثناء أكويتين ، على الرغم من صمود قلعة جيلارد Chateau Gaillard حتى مارس من العام التالى٠وبنهاية سنة ١٢٠٦ صارت كل الممتلكات الانجليزية فى فرنسا تحت سيطرة فيليب باستثناء أكويتين ٠

ولو أن حنا رضى بضياع تلك الأقاليم لتغير مجرى الحوادث فى غرب أوروبا ، أبان العقد التالى بشكل جوهرى ٠ وربما لم يصل الأمر فى انجلترا الى حد المواجهة كما حدث فى رنيميد Runnymede بين حنا وباروناته ٠ وربما لم يصدر العهد الأعظم Magna Carta ، نتيجة للاجراءات القاسية التى اتخذها حنا لجمع الأموال وحشد الرجال لاسترداد الأقاليم التى ضاعت فى فرنسا الأمر الذى أدى الى ثورة باروناته عليه ٠ ومن الواضح انه لم يكن هناك مبرر لوجود معركة بوفين ، اذ أن هـــذه المعركة دارات رحاها لتقرر بصفة نهائية اذا ما كان حنـــا قادرا على استرداد تلك الأراضى من عدمه ، (وكما سيتم ذكره فيما بعد ، صار فردريك Frederick ملك صقلية الصغير فردريك الثانى ، ملك ألمانيا ، نظرا لخوف فيليب من حنا، ومن أوتو الخامس حليف حنا الملك الذى كان يحكم ألمانيـــا ، الأمر الذى جعل فيليب يساعد فردريك فى طموحه ليحل محل أوتو) ٠

على أنه من الصعب ادانه حنـــا لجعله مسالة استرداد تلك الأقاليم هدفه الاسمى فى عهده حتى لو كان عناده ضمن القدر الوافر من عيوبه الشخصية اذ أن الواجب الأول لأى ملك يحتم عليه الحفاظ على ما ورثه عن أسلافه ٠ فاقليم نورماندى أكثر الممتلكات أهمية ، كان تحت حكم الانجليز منذ سنة ١٠٦٦م ، عندما جعل وليم دوقها من نفسه ، ملكا على انجلترا ٠ ومعظم الممتلكات الأخرى انضمت الى بريطانيا فى عهد والده هنرى الثانى، الذى كان كونتا على أنجو ، وبريتانى ، ودوقا على أكويتين عن طريق زواجه من أيليانور ٠

على أن آكويتين ، الاقليم الوحيد ، الذى ظل تابعا لحنا فى فرنسا لم يكن معرضا لخطر الضياع • اذ لم يمارس أبدا ملك فرنسا سلطة مباشرة على الاقليم ، بالاضافة الى أن الطبقة الارستقراطية به فضلوا ، من الناحية الفعلية دعاوى الملك الانجليزى البعيد عن دعاوى الملك الفرنسى القريب • اذ ظلوا على ولائهم لملك انجلترا طالما لم يحاول الانتقاص من تمتعهم بالحكم الذاتى • وابان الحكم الانجليزى للاقليم نشطت تجـارة الخمور المزدهرة بين انجلترا وبين جاسكونى Gascony فى أقصى الجنوب من اقليم آكويتين • أن الشعور الودى الذى فجرته هذه التجارة كان له تأثير وقوة عند سكان جنوب غرب فرنسا أكثر من الشعور القومى فى عصـر لم يكن لدى الانسـان سـوى القليل من الاحساس بهذه الفكرة العاطفية •

لقد أدرك حنا ادراكا كاملا قوة سحر المال ، كما كان حال والده • ولا ريب أنه لا يوجد شيء يمكن أن يحل محل المال فى كسب الرجال والمعارك • بيد أنه على حين أبدى هنرى اعتدالا فى زيادة الموارد المالية ، فان حنا لم يفعل ذلك•واستحدث هنرى البدلية Scutageوهى رسم يدفعه أتباع الملك الاقطاعيين اذا ما رغبوا ، بدلا من تقديم الخدمة العسكريـة المفروضة عليهم تجاه ملكهم • بيد أن هنرى فرض هذه الضريبة وفقـا للحاجة • لكن حنا لم يفعل كما فعل والده • اذ طلب البدلية سنويا حتى سنة ١٢٠٦ م ، ثم سنويا مرة ثانية من سنة ١٢٠٩ م الى أن ثار البارونات عليه • وبرغم ذلك فان المطالب المالية التى ألزم باروناته بسدادها ، من المحتمل لم تكن هى التى عجلت بقيام الثورة • وانما هناك حوادث أخرى وعلى رأسها هزيمة حلفائه فى موقعة بوفين (وسنرى تفصيلات فيما بعد)• وفى تلك الفترة وجد حنا فى الكنيسة الانجليزية ضحية أكثر استسلاما لسياسته المالية الاستبدادية ، فمنذ سنة ١٢٠٨ م حتى سنة ١٢١٣ م ، وهى مدة استمرار قرار الحرمان الكنسى الذى اصدره البابا ضد حنا ، قام موظفوه بمصادرة الموارد الكنسية ، وتركوا رجال الكهنوت يعيشون على الكفاف • وبفضل المبالغ الضخمة التى صادرها ـ كان حنـا على استعداد لسداد مايزيد على عشرة آلاف مارك Mark استأجر حنا القوات المرتزقة لحروبه ، هذا فى الوقت الذى أرسل فيه مندوبه ومعهم حقائب مملوءة بالذهب لشراء الاصدقاء من بين الطبقة الارستقراطية فى الأراضى المنخفضة ، أو ألمانيا •

(*) المارك وحدة نقد انجليزية قديمة تعادل ١٣ شلنا و ٤ بنسات • وتزن حوالى ثمانى أونسات أو ما يعادل ٢٢٦٫٨ أو ٤٨٫٨ جراما ـ المترجم •

لقد كان حنا فى أمس الحاجة الى الحلفاء بنفس قدر حاجته الى القوات المرتزقة ، من أجل تحقيق أمله فى استرداد الأقاليم التى صارت فى أيدى فيليب • وكان أقليم الفلاندر ، وكذلك الامارات على امتداد الحوض الادنى لنهر الراين منطقة حرجة ، غير أن نواب حنا توقعوا ان يفتحوا الابواب عن طريق المال • وكان فيليب مدركا لهذا الخطر • وأكثر مافى الأمر من خطورة هى علاقة الصداقة مع أقليم الفلاندر • ففى سنة ١٢١٢م سعى فيليب الى اتمام زواج وريثة ذلك الاقليم بفيراند Ferrand ابن سانكو الأول Sanch I حاكم البرتغال ، بل أنه عمل على أن يتم عقد زواج الخطيبين فى كنيسة القصر الملكى فى باريس • وربما كان الاجراء كفيلا بضمان ولاء لعريس الشاب لفيليب ، لولا قيام لويس بن فيليب بانتزاع العديد من مدن اقليم فلاندرز بموافقة والده ، ومن بين تلك المدن الموطن المزدهر لجماعة القديس أومير Saint - Omer فانضم فيراند الغاضب على الفور الى حلفاء حنا الذين تزايد عددهم • وانضمت كونتية بولون Boulogne ، التى تقع على الحدود الجنوبية لاقليم فلاندر الى حنا • وفى مايو ١٢١٢م ، قام رينومن دامارتين Renaud of Dammartin بقبول أقطاع مالى من حنا • علما بأن رينو هذا لم يحدث له أن احترم الشرف أكثر من المال • وعندما طرد فيليب المتشكك رينو من بولون ، صار الكونت رينو أشد اتباع حنا تحمسا فى منظمة التحالف الانجلو ــ جرمانى ضد ملك فرنسا •

والأمر الذى جعل هذا التحالف الشمالى خطيرا جدا على فيليب هو ولاء أوتو الخامس،ملك ألمانيا والامبراطور الرومانى المقدس لهذا التحالف• وكما جرت الحوادث ، أصبحت ألمانيا شريكا فى التحالف ليس بسبب الصراع بين حنا وفيليب ، وانما لان التاج الألمانى أصبح طرفا فى هذا النزاع • ولمعرفة الخلفية التاريخية للموقف فى ألمانيا ، فمن الضرورى العودة الى سنة ١١٩٧ م ، وهى السنة التى مات فيها هنرى السادس ملك ألمانيا والأمبراطور الرومانى المقدس • اذ أن موته المبكر ، وهو فى الحادية والثلاثين من عمره سبب الفوضى والشقاء لألمانيا • لانه ترك أبنه فردريك Frederick الذى لم يبلغ الثالثة من عمره ليحكم أراضى مترامية الأطراف • كما أن كونستانس Constance والدة فردريك هى ابنة لملك صقلية الأسبق ، وكانت ضمن امبراطورية هنرى السادس وعلى أية حال ، كانت كونستانس تأمل فى أن تستعيد تلك الجزيرة لابنها ونجحت فى ذلك ، وكان فيليب (من سوابيا Swabia شقيق هنرى السادس مبديا رغبة فى الاصرار على أن يتولى فردريك خلافة العرش فى ألمانيا ، غير أنه كان واضحا أن الأمراء الالمان لن يقبلوا

ملكا طفلا ، لذلك نادى بنفسه كمرشح لتولى العرش • واختارت الغالبية العظمى من الامراء فيليب ، على الرغم من أن مجموعة كبيرة قبلت من ريتشـارد ملك انجلترا الاموال ، وأعلنوا تأييدهم لابن أخت زوجتـه أوتو من برونسويك Otto of Brunswick

وفى ذلك الحين شهدت ألمانيا خمس عشرة سنة من الحرب الأهلية التى ليس لها هدف محدد ، برغم ما أحدثته من خراب ودمار ، التى لم تنته الا بقرار دخول معركة بوفين ، وبرغم خلافات أمراء ألمانيا التقليدية فانه كان فى امكانهم اختيار ملك لو تركوا لانفسهم بيد أن افتقارهم الى الوحدة جلب أليهم التدخل الاجنبى • وكان ملوك انجلترا وفرنسا والبابا أنوسينت الثالث على رأس هؤلاء الاجانب •

عمل ريتشـارد من أجـل اعتلاء أوتو للعرش • اذ أنه كان ابن شقيقة زوجته المفضل لديه • وكان أوتو قد تربى تحت رعاية البـلاط الانجلو ــ نورمانى حيث حظى بحب زوج خالته له نتيجـة لشجاعته ولياقته البدنية الفائقة • كما كان أوتو ممثلا لما أطلق عليه أسم مصالح ويلف Welf فى ألمانيا • ومصالح ويلف Welf كانت فى العادة غير استبدادية ، وهى تعنى أن الملك الويلف a welf monarch يكون راضيا بشـكل مسلم به على تـرك الولايات التى على امتـداد بحـر الشمال والحـوض الأدنى لنهـر الراين تقريبا جدا الى حكامها • وحينئذ تستطيع المصـالح الانجليزية أن تزداد قوة بالمثـل تقريبـا • ونظرا لـما حظى به أوتو من تأييد بريطانى قوى ، فانه كان فى امكانه النجاح فى توحيد ألمانيا لولا مواطن الضعف فى شخصيته اذ وصفه مؤرخ بأنه كان « متكبرا ، وأحمقا ، ولو أنه كان شجاعا » •

ونظرا لان ريتشارد • ومن بعـده خليفته حنا سـاعدا أوتو فى الصراع على التاج الالمانى ، لذلك كان من المسلم به أن يعـارض ذلك فيليب أغسطس ملك فرنسا ، وأن يؤيد ترشيح فيليب من سوابيا Philip of Swabia ملكا على ألمانيا •

كان فيليب أحـد أفـراد أسـرة الهوهنشتوفين Hohenstaufen أشهر أسرة فى تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى • وحكمت هذه الأسرة ألمانيا ابان النصف الثانى من القرن الثانى عشر • ففى عهد فردريك بارباروسا Frederick Barbarrossa (١١٥٩ ــ ١١٩٠) ، فاخرت ألمانيا به كأقوى ملك ومحارب صليبى فى أوروبا • وتمركزت مصالح الهومنشتوفن فى سوابيا وجنوب ألمانيا ، وهى الأقاليم التى كان لفيليب

بها مصالح قليلة • والعكس صحيح بالنســـبة لويلف Welfs والامراء الصغار على امتداد الحوض الاوسط والادنى لنهر الراين ، الذين تواجه اقطاعاتهم بلاد فيليب بالشرق •

أشار المؤرخون بصفة عامة الى البابا انوسينت الثـالث ، الذى غطت فترة بابويته تلك الفترة التاريخية الحرجة ، كأقوى بابوات أوروبا فى العصور الوسطى وأكثرهم طموحا • اذ كان اصلاح الكنيسة من بين أهداف انوسينت الكبرى ، وهو هدف كان من الممكن الا يحظى سوى باهتمام قليل من قبل الملوك لو أنه لم يتعرض لنفوذ الملوك فى اختيار الأساقفة والتى كانت بمثابة عائق أساسى فى وجه الاصلاح • ولكى يخفف البابا أنوسينت الثالث من ذلك النفوذ أن لم يكن فى استطاعته التخلص منه ، فانه دخل فى صراع مرير وطويل الأمد مع حنا ملك انجلترا الذى رفض الاعتراف بستيفن لانجتون Stephen Langton كرئيس لاساقفة كانتربيورى • أما فى حالة فيليب ، الذى اشتبك معه أنوسينت فى نزاع أيضا ، فان موضوع الخلاف كان شخصيا الى حد كبير • اذ كانت انجبورج Ingebarg زوجـة فيليب قد استغاثت بالبـابوية من أجــل استرداد حقوقها كزوجة شرعية لفيليب ، وشرع البابا فى مساعدتها • وفى هذه الحالة لم يكن الذى أنوسينت هدف يسعى الى تحقيقه سوى اقناع الملوك بأنه بالنسبة للاحوال الاخلاقية ، فانهم لايتمتعون بامتيازات خاصة تسمو على امتيازات أى قروى •

ان حادثة غير عادية عملت تعقيد العلاقات بين أنوسينت وألمـــانيا بالاضافة الى مركز الملوك الألمانى المهيمن الذى قد أعطاه الحق منذ أمد بعيد فى التدخل فى شئون الكنيسة الألمانية • تلك الحادثة هى النفوذ الذى مارسه ملك ألمانيا فى ايطاليا بمقتضى كونه امبراطورا رومانيا مقدسا وربما زاد طموح الملك الألمانى ، تحت هذا اللقب الى ممارسة السلطة ليس فى ألمانيا فحسب وانما فى ايطاليا أيضا ، وشمل ذلك روما مدينة البابا • ونظرا لان كل ملوك ألمانيا منذ سنة ١١٥٢م كانوا من أسرة الهوهنشتوفين، وحملوا لقب أباطرة رومان مقدسين ،فانهم ادعوا لأنفسهم سلطات قانونية كبيرة فى ايطاليا • ولذلك قام البابا أنوسينت بمساندة قضية أوتو من برونسويك Otto of Brunswick بشأن خلافة العرش منذ بداية النزاع باعتبار أن ذلك يبشر بتقليص التدخل فى ايطاليا الى الحد الادنى، فى المستقبل • لذلك بذل البابا ومستشاروه كل ما فى وسعهم من أجل تقديم الادلة القانونية عى « أحقية » أوتو فى عرش ألمانيا •

بدأ الصراع على خلافة عرش ألمانيا بمجرد وفاة هنرى السادس ملك

ألمانيا سنة ١١٩٧ م . ومرت سنة بعد أخرى ، من الفوضى والمنازعات ، بيد أنه لم يظهر ملك من بين تلك المحنة . وفى الوقت المناسب التف غالبية الأمراء حول فيليب من سوابيا ، شقيق هنرى ، أثر من أوتو من برونسويك . ولا شك أن عملية تفضيلهم من سوابيا تأثرت بفقدان حنا لاقليم نورماندى ، وتوقف تدفق الأموال الانجليزية . وفى سنة ١٢٠٦ م تدهور مركز أوتو فى ألمانيا الى الحد الذى أجبره على مغادرة البلاد . وبعد أن أدرك أنوسينت أن الوقت يضيع ، وعلى أمل انقاذ ما يمكن انقاذه ، توصل البابا الى اتفاق مع فيليب فيما يتعلق بحقوقهما الذاتية فى ايطاليا . وفى سنة ١٢٥٨م ، وفى الوقت الذى بدا فيه أن اختيار فيليب سيجعل ألمانيا تنعم بالسلام ، قضى خنجر عدو شخصى على الملك الجديد . عند ذلك كان الأمراء الألمان قد وصلوا الى حد الارهاق والانهاك ، فيما يتعلق بمسألة الخلافة على العرش . ومن ثم رفضوا كل البدائل الاخرى واختاروا أوتو Otto على الفور .

غير أن أنوسينت لم يكن لديه سوى وقت ضيق لينعم بهذا الكسب المفاجىء ، ونعنى بذلك ، اختيار الملك الذى كان يريده لعرش المانيا ، اذ فى خلال شهور قلائل كان أوتو يعلن مطـالبته بالأراضى والحقوق الأمبراطورية فى ايطاليا بنفس القدر الذى أكد عليه أباطرة الهوهنشتوفين . ولو وضع أوتو حدا لمطالبه لكان من الممكن أن يتسامح أنوسينت معه . اذ كان الأمر مختلفا عندما تحرك أوتو بقواته الى ايطاليا ، عبر الأراضى البابوية الى الجنوب الايطالى ، وأعد العدة لقيادة جيشه الى صقلية . فأعلن انوسنيت وهو فى حالة من الألم النفسى المبرح ، أنه ليس أمامه من خيار سوى التبرأ من أوتو ثم وافق على مرشح للعرش يمكن قبوله دون اعتراض كملك ألمانى وامبراطور رومانى مقدس . ولم يكن هذا الشخص سوى فردريك الشاب من بيت الهوهنشتوفين ، وهو أبن هنرى السادس الذى حكم ألمانيا وايطاليا . وحصل أنوسينت على وعد فردريك بترك صقلية لابنه هنرى ، على أن يظل هو فى ألمانيا شمال جبال الألب .

وسارع كل من أوتو وفردريك فى مغادرة شبه الجزيرة الايطالية الى ألمانيا ، وفقا لهذا التحول المفاجىء فى مصيريهما ، حيث سعى أوتو الى الاحتفاظ بسيطرته على البلاد ، أما فردريك فلكى يحصل على الموافقة هناك . على أن مصير الشاب الذى كان معلقا بخيط ، تحسن رويدا رويدا . اذ أن اسم الهوهنشتوفين جذب بعض الأمراء ، وبخاصة فى جنوب ألمانيا ونجح فردريك فى كسب النبلاء الاخرين بالدبلوماسية والامـوال التى قدمها اليه فيليب أغسطس ومن ناحية أخرى ، فان أساليب أوتو العنيفة بالاضافة الى افتقاره الى فن ادارة شئون الدولة ، وهدفه المكشوف بجلاء

الرامي الى السيطرة على ألمانيا لا مجرد حكمها، كل ذلك مجتمعا كلفه خسارة بعض الأصدقاء • ومع ذلك فطالما ظلت أموال الملك حنا تتدفق ، فان مركز اوتو في شمال ووسط المانيا بقي في امان •

وبناء على ذلك بدأت سنة ١٢١٣م ، وقد انقسم غرب أوروبا الى حلفين متحفزين • فالحلف الأول ضم أوتو الذى ظل ملكا لألمانيا فى نظر الكثير ، وحنا ملك انجلترا ، وكونت فلاندر ، بالاضافة الى غالبية الأمراء بالاراضى المنخفضة والحوض الادنى والاوسط لنهر الراين • أما الحلف المعارض ، فضم فردريك الذى نازع أوتو على عرش ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا • وكان أمام المتنافسين الكبار الكثير من المخاطر ، فبالنسبة لحنا كان النصر يعني تمكينه من استرداد اقليم نورماندى ، واقليم انجو ، اما الهزيمة فكانت ستكلفه ضياع أقليم آكويتين ، وستجلب عليه المتاعب من البارونات عند العودة الى وطنه بكل تأكيد وكان النصر يعنى لفيليب أغسطس تأمين سيطرته على اقليم نورماندى ومستقبل مشرف للطموحات الملكية لاسرة كابيه Capatain dynasty واذا ما أحرز أوتو وحلفاؤه النصر • فسيكون عرشه آمنا فى ألمانيا ، أما الهزيمة ، فكانت تعنى النسيان • واذا ما كسب فيليب أغسطس المعركة ، فسيكسبها أيضا فردريك الذى سيكون عندئذ حاكما على ألمانيا كملك وكامبراطور رومانى مقدس • أما اذا خسر فيليب المعركة ، فمن حسن حظ فردريك انه سيحتفظ بأملاكه صقلية •

واين كان يقف البابا انوسينت فى هذه المعركة المرتقبة ؟ انه لم يكن متأكدا تماما ، ومن حسن حظه انه لم يكن لديه ما يعلنه أكثر من الصلوات ذلك لأنه تحير فى اختيار الحلف الذى يعلن مساندته له • اذ بالطبع لابد للمسيحيين من محاربة المسلمين الذين استولوا على بيت المقدس لا أن يحاربوا المسيحيين الاخرين • فبالنسبة لملكى المانيا ، فردريك واوتو كان الاول من اسرة الهوهنشتوفين ، والثانى كان طموحا بنفس قدر أى فرد فى أسرة الهوهنشتوفين • ووجد انوسينت الثالث صعوبة فى تحديد ايهما اشد خطورة • وبالنسبة لحنا وفيليب فقد وضعاه فى نفس المازق • فللمرة الثانية لقى فيليب الحظوة عند البابا فى ذلك الحين لدرجة أنه اعاد زوجته أنجبورج Ingeborg اليه ، كما ان حنا لم يعد عدوا كذلك • ان امكانية اشتراك بارونات حنا الميالين الى اثارة القلاقل ، فى حرب مسيحية تؤيدها البابوية بقيادة فيليب عبر القناة الانجليزية لخلع حنا عن العرش دفعت ذلك الملك العنيد الى لاذعان لمطالب انوسينت اذ اعلن حنا قبوله ستيفن لانجتون Stephen Langton

ثم لجأ الى مناورة بارعة على أمل فشل حركة اعدائه ، وذلك بتسليمه انجلترا الى أنوسينت وتسليمها منه كاقطاعة • وذلك على أمل أن يحمى دوره الجديد كتابع اقطاعى للبابا من هجوم فيليب الثورة البارونية أيضا •

وكانت بعض المناوشات قد بدأت فى أواخر ربيع سنة ١٢١٣م • وحدثت فى اعقاب استعدادات فيليب وجمع اسطوله وقواته فى بولون Boulogne فى شهر ابريل ، ثم تحرك فى مايو الى جرافلين Gravelines على الحدود الفلمنكية Flemish border ولم يكد فيليب يصل الى ذلك الموقع الذى يسمح له بركوب متن السفن للعبور الى انجلترا حتى سلمه ممثلوا البابا أمرا بابويا بانهاء كل الاجراءات العدائية ضد حنا التائب فى ذلك الحين • غير أن فيليب الذى كان له تاريخ طويل فى تجاهل الأوامر البابوية ، قام بتجاهل هذا الأمر البابوى أيضا • وواصل احتلاله لعدد من المدن الفلمنكية بما فيها مدينتى بروج Bruges وجينت Ghent ثم تخلى عن التفكير فى غزو انجلترا عندما فاجأ أسطول « انجليزى أسطوله ودمر الجزء الاكبر منه • وكان هذا الاسطول الانجليزى تحت قيادة حاكم ساليزبيورى Earl of Salisbury والذى كان أخا غير شقيق للملك حنا • وزاد من شعور فيليب بالحزن وخيبة الامل اختيار كونتات بولون Boulogne وفلاندر وهولندا ، تلك اللحظة لاعلان انضمامهم الى حلف حنا •

لم تكن آمال حنا فى القضاء على فيليب واستعادة اقليم نورماندى، تبدو قريبة المنال • وفى أواخر يوليو سنة ١٢١٣ م • أرسل حنا وفد الى المانيا للانتهاء من اعداد الخطط الحربية لتحركات الجيوش • وكان على أوتو ومن معه من الحلفاء الفلمنكيين ، والذين يعيشون فى الحوض الأدنى لنهر الراين أن يقوموا جميعا بغزو فرنسا من الشمال الشرقى ، فى الوقت الذى يتقدم فيه حنا ، وما يستطيع تجنيده من الاصدقاء فى أقليم أكويتين عبر اللوار loire فى اتجاه باريس • وكما حدث ثم يكن أى من الجيشين على استعداد للتحرك • وكان حنا مصمما على التحرك للقتال ، بيد أن البارونات فى بلاده رفضوا ذلك • وتذرعوا بأنهم ليسوا ملزمين بتقديم الخدمة العسكرية لسيدهم الاقطاعى الأعلى وذلك لان تلك الحملة الحربية خارج حدود المملكة الانجليزية • ولم يكن فى مقدرتهم المجادلة على هذا النحو فى مواجهة هنرى الثانى والد حنا • اذ كان هنرى محبوبا للغاية من الشعب الانجليزى وقويا جدا الى الحد الذى يمكنه من قبول مثل ذلك التحدى • ومن المهم القول أن عدد

البارونات الانجليز الذين كان لهم اقطاعات فى اقليم نورماندى فى عهد هنرى ، فاق بكثير عددهم فى عهد حنا • كما أنه لابد لهؤلاء البارونات من فائدة تعود عليهم من أى عملية غزو • ومع ذلك فان عدد البارونات الذين احتفظوا بأراضى فى نورماندى كان قليلا • فى حين آن هنـــاك أعدادا كثيرة للغاية فى داخل انجلترا تتحدى حنا اذا ما تجرأ على معاقبتهم وعلى ذلك أرجأ حنا حملته العسكرية ، وهو يعانى من مرارة خيبـــة الامـــل •

وفى شهر فبراير سنة ١٢١٤ م ، تغيرت الظروف وأصبح حنـا قادرا على التحرك مرة ثانية • اذ نجح فى حشد جيش معظمه من القوات التى تقاتل مقابل رواتب • ووصلت تلك القوات الى بلده لاروشـــيل La Rochelle فى الخامس عشر من ذلك الشهر • وسارت الأمور على ما يرام فى تلك الفترة ، اذ كان هدف حنـا الفورى استعادة بواتو Poitou التى تقع شمال أكويتين ، وهو الأمر الذى دفع كثير من نبلاء اكويتين الى الاشتراك معه • واندفع حنا شمالا على وجه السرعة ، الأمر الذى جعل فيليب الذى كان يرقب تحركات الحلفاء الشماليين ، أن يتجه جنـــوبا عن طـــريق سومور Saumur وشـــينون Cninon ، فى محاولة للحاق بحنا ، وليقطع عليه خط التراجع الى أكويتين • ولو كان حلفاء حنا الشماليين على استعداد لشن هجوم فى نفس تلك الفترة ، لحدثت نهاية فيليب ،ومن سوء حظ حنا ، أن حلفاءه كانوا غير مستعدين، بالرغم من أن فيليب أعتقد أنه ليس من الحكمة أن يعهد الى كل جيشـــه بعملية مراقبة حنا • اذ عهد الى ابنه لويس بقيادة نصف القوات ، وعاد الى الشمال •

وعند اقتراب فيليب تراجع حنا جنوب نهر اللوار ثم عبره مرة ثانية وفى التاســـع عشر من يونيـــو حاصر قلعـــة لاروش ــ أو موان La Roche-au-Moine آخر عقبة فى طريقه الى باريس • ومع ذلك ، عندما جاء لويس بجيشه ، فك حنا حصاره ، ورجع ثانية صوب الجنوب• ولم يترك له حلفاؤه من البواتين حق الاختيار ، اذ رفضوا تماما ، أن يحاربوا ابن ســـــيدهم الاقطاعى الأعلى ، فيليب ملك فرنسا • وكل ما استطاع أن يفعله حنا هو التقهقر الى لاروشـــيل ليواجه مصيره الذى كان بأيدى أوتو المتوانى dilatory Otto وحلفائه فى الشمال •

وبعد انتظار طويل أعد أوتو حلفاءه للقتال • واذا ما وضع المرء فى اعتباره افتقار أوتو للكياسة فى التعامل مع زملائه الأرستقراطيين، لطال الانتظار لمدة أكثر لولا قيام رجال حنا باستخدام المال الانجليزى

فى سرعة الحركة الدبلوماسية • وأخيرا تمخضت أعمال هؤلاء المندوبين بالاضافة الى جهود أوتو الشخصية عن وجود حلف قوى يتكون من أدواق برابانت Brabant واللورين Lorraine وبولون Boulogne وهولندا ومن النبلاء الفرنسيين الذين تعرضوا للتشتت لخوفهم من فيليب أو من الذين طردهم • وكان كونت نيفر Nevers اكثر هؤلاء النبلاء شهرة • وأخيرا كانت فرقة انجليزية تحت قيادة حاكم ساليزبيورى • وتجمعت قوات الحلفاء فى هاينو Hainaut على مقربة من فالينسين Valenciennes على بعد بضع أميال من بيرون Feronne حيث يوجد فيليب وجيشه • وجاء اليوم المحتوم لكثير من السادة الاقطاعيين ولأربعة من الملوك ولممتلكاتهم جميعا •

وعلى الرغم من الأهمية غير العادية للمعركة المرتقبة ، فما زالت المعلومات التى بقيت عن عدد رجال الذين حاربوا فى كل من الجانبين أقل مما يتوقع المرء ، ويرجع ذلك للافتقار للدراسات الدقيقة ، وانما المشكلة هى الأسلوب المشكوك فيه الخاص بالاحصائيات التى تركها الكتاب المعاصرون والتى قام العلماء المعاصرون بتحليلها • حيث كتب المعاصرون لجمهور من القراء والمستمعين كان اهتمامهم بالاعداد الصحيحة يقل عن اهتمامهم بعنصر الاغراء الدرامى • ولماذا لم يكن الهدف هو اثارة اهتمام الجمهور والهاب خيالهم باستحداث أسلوب الحشو اللغوى عند ذكر الأرقام ، كما فعل ريتشارد من سين Richard of sens الذى ذكر أن جيش أوتو بلغ ما يزيد على مائة ألف مقاتل من المشاة ، بالاضافة الى خمسة وعشرين ألف من الفرسان • ومن الصعب الوصول الى الأرقام الصحيحة • وكذلك أيضا شعر المؤرخون الموثوق بهم بأنهم لم يجانبوا الصواب عندما افترضوا أرقاما تتناسب مع أهمية المعركة •

ولقد قام أومان Oman أشهر عالم انجليزى كتب فى فن الحرب بتخفيض الأرقام التى وردت فى المصادر المعاصرة على جيش فيليب الى حوالى ألفى وخمسمائة فارس ثقيل العدة ، وخمسة وعشرين ألفا من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان خفيفى العدة • وبالنسبة لاوتو وحلفائه خصص لهم حوالى ألف وثلاثمائة فارس وأربعين ألف من المشاة • ويرى العلامة الالمانى الكبير ديلبروك Delbruck أن عدد قوات فيليب من الفرسان زاد حوالى أكثر من ألف وخمسمائة فارس عن عدد فرسان أوتو ، فى الوقت الذى خفض فيه عدد المشاة فى كل من الجانبين، بحجة أنهم لم يلعبوا دورا مهما فى المعركة • أما العلامة الأمريكى بيلر Beeler فيرى أن الجيش الفرنسى تكون من ألف ومائتين من الفرسان ثقيلى

العدة(٣) ، وثلاثة آلاف من الفرسان خفيفى العدة وربما عشرة آلاف من المشاة • ونظرا لأن فيليب كان قد عين ابنه لويس قائدا على حوالى عشرة آلاف من قواته التى تحت قيادته ، وذهبت تلك القوات للتصدى لحنا ملك انجلترا ، لذلك استنتج بيلر أن القوات التى بقيت تحت قيادة فيليب والتى خاضت معركة بوفين ، لابد أنها كانت أقل من عدد قوات أوتو • أما المؤرخ الفرنسى فرديناند لوت Ferdinand Lot يرى أن جيش أوتو كان أكثر عددا من جيش فيليب بعض الشىء ، ويعتقد أنه كان الفا ومائة من الفرسان ثقيلى العدة • وعشرة آلاف من المشاة • ومع ذلك ، فقد كان للفرسان أهمية كبرى ، فى تحديد مصير المعارك ، وهنا كان لفيليب عنصر التفوق العددى و لنوعى • ومن المحتمل أن الفرسان الفرنسيين كانوا أفضل فرسان فى العالم ، وهذا التفوق يمكن ارجاعه الى خبراتهم فى الحروب الصليبية والأعمال الحربيـــة المستمرة التى شهدتها فرنسا على امتداد معظم القرن الثانى عشر •

وظل بعض الجدل قائما بشأن الدور الذى لعبه الرجالة فى معركة بوفين • اذ ورد ذكر جندى المشاة فى اشارة عابرة ، وهى حالة دفعت معظم الكتاب الى الاستنتاج أن دمره كان قليل الأهمية بالنسبة لنتيجة المعركة • ويبدو ذلك أمرا مدهشا لغرابته ، وذلك لأنه فى ذلك الوقت أثبت جندى المشاة أنه شريك لاغنى عنه للفارس عند محاربة المسلمين فى سوريا • وبالرغم من أن الموقف فى شمال فرنسا كان مختلفا عن الموقف فى ســوريا ، وفى الشرق الأدنى الشديد الحــرارة والجاف ، قام الجندى المسيحى من المشاة بدور الحاجز لحماية الفارس الثقيل العدة والبطىء عند الهجمات العنيفة التى قام بها الخيالة المسلمون الذين تميزوا بالسرعة فى الحــركة • فى حين أن المشاة فى غــرب أوربا لم يمارسوا مثل ذلك الدور ، بل أنهم كانوا خلف الفرسان أحيانا ، كما حدث فى معركة تاجليا كوزو Tagliacozzo (١٢٦٨ م) ومارشفيلد Marchfield سنة ١٢٧٨ م •

وربما كان السكسون Saxon خير جنود المشاة فى معركة بوفين • وكان الجــرمان أبطأ من الانجليز والفرنسيين فى التحــول التدريجى فى القتال كجنود مشــاة الى القتال كفرسان • وفى معــركة بوفين ظل كثير من السكسون يقاتلون كما كان يفعل أبناء عمومتهم من الأنجلو ــ ساكسون فى معركة هيستنجز • التى حدثت قبـل يومين بحوالى مائة وخمسين عاما • اذ حملوا رماحا بعضها من الخطاطيف تعمل على طرح الفرسان أرضا من على صهوة خيولهم ، وحملوا خناجر بيــا

ثلاثة أطراف لطعن نقاط الضعف فى عدة الفارس التى يرتديها · ولابد أن وجود هؤلاء الساكسون هو الذى دفع فيليب أغسطس الى قول عبارته المشجعة ، والتى يقال أنه وجهها الى جنوده قبل بداية المعركة مباشرة وهى « أن الجرمان سيقاتلون كمشاة أما أنتم يا أبنـــاء شعب الغال فستقاتلون ، وأنتم على ظهور الخيل دائما » ·

كان دور المشاة فى معـركة بوفين سنة ١٢١٤ م هو مسـاعدة الفرسان بصفة أساسية فيما عدا الساكسون · وفى نطاق ذلك كان جنـــدى المشـاة يحمل سيفا وحـربة ، ويحمل البعض الآخر القوس والنشاب ، فى الوقت الذى كان كل فرد منهم نفسه بقميص به دروع ووضع على رأسه قلنسوة من الفولاذ · وفى الوقت الذى كان على جنود المشـــاة اعاقة هجوم الفرســـان المعادين أو التصـــدى لهم الى أن يستعد فرسانهم للهجـوم ، فان مسئوليات الفرسان المساعدين بصـفة عـامة تحددت فى تزويد الفرسان الذين يفقدون مطاياهم بمطايا أخـرى ، وطعن خيول الأعداء ، اذا ما كانوا على مقربة شديدة ، وقتل أو أسر أى فارس سقط من على صهوة جواده ، بمجرد مشاهدته · وبعد مرور مائة سنة على معركة بوفين أحرز المشاة نصرا مؤزرا للفلمنكيين على فيليب الخامس ملك فرنســا عند كورتراى Courtria « ١٣٠٢ م » · ورغم ذلك أثبتت الهوسيت Hussites ، والسوسريون فى القرن الخامس عشر ان جندى المشاة قادر على القيام بمعركة هجومية ·

ان نوعية الملابس الحربية التى ارتداها الفارس فى معركة بوفين ، وكذلك الأسلحة الحربية التى حملها تعرضت لمجرد تغير طفيف فحسب ، منذ معركة هيستنجز ، اذ زاد طول غطاء درع قميصه المدرع ، وكذلك الجزء الأسفل من ذلك القميص الذى انشق الى دروع واقية للساقين امتـدت الى نهاية ربلة السـاق The Colf of the leg. وبدلا من القلنسوة المعدنيـة المخروطة الشـكل التى كان يستخدمها من قبل ، فانه وضع على رأســه خوذة على شـكل قدر من المعدن · وهى نوع من الخوذ المعدنية الاسطوانية الشكل بها شقوق طويلة وضيقة للعينين · وصارت الملابس الحربية أكثر سمكا ، وأكثر انتشارا بالنسبة لمدى تغطية الجسم · أما ترس الفـارس فقـد نقص حجمه · وحتمت الملابس الحربية الثقيلة استعمال مطايا اضافية ، اذ كان الفارس يمتطى جوادا الى المعركة ثم ينتقل الى جواد آخر غير مجهد عند الدخول فى المعركة · واتبع الفارس أيضا طريقة مختلفة فى استخدام رمحه ، فبدلا من رميها تجاه العدو أو استخدامهـا كخنجر مستطيل ، فانه فى ذلك الحين ثبتهـا

على كتفه أو على ذراعه ، وبذلك تمكن من تسديد ضربة أشد تأثيرا الى عدوه ·

على أن جواد الفارس الذى ليس عليه ما يحميه من دروع ظل نقطة الضعف فى عدة الفارس الحربية ، لذلك صار هدفا لهجوم العدو أكثر من الفارس نفسه الذى ازدادت دروعه احكاما · ومنذ منتصف القرن الثانى عشر بذلت الجهود لحماية الجواد ، بيد أنه ظل أكثر تعرضا لضربات الأعداء من راكبه · وعلى سبيل المثال ، أمر شارل من أنجو Charles of Anjou رجاله بتركيز هجومهم على الخيول ، لا على راكبيها · وذلك فى معركة بنفنتوم Beneventum سنة ١٢٦٦ م · وما أن فقد الفارس جواده حتى أصبح لا حول له ولا قوة تقريبا · ذلك كان مصير رينو Renaud كونت بولون Boulogne الشجاع ، فى معركة بوفين ، الذى وجد ساقيه مثنية تحت جواده عندما تعرض الجواد الى اصابة طرحته أرضا · وأوشك أحد جنود المشاة أن يقتله بعد أن صفعه على وجهه · لولا أن أنقذه أربعة من الفرسان · كانوا يتنازعون بشأن من له الأحقية القانونية فى وضع يده على هذا الأسير المهم جدا ·

على أن الوسائل التى اتبعوها من حنا ، وفيليب ، وأوتو لجمع المجندين لجيوشهم فاقت فى أهميتها عمليات التطوير التى أجريت على العدد الحربية أو أساليب القتال منذ معركة هيستنجز · كانت التقاليد الخاصة بالخدمة العسكرية التى يؤديها الرجال الحاصلون على اقطاعات لمدة أربعين يوما كل سنة قد تحولت تدريجيا الى رسم عرف باسم البدلية Scutage حيث كان للفرد الفارس حق الاختيار فى سداد مبلغ بدلا من الخدمة العسكرية · وفضل كثير من الناس دفع لبدلية على تأدية الخدمة العسكرية · على الرغم من أن البارونات بصفة عامة اختاروا قيادة التابعين لهم ربما بسبب الشهرة التى كان لديهم أمل فى احرازها وعلى الأرجح ليظلوا يلقون الحظوة عند ملكهم ، والذى كان سيدهم الاقطاعى الأعلى · وفضلت المدن والمؤسسات الكنيسية دفع الرسم ، على الرغم من مدن آميين Amiens وبوفياس Beavines وكومبين Compiegne وآراس Arras أرسلت رجالها للقتال فى بوفين · على ان الفائدة الكبرى التى حققتها البدلية للملك ، هى أنها مكنته من جمع جيش من المرتزقة ، وعين قادة على ذلك الجيش وفقا لاختياره · وشكل حشد فيليب لحوالى سبعة وعشرين ألفا من الجنود وتقسيمهم ميدانيين تحولا أساسيا فى نظم حشد القوات منذ

أن أعد كل من هارولد الانجلو ـ سكسوني ، ووليم النورماندي جيشهما لخوض معركة هيستنجز .

ان الميزة التي لا ريب فيها والتي تفوق بها فيليب على أعدائه في بوفين ، بصرف النظر عن التفوق العددي عنده في الفرسان هي حقيقة أنه كان له وحدة حق السلطة القيادية على كل قواته دون منازع (وعين الأسقف جيورين Guerin ، وهو اسبتاري Hospitaller سابق كقائد أعلى للتنظيم والادارة في الجيش) . والعكس صحيح بالنسبة لاوتو . واذا ما أشار المرء الى الافتقار الى عناصر التلاحم والانجاه كنقطة ضعف صارخة في الجيوش الاقطاعية لتلك الفترة ، فان نقطة الضعف تلك ، ظهرت بوضوح في جيش أوتو ، الذي تكون من جماعات من المحاربين من عدد مختلف من الولايات . اذ قد يتفق أوتو وحلفاؤه على عمل عسكري ، بيد أن جيوشهم ظلت دائما كوحدات منفصلة تحت قادتهم المباشرين ، الذين قد يغيرون الاتجاه ليتحولوا عن أي خطة استراتيجية ، اذا ما شعروا أن مصلحتهم اجراء ذلك . ولقد انكشفت خطورة القيادات المقسمة في معركة بوفين عندما أمر دوق برابانت Brabant رجاله بالانسحاب من ميدان القتال مما أدى بوضوح الى الانهيار الكامل لجيش الحلفاء .

حشد أوتو وحلفاؤه قواتهم في نيفيل Nivelles أولا الى الجنوب من بروكسيل Brussles ثم تحركوا في الثالث والعشرين من يوليو الى فالينسين Valenciennes ثم الى هاينوت Hianaut وفي ذلك اليوم نقل فيليب جيشه من بيرون Peronne الى تورناي Tournai ربما بقصد منع أوتو من الوصول الى القناة الانجليزية . على أية حال ، لم يتأكد أي من الجيشين من مكان وجود الآخر ، وهو الأمر الذي يفسر سبب وجود الفرنسيين الى الشمال من الجيش المحالف . وما ان اكتشف فيليب موقع جيش أوتو ، حتى غير اتجاهه بسرعة ، وتحرك جنوبا في اتجاه ليل Lille حيث توقع منطقة بها أراضي منخفضة ، ورخوة ومستنقعات أقل . ومن الأهمية القصوى أن يقاتل فيليب على أرض صلبة ، ذلك لأنه وضع كل آماله في فرسانه . وفي صباح السابع والعشرين من يوليو وصل فيليب بوفين ، بيد أن الأرض كانت رخوة ، لذلك أمر جنوده المشاه بالتحرك غربا عبر الجسر الوحيد المقام فوق نهر مارك Marq. في تلك المنطقة . وما ان تقدم هؤلاء الرجال حوالي أربع كيلو مترات خلف الجسر حتى وصلتهم أوامر عاجلة بالعودة الى بوفين . اذ بلغ فيليب نبأ تقدم جيش أوتو ، وأن بعض

القوات الغازية كانت بالفعل فى حالة قتال مع مؤخرة جيشه · ومن الواضح أن أوتو تحرك بأسرع مما كان يتوقع فيليب · وربما كان يأمل أوتو فى قطع خط الرجعة على فيليب تجاه باريس ، الأمر الذى ترك فيه فيليب ملك فرنسا معزولا فى بلاد الغال المعادين له ·

وللمرء ان يتوقع بالنسبة للجيشين ــ تحرك أوتو الى الامام تجاه الغرب فى محاولة للحاق بفيليب ، واتجاه فيليب شرقا ، وجنوده من المشاة تنطلق مسرعة عائدة عبر نهر المارك ــ ان أوتو كان أكثر استعدادا الغرب فى محاولة للحاق بفيليب ، واتجاه فيليب شرقا ، وجنوده من تحرك جيشه ، ولم يحدث التحول سوى القليل من الفوضى نظرا لشدة انضباط قواته · وعندما اندلعت نيران المعركة اتخذ المشاة موقعهم الصحيح أمام الفرسان · ومن ناحية أخرى ، فان جيش أوتو لم يكتف بالتقدم فى جبهة ضيقة ، وتحرك على صورة خط طويل لمسافة عدة أميال فحسب ، وانما اندفع بسرعة متلهفا للحاق بالفرنسيين ، الأمر الذى هدد تماسكه · ولذلك كتب فيربروجين Verbruggen ، « يبدو أن سرعة تحرك قوات أوتو كانت السبب فى هزيمتهم الى حد كبير » (٤) ·

ويبدو أن فيليب كان واثقا تماما من هزيمة العدو · ولو أنه ركن الى الهواجس لتجنب المعركة باستمراره فى تحريك قواته تجاه الغرب عبر نهر المارك · ولا ريب أن فيليب كان لديه وقتا كافيا لمواصلة المسير بثبات ، اذ ان جنود المشاة الذين كانوا على بعد أربع كيلو مترات خلف النهر استطاعوا العودة على الفور واتخاذ مواضعهم أمام الفرسان فى مواجهة الشرق ، على ان اختيار فيليب مقاتلة أوتو ، وهذا النهر من خلفه حيث يوجد جسر وحيد يسمح له بالهروب انما ينم ذلك كله على تفاؤله · ويقال ان أوتو كان مندهشا لوجود كل جيش فيليب على استعداد للقائه فى بوفين وليس مجرد الجزء الذى بقى شرق نهر المارك وادرك رينو كونت خطورة الموقف ، وحذر أوتو من القتال ، بيد أن الامبراطور رفض الاستماع الى تلك النصيحة ·

واتخذ الجيشان مواقعهما للمعركة القادمة ، وكان فيليب فى قلب الجيش الفرنسى مواجها الشرق ، ووجد نفسه أمام أوتو الذى ساعده فرسان اللورين ومشاة الوستفاليان سكسون Westephalian Saxon وعلى ميسرة أوتو كان هناك رينومن بولون ، وكونت ساليزبيورى ، ومشاة من برابانت · وتحت أشعة الشمس ، وبعد منتصف النهار بوقت قليل فى يوم الاحد الموافق الخامس عشر من يوليو ، بدأ الرماه بالقوس والنشاب من الفرنسيين يطلقون قذائفهم وبدأت المعركة ·

ونحركت ميمنة الجيش الفرنسى تحت قيـــادة الاسقف جيورين Guerin بعد قتال عنيف ، أجبروا الفلمنكيين على الارتداد ، وأسروا كونتهم فيراند Ferrand • وحقق فيليب وقلب جيشه نجاحا أقل • وشن المشاة من السكسون هجوما شرسا قضوا فيه على قوات المشاة من الشعوب الفرنسية • ووجد فيليب نفسه وقد تم طرحه أرضا بعد أن سقط من على صهوة جواده•وكان من الممكن قتله لولا بيتر ترستان Pierre Tristan الذى اتخذ من جسده درعا واقيا لجسد فيليب وحماه من أى ضربة قاتلة الى أن أتى الفرسان الفرنسيون لنجدته • وتعرض أوتو لموقف مماثل • وبعد فشل محاولات عديدة لاحضار الجواد الملكى الذى كان يمتطيه ، قتل أحد المشاة ذلك الجواد بعد ذلك • وحاول أوتو النجاة من الأسر على جواد أحضره اليه تابعه برينهارد من هورتسمار Bernard of Hortsmar كان القتال بين ميسرة الجيش الفرنسي ومشاة البرابانت Brabantine infantry أشد شراسة وأكثر خطورة • وما أن أعطى دوق برابانت Brabant الأوامر بالتراجع حتى سادت حركة عامة من الانهيار كل الجيش على الفور • وهناك بعض الاشارات التى تدل على أن فيليب كان قد قـــدم الرشوة الى ذلك الدوق • كما كانت بعض التشكيلات بما فيها قوات من البرابانت ، وليمبورج Limbourg والبروج Bruges والجنت Ghent ، الذين وصلوا مؤخرا قد قررت عدم الدخول فى المعركة عندما علموا بسريان مصائر المعركة • وهذا يعنى أنه فى الوقت الذى كان فيه حلفاء أوتو أكثر من حلفاء فيليب من الناحية التنظيمية أو على الورق فحسب طالما أن أعداد كبيرة لم تدخل المعركة •

ويقول أومان أن المعركة استمرت ثلاث ساعات ، ويقول فيربروجين Verbuggen انها استمرت أطول من ذلك ، بيد أن العلماء الآخرين يشكون فى ذلك ويشيرون الى العدد القليل للمشهورين من الرجال الذين ورد ذكرهم بين القتلى•فعلى سبيل المثال ، لم يذكر المؤرخ ميلروز Melrose سوى ثلاثة من الفرسان من بين القتلى فى معركة بوفين • وأقل من مائة فارس من جيش الغزاة ربما حوالى سبعين ، كانوا من بين القتلى على الرغم من وجود أكثر من مائتين من الأسرى(٥) • وكان كونت فلاندر ، وكونت بولون من أهم الأسرى الذين وقعوا فى يد فيليب • وترك فيليب كونت بولون فى السجن ثلاثة عشر عاما حتى مات فيما بعد • وقضى كونت فلاندر نفس المدة فى السجن الجديد فى لوفر Louvre ، قبل أن يسمح فيليب للنبلاء الذين عوقبوا لفترات طويلة بالعودة الى أقاليمهم :

تكشـف معـركة بوفين عن نصر مبين بالنسـبة الى فيليب • اذ أصبحت بلاد الفلاندر ، وبولون ، فى الشمال تحت قبضته ، ولم يعد

هناك أدنى شك في أن نورماندى ، وأنجو : والاقاليم الاخرى : شمال نهر اللوار ستكون تحت حكم الملك الفرنسى • وهكذا قدر لبيت كابيه Capetian house البقاء فى باريس والاستقرار على العرش الفرنسى • لقد أضاعت بوفين آخر أمل عنده حنا لاستعادة الاقاليم التى كانت تحت سيطرة والده هنرى الثانى فى فرنسا • وتوالت النكبات • اذ لم تكد أنباء بوفين تصل انجلترا حتى بدأ باروناته فى تنظيم هجوم ضـــد « طغيانه » ولولا الهزيمة فى بوفين لما ظهر العهد الاعظم Magna Carta بكل ترجيح •

أما بالنسبة لاوتو كانت بوفين تعنى نهاية المطاف اذ تعرض لحياة كلها متاعب مستمرة حتى وفاته سنة ١٢١٨م فى هارزبورج Harzburg وهى قلعة تقع فى بوردنسويك Brunswick وهى ولاية صغيرة آلت اليه بالارث بعد أن نجح فى التمسك بها • وأعتلى فردريك الثانى عرش ألمانيا برغم أنه لم يشارك فى معركة بوفين • ان فردريك الثانى مدين بتاجه لفيليب ، وكذلك أيضـا بالعربة الامبراطورية التى عليهـا صـــورة العقاب وتنين ، التى كان يستخدمها أوتو الذى لاذ بالفـرار • وادعى لنفسه حق استخدام لقبى ملك ألمانيا والامبراطور الرومانى المقدس برغم أنهما لم يكن لهما مظاهر الاجلال ابان عهد جده الهوهنستوفين ، فردريك برباروسا • وبفضل انتصار فيليب والجيش الفرنسى فحسب، آلت الالقاب الى فردريك الثانى • وبزغ فجر عهد جديد على غـــرب أوربا • وصلت فرنسا محل ألمانيا كقوة فعالة فى غرب اوربا ، وتأسف المؤرخ لوتربرج Louterburg ان سمعة الالمـان انخفضت فى الحضيض بين الاجانب •

٧ ـ معركة كريسى

لو أن لويس التاسع كان أقل تمسكا بالتعاليم الدينية ، ربمـــا لما حدثت حرب المائة عام ، وبنـــاء عليه لم تكن هناك معركة كريسى Crecy • وكان هنرى الثالث ملك انجلترا ، وصهر لويس قد حرض النبلاء المتمردين بفرنسا فى جهودهم الرامية الى خلع لويس عن العرش مرتين • ومن ثم توافرت المبررات لطرد هنرى والانجليز خارج فرنسا • (كان الانجليز يسيطرون على أقليم جاسكونى Gascony فى جنوب غرب فرنسا) • وكان لويس قادرا تماما على طرد الانجليز ، ولم تكن انجلترا على عهد هنرى المستقيم أخلاقيا ، وان كان ندا ضعيفا لفرنسا • بيد أن لويس لم يكن لديه رغبة فى محاربة المسيحيين ، هذا فضلا عن أصهاره • اذ كان يرى أن على الحكام المسيحيين أن يعيشوا فى وئام ، وأن يشاركوا بمواردهم فى الصراع الذى لا نهاية له مع المسلمين فى سوريا • (تولى لويس قيادة الحملتين الصليبيتين الاخيرتين) •

ولم يكتف لويس بالسماح للانجليز بالاحتفاظ بأقليم جاسكونى فحسب ، وانما صدق على معاهدة باريس (١٢٥٩م) ، التى منحت هنرى أحقية امتلاك ذلك الاقليم بل وسلمه العديد من الاراضى المجاورة على أمل أن يكون هنرى والانجليز قانعين • وقام هنرى من جانبه بأعلانه رسميا تخليه عن الادعاءات الانجليزية بالمطالبة بنورماندى ، وانجو ، والاقاليم الاخرى شمال نهر اللوار ، التى كانت تحت يد جده هنـرى الثانى ، والتى أخذها فيليب أغسطس من حنا ، والد هنرى • ونظرا لعدم وجود بارقة أمل لاستعادة تلك الاقاليم ، لذلك قدم هنرى قليلا من التنازل فى معـاهدة ١٢٥٩ م عن طيب خاطر ، اذ قبـل أن يفى بالتزامات التبعية الاقطاعية الى لويس بالنسبة لجاسكونى • ولهـــذا السبب استمرت انجلترا فى ادارة شئون ذلك الجزء من فرنســا ،

واستمر ذلك الوضع حتى اندلاع حرب المائة عام . ومما يؤكد على ما سبق ذكره ، ونقصد أن صبر لويس على هنرى ، عندما سمح له بالاحتفاظ بجاسكونى قد أدى فى نهاية الأمر الى قيام حرب المائة عام ، اذ بحلول القرن الرابع عشر ، وجد الفرنسيون أن التواجد الانجليزى فى جنوب غرب فرنسا لم يعد أمرا يمكن احتماله .

لم يسجل التاريخ عداوات بين شعبين مثلما حدث بين الشعب الفرنسى والانجليزى منذ سنة ١٠٦٦م ، عندما نجح وليم دوق نورماندى فى هزيمة هارولد الانجلو ـ سكسونى فى هيستنجز ، الى أن تحالفا سنة ١٩٠٤م نتيجة لخوفهما من ألمانيا . اذ أن انتصار وليم سنة ١٠٦٦م جعله ملكا على انجلترا ، ودوقا لنورماندى ، وهو الاقليم الذى ربما كان أهم أقاليم فرنسا فى ذلك الحين . وكان غرب أوربا فى فى العصر الاقطاعى مستعدا تماما لقبول وضع يحكم فيه ملك أجنبى أقليما كبيرا فى مملكة ملك آخر . بل أنه أذعن بالقبول عندما حكم هنرى الثانى ملك انجلترا اقليم ، أنجو ، وأكويتين ، وبريتانى ، وأقاليم أخرى كتابع اقطاعى للملك الفرنسى . وفى الحقيقة أدار الشئون الداخلية لاراضى فرنسية أكثر من الاراضى التى كانت تحت يد الملك الفرنسى فى أواخر القرن الثانى عشر .

ولم يستطع فيليب أغسطس الموافقة على ذلك ، كما أن انتصاره على الجيش المتحالف فى بوفين سنة ١٢١٤م ، قدم له ما يبرر غزوه لنورماندى ، وأنجو ، وكل الاراضى التابعة للانجليز ، والواقعة شمال نهر اللوار . وكأن عصر الاقطاع قد اتخذ طريقه للزوال رويدا رويدا ، فى عهد فيليب أغسطس . وفى أوائل القرن الرابع عشر كان قد انتهى تماما . وما كان يمكن قبوله كأمر مناسب سنة ١٠٦٦م ، وأنه ليس مخالفا للقواعد والأصول بشكل واضح ابان حياة هنرى الثانى ، لم يعد فى الامكان قبوله فى القرن الرابع عشر . ان سيطرة ملك انجلترا الاجنبى على جزء كبير من جنوب غرب فرنسا ظل السبب الرئيسى لحرب المائة عام .

ان ملوكا من نوعية مختلفة عن نوعية ادوارد الثالث ملك انجلترا ، وفيليب السادس ملك فرنسا . اللذان كانا فى السلطة سنة ١٣٣٧ م ، عندما بدأت حرب المائة عام ، كان من الممكن أن يقبلوا الوضع البغيض فى اقليم جاسكونى . والحقيقة أن الموقف فى جاسكونى كان سيئا ، وفى سنة ١٣٠٤ م ، كاد ادوارد الأول ، وفيليب الرابع أن يقتتلا ، اذ أن حدود اقليم جاسكونى كانت غير واضحة ، وكذلك حقوق

الاقطاعيين الصغار ، فيما يتعلق بامتيازاتهم الاقطاعية • لذلك كانت الخلافات والمنازعات متكررة ، وكذلك كانت الدعاوى القضائية التى عرضها الأتباع الاقطاعيون المتضررون أمام محكمة الملك فى باريس ضد موظفى التاج البريطانى فى جاسكونى •

ومع ذلك لم تبدأ الحرب فى عهدى ادوارد الأول ، وفيليب الرابع . ولا فى عهد خلفائهما المباشرين ، وانما قامت الحرب فى عهدى ادوارد الثالث ، وفيليب السادس • وكانت رغبة ادوارد الثالث فى تحقيق الشهرة العسكرية أحد أسباب تلك الحرب • حيث شبه بعمه الأكبر ريتشارد قلب الأسد الشهير • غير أن ادوارد كانت تنقصه شجاعة ريتشارد الشخصية ، بيد أنه شاركه فى مقدرته على قيادة الرجال فى ميدان القتال ومهارته فى فن تنظيم القوى الحربية وتحريكها للقتال • ولم يحب الرجلان شيئا أكثر من حبهما لمهاجمة عدو ، ومعهما باروناتهما وهما واثقان من الحاق الهزيمة بذلك العدو • ونظرا لأن الحرب تمهد السبيل لأسرع طرق الشرف والمجد ، لذلك فان ادوارد لم يجد صعوبة فى اقناع نفسه بايجاد المبررات فيما يتعلق باقليم جاسكونى •

وكان فيليب السادس ندا لادوارد فى الشجاعة وحب الفروسية • (أوجد فيليب أعلى لقب يمنح فى مراتب التشريف فى فرنسا وهو The Order of the Star وأوجد ادوارد أعلى لقب يمنح فى مراتب فى انجلترا وهو The Order of The Garter ومع ذلك كان فيليب تنقصه مقدرة ادوارد فى التأثير على الرجال ، ودفعهم الى التحفز هذا من ناحية ، كما أنه كان قليل البراعة فى وضع الخطط وادارة العمليات الحربية من ناحية ثانية • وكان فيليب مترددا من حين الى آخر ، ويسمح للآخرين بالتحكم فيه ، واذا ما فقد السيطرة على أعصابه ، كان عرضة للتصرف بتهور • على أن كليهما لم يبد اهتماما بالادارة الحكومية الدقيقة • فبالنسبة لادوارد لم تكن هذه مسئوليته القانونية ، منذ أن كان للمحكمة الانجليزية الأحقية أولا ، ذلك بفضل الانجاز الوطيد الذى أقامه هنرى الثانى (١١٥٤ ــ ١١٨٩ م) • وكانت محكمة فيليب أقل مركزية ومقيدة دائما فى عملها بوجود أربع اقطاعات كبرى مستقلة فى جاسكونى ، وبريتانى ، وفلاندر ، وبورجوندى • وربما نجح ادوارد فى أن يكيف نفسه مع سياسة مستقيمة وثابتة تجاه المحكمة الفرنسية فيما يتعلق بحقوقه ومسئولياته فى جاسكونى • بيد ان فيليب السادس لم يكن من نوعية الملك القادر على اجبار المحكمة الفرنسية على أن تقدم له ذلك التوافق •

ان اشارة الحرب ظهرت فى مايو سنة ١٣٣٧ م عندما أمر فيليب بمصــادرة جاسكونى وهى المصــادرة الثالثة التى حدثت فى مدى نيف وأربعين عاما • واذا ما كانت أى حــرب حتمية ، فان الحرب بين فيليب السادس وادوارد الثالث يمكن أن تستحق هذا القول • ان ملوك القرن الرابع عشر أصبحوا أكثر مثابرة فى جهودهم للسيطرة على أفضالهم • وان طموح فيليب فى اجبار أتباعه الاقطاعيين فى جاسكونى على قبــول قانون يجعلهم أكثر اقترابا منه ، كان مرتبطا بالتعجيل بموقف خطير وذلك لسببين : أولهما ، ان ملك انجلترا الذى كان يحــكم دوقيــة جاســكونى لم يكن على اســتعداد للاستسلام للأساليب المتنمرة التى مارسها الموظفون الفرنسيون فى جهودهم لاضعاف الحكم الذاتى لاتبــاع الملك الاقطاعيين عن طيب خاطر • وثانيهما ، أن جاسكونى أمدت الملك الانجليزى برأس جسر مهم فى فرنسا اذا ما رغب فى استغلاله ، ولهذا السبب ، فان الملك الفرنسى كان قلقا بصفة خاصة بشــأن الاصرار على اعتراف ادوارد بالمعانى الكاملة المتضــــمنة لمركزه كتابع اقطاعى لملك فرنســا •

وفى السنوات التى تلت تتويج فيليب ســنة ١٣٢٨م ، ازدادت حساسية ادوارد بالنسبة لمركزه « كتابع » فى جاسكونى • وكانت ايزابيلا Isabella زوجــة ادوارد الثــــانى المخــلوع ، وعشيقها روجر مورتيمر Roger Mortimer يحــكمان انجلترا ابان تتــــويج فيليب ، ولذلك فان غياب التابع الاقطاعى الانجليزى ، وعدم دفعه التزامات التبعيــــة الاقطاعية فى تلك المناسبة لم يخلق أى أزمة • وما أن قام ادوارد الثالث باعدام مورتيمر ، وطرد والدته الى قلعة بعيدة ، وتوليه مسئولية الحكم تحت مسئوليته الشخصية ، حتى ذكره القصر الفرنسى بما عليه مــن التزامات اقطاعيــــة ، وأعقب ذلك بعض من التردد من جانب ادوارد ، وتهديد بالمصادرة من جانب فيليب ، بيد أنه فى آخر المطاف وافق ادوارد على سداد ما عليه من التزامات اقطاعية • وعبر ادوارد القناة الانجليزية فى يوليو سنة ١٣٢٩م ، وقام بسداد الالتزامات المالية بصفة رسمية •

واذا كان ادوارد قد اعتقد أن هذا قد أنهى الامر ، فقد ابتعد عــن الصواب • ففى السنة التالية تسلم ادوارد أمرا سريعا وغير مهذب مــن المحكمة الفرنسية يقطع الشك باليقين بأن الالتزامات الاقطاعية التى أقسم عليها فى أميان Amiens لم تكن الا تعهدا بالارتباط الاقطــاعى الذى يضمن التبعية الشخصية من قبل ادوارد لخدمة ســيدة الاقطاعى فيليب • فاستشاط ادوارد غضبا من أمر المحكمة الفرنسية الذى فسره

على أنه مناورة من جانب فيليب لتبرير مصادرته لاقليم جاسكونى ، بيد أن الحرب لم تبدأ • وفى النهاية أعفى فيليب ادوارد من تقديم التزامات اقطاعيه اخرى ، ووافق على أنه قانع باعلان ادوارد الكتابى أن الالتزامات الاقطاعية التى قدمها فى اميان كانت فى الواقع تعهدا بالولاء نحو فيليب سيده الاقطاعى الاعلى • وعندما ذهب ادوارد الى فرنسا فى أبريل سنة ١٣٣١م ليؤكد بنفسه على ما أعلنه كتابة ، فان الحالة السائدة أوضحت بالكامل أن الملكين ، طرحا مسألة جاسكونى خلف ظهريهما ، وهما فى انطلاقة كبرى من المودة ، وفى تفاهم ودى شديد ناقشا موضوع حملة صليبية مشتركة ضد المسلمين • بل أنهما توصلا الى اتفاق بشأن الحملة الصليبية ، وأنهما سيركبان متن السفينة من موانى البحـر المتوسط فى ربيع سنة ١٣٣٥م ، بناء على ذلك الاتفاق • وربما كان الملكان جادين، اذ كانت قرارات الحكومة فى العصور الوسطى شخصية الى حد بعيد ، وكذلك كان معظم الحماس بسبب الحروب الصليبية تشنجيا ، بيد أنه فى مدى عام تفجرت الاضطرابات على امتداد الحدود الاسكتلندية ، ومن ثم صرف النظر كلية عن التفكير فى حملة صليبية •

ان الاضطرابات التى أثارها الاسكتلنديون أضافت مظهرا آخـــر لخلفية حرب المائة عام • وكان أمرا متوقعا أن يفرض الاسكتلنديون أنفسهم على خلفية الصورة اذ كانت العلاقات بين انجلترا واسكتلندا متوترة • وكانت حدودهما المشتركة مسرحا للمنازعات المتـــكررة • وكان ملوك انجلترا قد ادعوا حق السيادة على اسكتلندا منذ أن أسر هنرى الثانى الملك مانكولم Malcolm وأجبـره عــلى أن يقســـم يمـين الولاء الاقطاعى • وفى سنة ١٢٩٠م ، أصر ادوارد الاول على حقه فى اختيار ملك للعرش الاسكتلندى باعتباره سيدا اقطاعيا أعلى عليها ، وبعد أن صار الجيش الاســـكتلندى لا وجــود له ، أعلن موافقته على حنا بوليول John Balliol من بين الراغبين فى اعتلاء ذلك العرش • وفى سنة ١٢٩٥م ، عندما فرض ادوارد التزامات على بوليول ، والتى اعتبرها الاخير غير مقبـولة ، لجأ الاسكتلنديون الى فرنســا طلبا للمساعدة والتأييد ، ونظر الاسكتلنديون والفرنسيون الى انجلترا كعدو مشترك وظل الشعبان حليفين بشكل رسمى أو غير رسمى •

وظل ادوارد ينظر بعين الحذر الى اسكتلندة • وفى الوقت الذى لم يشن فيه ادوارد هجوما مباشرا على البلاد ، الا أنه أمد ادوارد بوليول ابن حنا بوليول بالأموال والرجال فى جهوده لعزل داود الثانى عن عرش اسكتلندة • وعندما علم ادوارد ملك انجلترا أن فيليب كان يقدم العون

المالى الى داود ، تحرك شمالا واستولى على بيرويك Berwick وفى الحادى عشر من يوليو سنة ١٣٣٣م أحرز نصرا ساحقا على الاسكتلنديين فى هاليدون هيل Halidon Hill ولو توقف ادوارد عند ذلك النصر لخفت حدة الازمة المتناقمة بينه وبين فيليب ، ولما انتقلت الحرب الى القارة الاوربية • بيد أن ادوارد استمر فى تقدمه داخل اسكتلندة وفى صيف سنة ١٣٣٦م، أمر فيليب سفنه التى كانت راسية فى مارسيليا استعدادا للذهاب فى حملة صليبية ، أن تبحر الى الموانى النورمانية ، ومنها الى اسكتلندة • ودفع تصرف فيليب الملك ادوارد الى تأجيل غـزوه لاسكتلندة لانه اقتنع أن غزوه سيكون مستحيلا طالما كانت فرنسا قادرة على التدخل • وقرر ادوارد تسوية مسألة جاسكونى بالقوة ، وفى النهاية الزم أعضاء البرلمان سنة ١٣٣٦ م بدفع الاعانات الماليـة من أجـل الاسطول والتحصينات على امتداد الشاطىء • فقام فيليب بدوره بارسال قوات الى حدود جاسكونى ، حيث ضربت حصارا حول عدة قلاع • وأخيرا وفى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٣٣٧م ، وبعد اتهام ادوارد بأنه لم يكن ملتزما بتنفيذ التزاماته الاقطاعية بالنسبة لذلك الاقليم أعلن فيليب مصادرته له •

لقد عجل التدخل الفرنسى فى اسكتلندة باشتعال الحرب بين ادوارد وفيليب بسبب جاسكونى • كما أن التآمر الانجليزى فى اقليم فلاندر أفضى الى نفس النتيجة • وكان اقليم الفلاندر اقليما كبيرا غنيا يقع عـلى امتداد الحدود الشمالية الغربية لفرنسا ويواجه بحر الشمال ، وهو من أهم الاقاليم الصناعية فى أوربا • وفاخر ذلك الاقليم المدن المزدهـرة مثل بروج Bruges ، وجنت Ghent ، وروبير ypres وفى أوائل القرن الثانى عشر بدأ ملوك فرنسا ادعاءات من شأنها توسيع الحدود ، وعمل فيليب أغسطس (١١٨٠ ــ ١٢٢٣م) على ضم العديد من المناطق الجنوبية بما فيها أرتواز Artois وثير مونديوز Vermondois وبعد ذلك بقرن ، وفى سنة ١٣٠٢م حاول فيليب الخامس اقامة سيطرة مباشرة على كل الاقاليم ، الا أن فرسانه تعرضوا لهزيمة نكراء على أيدى سـكان الاقليم من المشـاة فى كورتزاى Courtrai على أن أى تفكير فى تهديد فرنسا لاستقلال اقليم فلاندر قد انتهى الى غير رجعة ومـع ذلك انتهى على نحو غير متوقع سنة ١٣٢٨ م عندما حقق فيليب السادس نصرا ساحقا على الفلمنكيين فى كاسيل Cassel وهى المعركة التى محت كل ذكرى عن الهزيمة فى كورتراى ، وقضت أيضا على الكثير من الحكم الذاتى لذلك الاقليم ومكن النصر فى كاسيل،ملك فرنسا من ممارسة قدر كبير من النفوذ فى الشئون العامة الفلمنكية عن طريق كونت فلاندر ،

الذى كان عليه أن يعتمد على تأييد الكفاح الفرنسى لكى يحتفظ بمركزه، وندخل الموظفون الفرنسيون على نحو منتظم فى الشئون البلدية للمدن الفلمنكية وفرضوا بالقوة استعمال العملة الملكية ·

حظى كونت فلاندر ببعض من التأييد فى نطاق اقليمه · فعلى سبيل المثال اعتمد التجار الاثرياء ، على النفوذ الملكى الفرنسى ، فى المساعدة للاحتفاظ بمركزهم المهيمن فى الاستثمار الصناعى للاقليم برغم استياء الحرفيين والتجار فى المجتمعات الأصغر · وعمل هؤلاء الحرفيون والتجار الصغار على تقوية الروابط مع انجلترا ، نظرا لانهم يحصلون منها على معظم الصوف الخام الذى تصنعه أنوالهم · وكان الانجليز أيضا من المشترين لمنتجاتهم الصوفية بكميات ضخمة · وكان طبيعيا تماما أن تضع التجارة النشطة فى الصوف والمنتجات الصوفية بين فلاندر وانجلترا الملك الانجليزى فى الصورة · اذ رحب باقامة علاقات ودية مع بلد يقع فى الجانب الشمالى لفرنسا ، والاكثر أهمية أنه بدأ يعتمد على ضرائب الصادرات على الصوف كجزء كبير من موارده المالية · ونظرا لأن أدوارد لم يكن يرغب فى عرقلة تدفق الموارد المالية ، لذلك عارض أى محاولة قام بها ملك فرنسا بهدف وضع الاقليم تحت حكمه المباشر · اذ فى هذه الحالة يكون فيليب قادرا على تعطيل التجارة وفقا لرغبته · ونظرا لان كونت الاقليم و لتجار الاكثر ثراء ربطوا مصالحهم مع ملك فرنسا ، لذلك قدم ادوارد التشجيع الودى للحرفيين وصغار التجار ·

وفى أغسطس سنة ١٣٣٦م ، وفى حركة لحث الفلمنكيين على قطع علاقاتهم بفيليب والتعامل معه ، وضع ادوارد حظرا على شحنات الصوف الانجليزى الى فلاندر · ثم أرسل ادوارد تيله الصوف (١) الى برابانت Brabant حيث مدن انتويرب Antwerp وبروسيل Brusseles ومالين Malines كانت لديها الرغبة فى اقامة صداقة مع ادوارد مقابل الحصول على الصوف الانجليزى الذى يمكنها من اقامة صناعات المنسوجات الخاصة بها · واستعمل ادوارد المال فى ولايات الاراضى المنخفضة لكى يكسبها الى صفه ، حيث وزعها ممثلوه بسخاء على عواصمهم فى فالينسين Valenciesnes وجلدر لاند Gclderlan وهيانوت Hainaut وبرج Berg وجولير Juliers وكليف Cleves ومارك Mark ليمبورج Limburg وكلها انضمت الى الحلف المعادى للفرنسيين على أن أكبر كسب حققه ادوارد كان فى أغسطس سنة ١٣٣٧م ، عندما انضم الى قوات معسكر حلفاءادوارد ، لويس من بافاريا Louis of Bavaria الامبراطور الرومانى المقدس ، وصهر الملكة الانجليزية · ووعد لويس

هذا بتقديم ألفي رجل مسلح على أن يقوم ادوارد بدفع ثلاثمائة ألف فلورين Florins (*) مقابل خدماتهم .

ان الرجل الذى اثبت أنه مفيد بصفة خاصة لادوارد فى مفاوضاته مع هؤلاء الحلفاء ، هو روبرت من آرتو ز Robert of Artois صهر فيليب السادس . وكان فيليب قد نفى روبرت سنة ١٣٣٢م ، بسبب اساليبه الملتوية فى السيطرة على أرتواز . وكان ادوارد سعيدا عندما سمح لروبوت بالنجوء الى بريطانيا ، وهو النبيل المهم ، بصرف النظر عن فضائله أو نقائصه ، فان روبرت هذا حث ادوارد على استمالة أصدقاء أكثر فى الاراضى المنخفضة ، وأراضى الراين عن طريق الاغراء المالى لمحاربة فيليب. غير أن أنشطة روبرت لم تكن خافية ، وبخاصة بالنسبة للبابا بندكت الثانى عشر Benedict XII الذى عمل بكل اصرار على منع نشوب الحرب . اذ نصح البابا الملك ادوارد بطرد روبرت لمصلحة السلام ، ذلك لأن فيليب أعلن انه سوف يهاجم أى بلد تقبل لجوء روبرت على أراضيها .

ومن سوء حظ ادوارد أن كلفته تلك الأحلاف الكثير من المال كما حذره البابا بندكت وانه ما أن نفدت أمواله حتى فقد أصدقاءه فى القارة الاوربية . كما أن عملية انزال قوات ادوارد فى أراضى القارة الاوربية والمخطط لها نهائية سنة ١٣٣٧م ، اضطر الى تأجيلها بسبب نقص الموارد المالية . غير ان امكانيات النجاح والتقدم بدأت تشرق عليه عندما قلده الامبراطور لويس شارة نائب القائد الاعلى للامبراطورية فى سبتمبر التالى . على أن المنصب منح ادوارد من الناحية النظرية على الاقل السلطة على الامراء الذين كان يقدم اليهم المساعدات المالية . وضمنت هذه الوظيفة وجود سلسلة من الاحتفالات التى يسودها المرح ، وان كانت باهظة النفقات فى الوقت الذى يقسم ابانها أمراء الاراضى المنخفضة يمين الولاء الابدى . وبعد تلك الاحتفالات وجد ادوارد نفسه أنه فى أشد الحاجة للموارد المالية حتى اضطر الى رهن التاج الرائع الذى كان قد أمر أن يتزين به عند اعتلائه للعرش كملك لانجلترا وفرنسا .

على أن مصير ادوارد ، اعتمد على ما حدث فى أقليم فلاندر ، وهناك كان الموقف يبدو مشجعا . وحيث أن الاموال توقفت عن العمل فى جينت Ghent وبروج Bruges والمدن الاخرى فى فلاندر

(*) الفلورين عملة منسوبة الى فلورنسا بأقليم توسكانى وكانت من الذهب وتم صكها لأول مرة فى القرن الثالث عشر . وفى سنة ١٨٤٩ م صكتها انجلترا من الفضة أو النحاس المطلى بالنيكل وكانت تساوى شلنين . وتم الغاء تداولها سنة ١٩٧١ م ــ المترجم

بسبب نقص الصوف الانجليزى، لذلك أفضت البطالة الى حدوث المظاهرات ثم انتهت بقيام الثورة • واستفحل الاستياء ضد ملك فرنسا ، وضد كونت فلاندر ، وضد التجار الاثرياء ، الذين أشاع رجال الملك الانجليزى أنهم كانوا مسئولين عن تدهور أحوال العمال • وفى أوائل سنة ١٣٣٨م، وضعت حركة تمرد فى جينت Ghent نهاية لسلطة كونت فلاندر لصالح جيمس فان أرتفلد James Van Arteveld وهو تاجر ثرى ، انتخبه المواطنون قاطبة « قائدا » • وانضمت المدن الاخرى الى الحركة المعادية للفرنسيين حتى وقف الجزء الاكبر من فلاندر متحديا الكونت • وفى فبراير سنة ١٣٣٩ م ، هرب الكونت من البلاد بعد محاولة فاشلة لاجبار جينت Ghent وبروج Bruges على الخضوع ، ثم أعلن اقليم فلاندر استقلاله تحت رياسة أرتفيليد Arteveld

وتوقع ادوارد أن ينضم اقليم فلاندر الى حلفه دون تأخير ، بيد أن ارتيفيلد اعترض على ذلك • وكان رد أرتيفيلد أن تدفق الصوف الانجليزى ، وهو الشىء الوحيد لاصلاح الموقف فى فلاندر ، كما لابد من اتخاذ موقف بشأن الصوف الذى يذهب الى مدن اقليم برابانت Brabant واقامة صناعة المنسوجات المنافسة هناك • وبعد اجراء مفاوضات مستفيضة حصل ادوارد على وعد بالتحالف من اقليم فلاندر مقابل تعهده بارسال تيلة الصوف من أنتويرب Antwerp الى بروج Bruges وأن يرسل أسطولا وقوات مسلحة لمساعدة الفلمنكيين the Flamish فى حالة محاولة فيليب مهاجمة الاقليم •

وقدم ادوارد وعدا ثانيا الى أرتيفيلد والفلمنكيين ـ وهو أنه سيتخذ لنفسه لقب ملك فرنسا ـ وبعد هزيمة الفلمنكيين فى معركة كاسيل Cassel سنة ١٣٢٨ م ، تعهد الفلمنكيون بدفع مليونى فلورين Florins وألا يعلنوا الثورة ضد السيد الاقطاعى الفرنسى الأعلى • وتم ايداع المبلغ كأمانة مع البابوية فى أفينون Avignon على أن يصادر هذا المبلغ اذا ما تحدى الفلمنكيون ملك فرنسا • على أن أبسط وسيلة للمراوغة • قد تحدث عندما يدعى ادوارد أحقيته للتاج الفرنسى •

وكما حدث • كان ادوارد راغبا تماما فى المطالبة ، بهذا الحق ، وفى الحقيقة كان مصرا على حقوقه فى التاج الفرنسى منذ عدة سنوات • ان أساس هذا الادعاء نما نتيجة لعدم انجاب أبناء فيليب الرابع الثلاثة بنينا • وهم لويس العاشر (١٣١٤ ـ ١٣١٦م) (٢) ، وفيليب الخامس (١٣١٦ ـ ١٣٢٢م) وشارل الرابع (١٣٢٢ ـ ١٣٢٨م) • على ان الشىء

الذى جعل ظاهرة عدم الانجاب هذه تبدو غريبة بصفة خاصة ، هو نجاح أسلاف أسرة كابيه من الملوك فى انجاب البنين ، الذين شكلوا سلسلة متصلة لمدة زادت على ثلاثمائة عام ، منذ سنة ٩٨٧م ، عندما أسس هوج كابيه Hugh Capet الأسرة ٠

وعندما مات شارل الرابع سنة ١٣٢٨ م ، لم يترك بنينا ، ولم يجد الشعب الفرنسى سوى قليل من الصعوبات فى اختيار فيليب من فالويس Philip of valois أحد اقارب شارل الرابع ، أن يكون ملكا عليهم. هنا طالب ادوارد بأنه أكثر أحقية بعرش فرنسا ، اذ أنه ابن شقيقة شارل، حيث كانت والدته شقيقة شارل الرابع ٠ بيد أن رجال القانون من الفرنسيين ، قالوا أن المرأة لا ترث منصب الملك ، وليس لها حق نقل هذا العرش لابنها ٠ وكان ادوارد فى السادسة عشر فقط فى ذلك الحين، وهى حقيقة لم تساعد على تقوية دعواه ٠ كما أن حقيقة وجود والدته المنحرفة وروجر مورتيمور على رأس السلطة فى انجلترا ، فى ذلك الوقت كانت سببا كافيا لعدم أخذ دعوى ادوارد بعين الاعتبار ٠ واحتجت ايزابيلا على اعتلاء فيليب الخامس للعرش باسم ابنها الذى من حقه اعتلاء ذلك العرش ، بيد أنه لم يهتم أحد باحتجاجها على الاطلاق ٠ وفى سنة ١٣٢٩م ذهب ادوارد الى فرنسا ٠ وقدم فروض الولاء الاقطاعى الى فيليب السادس فى احتفال رسمى عن اقليم جاسكونى ٠

واعلن ادوارد بصفة رسمية أنه الملك الشرعى على انجلترا وفرنسا ، بيد أن مشاكله المالية ظلت حادة وملحة ، كما لو كانت فى كل الأوقات٠ ويمدنا التاريخ بحوادث ، وحقائق شاذة وغريبة عن افلاس وعجز ادوارد عن سداد ديونه ٠ لقد كانت حالة ادوارد المالية باعثة على اليأس لدرجة أنه تسلم فى فبراير ١٣٤٠م اذنا من أصحاب الديون من الهولنديين فى مدينة جينت Ghent بان يدخلوا انجلترا ليجمعوا الاموال شريطة أن يرسل اليهم زوجته الحامل ، وأطفاله كرهائن لسداد ديونه ٠ كما أن ابنه الثالث ، حنا ، عرف فى التاريخ باسم حنا من جونت John of Gaunt لانه ولد ابان غياب والده ٠

وعلى الرغم من أن سنة ١٣٤٠م بدات بهذه المذكرة الكئيبة والقابضة للصدر فان ادوارد شعر بشىء من الرضا الحقيقى فى صيف ذلك العام عندما دخلت سفنه فى معركة مع أسطول فرنسى فى ميناء سلويز Sluys وهى فى طريقها الى اقليم فلاندر ، وقامت بتحطيم الاسطول الفرنسى ٠ لقد كان الاسطول الفرنسى متفوقا على الاسطول الانجليزى فى العدد ـ

« اذ كانت صواريه تشبه غابة كبرى » على حد قول المؤرخ فرويسارت Froissart وفى الحقيقة كان هنــاك عـدد كبير جـدا من السفن فى مكان ضيق للغاية • وكاد التعاون أن يكون منعدما بين السفن الفرنسية وكذلك بين السفن الفرنسية الاخرى التى جاءت من كاستيل Castile ومن جنوه Genoa للمساعدة • ولقد زود النصر الانجليز ، الذين كانوا يعانون من الاحساس بالاحباط ، بالشعور بالابتهاج الى حد ما ، واعطاهم الحرية فى استخدام بحر المانش ، وفقا لمشيئتهم طوال عـدة سنوات تاليه • وقام الانجليز بمحاولة باكرة لاستثمار هذا النصر بيد أن هذه المحاولات منيت بالفشل الذريع • اذ ارسل ادوارد جيشا قويا بلغ تعـداده حوالى خمسة وعشرين ألف مقاتل بالاضافة الى القـوات الشعبية من الفلمنكيين الى تورناى Tournai بيد أنهم وقعوا فى شرك المستنقعات • وكان ادوارد تنقصه أدوات الحصار الضرورية للاستيلاء على المدينة ، على حين ظل الجيش الفرنسى عن قرب ، ورفض دخول المعركة ، واكتفى بشن غارات متكررة على خطوط مواصلات ادوارد • وبحلول شهر سبتمبر كان الجيشان الفرنسى والانجليزى ، قد استهلكا مخزون الأعلاف ، لذلك قبلا الوساطة البابوية عن طيب خاطر ، ووافقا على عقد هدنة تستمر حتى شهر يونيه التالى •

وبعد المواجهتين فى سنة ١٣٤٠ م ، فى سلويز ، وتورناى ، لابد أن حلفاء انجلترا قد أدركوا عدم مقدرة ادوارد على الاستيلاء على تورناى المهمة ، لذلك شهد فصل الخريف انهيارا لنظام الاحلاف الذى كلفـه كثيرا فى بلاد الاراضى المنخفضة • وفى ينـاير سـنة ١٣٤١م ، الغى الامبراطور لويس تعيين ادوارد كنائب للامبراطورية ، وأعلن نهـاية تحالفه • ولاشك أن المال الفرنسى لعب دوره مع افتقار ادوارد للموارد المالية فى صنع هذ التحول السىء فى مصيره •

وفى سنة ١٣٤٢ م عاد ادوارد المثابر الى الأراضى الفرنسية بسبب أمر جعل الحظ يبتسم له • اذ مات دوق اقليم بريتانى فى أبريل سنة ١٣٤١م • ولم يترك ابنا ، وأسوأ من ذلك طالب شخصان بأحقيتهم بحكم الدوقية • وكان حنا كونت مونتفورت John, Count of Mont fort أحد الاثنين اللذين طالبا بأحقيتهم بحكم دوقية بريتانى ، شعر أن أمله الوحيد فى تحقيق هدفه بأن يتحدى ملك فرنسا ، ويعلن تحالفه العلنى مع ادوارد • وأدت خطة حنا الى ذهاب ادوارد الى بريتانى فى نهاية سنة ١٣٤٢م ومعه جيش بلغ تعداده حوالى اثنى عشر ألف مقاتل • وبتلك القوات ، وببعض الظروف المواتية استطاع ادوارد ، فى نهاية سنة ١٣٤٥م أن

يسيطر على الجزء الاكبر من بريتاني • وكان امتلاك بريتاني بالطبع أمرا قيما في حد ذاته ، بيد أنه كان أمرا أكثر أهمية عند ادوارد حيث موانى بريتون Breton التى كان فى احتياج شديد للغاية اليها لتمكنه من الحصول على رأس جسر فى شمال غـــرب فرنسا • اذ كان اغتيال أرتيفيلد Arteveld فى أوائل ذلك العام وانهيار تحالفه مع الفلمنكيين، قد حرمه من الموانى الفلنمكية •

وفى نفس الوقت ، فان الهدنة المتكررة التى نظمها المبعوثون مـــن قبل البابوية ، قد حولت المعارك القتاليه فى بريتانى ، وجاسكونى الى عمليات عسكرية قليلة الاهمية نسبيا • ومن ناحية ثانية ، ان امـــال البابوية في الوساطة بشأن تسوية نهائية بين ادوراد وفيليب كان من الممكن أن تتحقق ، الا أن ادوارد لم يتخل اطلاقا عن هدفه فى تحقيـق سيادة كاملة على جنوب غرب فرنسا ــ وفى صيف سنة ١٣٤٦م ، شعر بأن الوقت مناسب للقيام بمجهود آخر كبير فى ذلك الاتجاه • لذلك حشد جيشـــا فى بورتسماوث Portsmouth وربما وضع خطته الاولى على أساس ارسالهم الى جاسكونى لكى يساعد قواته ضد أتباع فيليب ، الذين كانوا يحاولون طردهم • بيد أن الرياح التى كان مقدرا لها أن تســـوق السفن جنوبا ، أتت بما لا تشتهى السفن ، وساقت سفن ادوارد تجـاه كورنوول Cornwall ، ويقال ان ادوارد ، أعلن أنه سيذهب الى أى مكان تسوقه الرياح اليه ، ابان هذه الحادثة الناتجة عن سوء الحظ • وسواء كانت هذه القصة حقيقية ، فان الرياح تغيرت تغيرا كاملا ومفاجئا الى الاتجاه المعاكس بعد فترة قصيرة ، وتحكم ادوارد فى سفنه على نحـــو ملائم الى شاطىء نورماندى ، وميناء لاهوج La Hogue ، التى أعلن صاحبها الاقطاعى تأييده لاداورد ، بعد أن أعلن فيليب طرده • ودخل ادوارد ميناء لاهوج فى الثانى عشر من يوليو ، وخلال الايام التالية ،أنزل جيشه من السفن الذى بلغ تعداده حوالى ثمانية آلاف فارس ، وعدة آلاف من المشاة •

واتضح أن التحصينات بالمنطقة كانت ضعيفة ، لذلك لم يجـــد ادوارد صعوبة فى التقدم الى الامام • ففى السادس والعشرين من يوليو استولى على مدينة كاين Caen الجميلة وعرضها للسلب والنهب • ولم ينتظر حتى يستولى على قلعة المدينة • ومن كاين انطلق صوب باريس بحذاء الضفة اليمنى لنهر السين • ولم يكن واضحا فى فكره أكثر مـــن رغبته فى الحاق أكبر قدر من الدمار والخراب بالمناطق الريفية • وعندما وصل ادوارد الى المنطقة المجاورة لباريس بلغة أن فيليب أعد جيشا ضخما

للتصدى له • واقتضت الحكمة أن يسارع بالعودة الى انجلترا ، بيد أن أسطوله كان قد عاد بالفعل • وكانت بعض السفن قد ذهبت الى انجلترا بناء على أوامره لنقل الجرحى والغنائم التى حصل عليها من كاين ، بيد أن السفن الباقية أعلنت التمرد ، وبدأ الموقف حرجا بالنسبة الى ادوارد، فهو من بلد معاد بها جيش متفوق عليه يتحرك لقتاله ، وليس لديه سفن تحت يده تمكنه من الانسحاب • فاتجه بجيشه صوب اقليم فلاندر على أمل أن يجد حلفاء هناك أو سفنا تحمله الى بريطانيا • على أن العقبة الأولى والشديدة كانت فى نهر السين ، ذلك لأن كل الجسور المقامة عليه اما أنها كانت من قوة التحصين الى الحد الذى يصعب عليه العبور عليها أو أنها قد تم تدميرها • وطالما أنه لم يكن لديه الوقت لشن هجوم كان من حسن حظه أن وجد جسرا ضعيف التحصين عند بلده بويسى Polssy ، وفى السادس عشر من أغسطس قاد جيشه على وجه السرعة فوق هذا الجسر ، واتجه الى نهر السوم somme

وفى ذلك الحين كان فيليب وجيشه على مقربة من ادوارد بشكل خطير ، اذ كان الملك الفرنسى لديه آمال كبرى فى اللحاق بادوارد المنسحب وإلحاق الهزيمة به • وعلى الرغم من أن ادوارد قد نجح فى عبور نهر السين ، فما زالت هناك فرصة طيبة لمنعه من الحركة بين ذلك النهر ونهر السوم • وكان ادوارد حريصا على ألا يقع فى كمين ، ولم يساعده الا حسن الحظ من النجاة من كارثة • اذ قام أحد أهالى قرية أشو Acheux بافشاء سر مكان يبعد عشرة أميال شمال مدينة أبيفيل Abbe ville حيث يمكن عبور نهر السوم سيرا على الاقدام ، ودون ما حاجة الى جسر أو قوارب عند حدوث الجزر فى مقابل مكافأة سخية • ونجح ادوارد فى العبور فى الرابع والعشرين من أغسطس فى اللحظة التى كاد فيها الحرس الفرنسى المتقدم اللحاق به ، كما وجدوا أنفسهم وقد حال المد المتزايد دون تمكنهم من عبور النهر • وأدرك ادوارد أن جنوده من المشاة قد وصلوا الى حد الانهاك ، ولم يعد فى مقدرتهم مواصلة السير طويلا أمام الفرسان الفرنسيين ، لذلك تفحص ما حوله بحثا عن مكان مناسب ليستريح به• أما بالنسبة للمعركة التى قررت مصيره ، فقد اختار مكانا على تل صغير شرق قرية كريسى Crecy •

وقبل وصف ما حدث فى كريسى ، أول وأكبر معركة فى حرب المائة عام ، فمن المفيد أن نأخذ بعين الاعتبار القوة النسبية للجيشين والموارد المالية التى اعتمد عليها كل ملك • وفيما يتعلق بالقوى البشرية والثروة يمكن من أول نظرة تشبيه انجلترا بقزم على وشك أن يطبق عليه عملاق ! اذ بلغ عدد سكان فرنسا حوالى ستة عشر مليونا ، منها

اثنى عشر مليونا عاشوا على أراضى التاج ، وتحت حكم المباشر لفيليب ، أما عدد سكان بريطانيا فلا يزيد عن مليونين • وفاق تطـــور فرنسا الصناعى مثيله فى انجلترا بكثير • والواقع أن تعداد سكان فرنسا ، وكذلك ثروتها جعلها أكبر دولة فى غرب أوربا دون ريب ، على حين يمكن وضع بريطانيا فى الدرجة الرابعة •

ومع ذلك ، فان تعداد السكان أو التقدم الصناعى فى العالم الوسيط للقرن الرابع عشر ، لم يكن لهما تأثير يدنو من التأثير الذى لهما فى الحرب الحديثة • اذ كان المال ومازال العنصر الاساسى ، الذى لابد أن يؤخذ فى الاعتبار • وبصفة خاصة كلما زاد المال عند الحاكم واستطاع أن يجنـد الرجال ، ويجمع المرتزقة والحلفاء ، كلما ازدادت قوة الجيش الذى يمكن أن يتحدى به العدو • واذا ما أدخل المرء فى حساباته جهود ادوارد الاولى النشطة والتى كلفته الاموال الباهظة لتكوين الصداقات ، فمن المدهش المعرفة أنه لم يجد أحدا يقدم اليه يد المساعدة فى كريسى • أما فيليب ، فمن المحتمل أنه أصاب نجاحا أكثر قليلا من ادوارد فى هذه الناحية • وعلى الرغم من عدم وجود أى حليف رسمى لمساعدة فيليب ، فقد انضم اليه عدد قليل من الفرسان الباحثين عن اثبـات براعتهم العســكرية وشجاعتهم القتالية من أمثال حنا من لوكسمبرج John Of Luxemburg وملك بوهيميـا Bohemia الضرير ، الذى حضر المعركة ومعه حاشيته من الفرسان واستخدم الملكان الاموال لحشد معظم المقاتلين •

وتأهب الجيشان للقتال : جيش ادوارد على شكل حملة مغيرة ضخمة أما جيش فيليب فقد احتشد ليقوم بعملية مطـــاردة • وزود كل جيش نفسه ابان تقدمه وفقا للطريقة المتعارف عليها فى ذلك الوقت ، وأعنى بذلك ، أنهم اعتمدوا على المناطق الريفية فى الحصول على ما يحتاجون اليه من طعام ومال • وهذه الضرورة حتمت تحديد حجم الجيوش بشكل مؤثر • أما بخصوص مقدار الأموال التى أنفقها كل من الملكين على الصدام المتوقع ، فلم يجد أى منهما تجاوبا يرقى الى ضخامة المهمة من مجلسيهما المناط اليهما مهمة التصديق على تحـديد الضرائب • لقـــد كان الملك الانجليزى يقاتل فى معارك اعتبرها معظم الشعب الانجليزى تدور فى أراضى أجنبية • ولذلك لم يجد ادوارد استجابة من البرلمان • أما فرنسا فكانت مفككة وغير متحدة وبها النزعة الاقليمية الأمر الذى أعاق نمـــو الاحساس بالروح القومية ، وهو احساس كان من الممكن أن يدفع الولايات الى استجابة كبرى عندما طالب الملك بالأموال • ان الأمر كان يتطلب سقوط بلد آخر ، واستمرار وجود الانجليز المكروهين ، وظهور البطلة

جـان أرك Joan of Arc ، قبل أن يأمل الملك الفرنسى فى أن تعمل مناشداته على خلق شيء يشبه الجهد الموحد ضد الأجنبى ، ومن الراجح تماما أن انجلترا ، البلد الأفقر ، أمد ملكها بمساعدة مالية أكبر مما قدمت فرنسا لملكها ٠

لم يكتشف الجيش الفرنسى فى عهد فيليب السادس سنة ١٣٤٦ م عن تغير أساسى بالنسبة للجيش الفرنسى الذى حارب معركة بوفين ، فى عهد فيليب أغسطس ٠ غير أن تغيرا ما حدث بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن ابان السنوات الأخيرة من حرب المائة عام ٠ وما يمكن قوله عن تشكيل قوات فيليب الحقيقية فى جيشه أنها ظلت فى طبقة النبلاء الذين امتطوا صهوة الخيول والفرسان المدرعين بدروع ثقيلة الذين لازموهم ٠ القد تغيرت تجهيزات وأسلحة هؤلاء المحاربين بعض الشيء منذ موقعة بوفين ٠ اذ صارت البذلة الحربية أثقل قليلا ، وأغلى ثمنا ، كما زودت الخوذات بجزء أمامى متحرك لتغطية الوجه ، وحملت الخيول قدرا أكبر من الدروع لحمايتها ٠ لقد أدت التكاليف المتزايدة للدروع الحربية للفرسان وخيولهم الى انقاص عدد الفرسان الذين يحملون أسلحة ثقيلة على حين ازداد عدد أولئـك الذين يرتدون ملابس وقائيـة أقل ٠ وعرف هؤلاء الفرسان المسلحون بأسلحة خفيفـة ، عادة باسم الخيالة المسـاعدين أو أتباع الفرسان ٠ وربما وجدوا أنفسهم منخرطين فى جماعات أطلق عليهـا المهاجمون routes تحت قيـادة قادة مدربين ، باعوا خدماتهم لمن يدفع ٠ واستخدم النبلاء الصغار والطموحون من الشباب هذا النوع من المسلحين لأنهم حققوا لهم أهدافهم بطريقة أكيدة وسريعة ٠ وبعد كارثة بواتير Poitiers التى حدثت بعد معركة كريسى بعشر سنوات ، عنـدما ترنح العرش الفرنسى على حافة الهاوية صارت كلمـة (المهاجمون routiers) دلالة شائنة بسبب عمليـات السلب والنهب التى مارسها هؤلاء الجند فى المناطق الريفية فى فرنسا ٠

واعتقد الانجليز والفرنسيون أن مصير الحرب يمـكن أن يحدده الفرسان الذين يحملون معدات حربية ثقيلة ٠ ومن الممكن أن يحقق أفراد من الفرسان فى كل من الجيشين تميزا ، لما يبدونه من شجاعة غير عادية ، بيد أن عدد الفرسان هو الذى يحدد فى النهاية نتيجة المعركة ٠ ولهذا كان فيليب واثقا من النصر ، اذ كان يتمتع بعنصر التفـوق فى هـذا المجال ٠ وكان ادوارد فى موقف الدفاع ٠ ومن المحتمل أنه كان يحـاول الهرب مع أن بعض العلماء ، قالوا أنه كان متفوقا عدديا ، والسـبب فى ذلك افتقاره الى الفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة ٠ ومن المحتمل أن

تفوق الفرنسيين فى عدد الفرسان أدى الى ثقتهم الزائدة عن الحد ، الأمر الذى ثبت أنه أتى بعواقب وخيمة عليهم ، كما فعلت الاجراءات الدفاعية التي لجأ اليها ادوارد بسبب افتقاره الى الفرسان •

وكان تحت امرة فيليب قوات من المشاة فى موقعة كريسى ، وكانوا من سكان المدن بصفة أساسية ، حيث جندهم ، وهو فى طريقه الى كريسى • وحمل هؤلاء الرجال الرمح فحسب • وأما دور الجنود الذين حملوا الرماح في المعركة القادمة فكان التصدى لهجوم فرسان الأعداء ، وأن يكونوا على استعداد ، اذا ما وصل القتال الى حد التلاحم وجها لوجه . ولم يتوقع فيليب ومستشاروه الاعتماد الكلى على هذا الصنف من الجنود فى القتال ، لذلك كان على الفرسان أن يكونوا أمام المشاة اذا لم يكونوا من جنود أهالى جنوه الذين استخدموا القوس والنشاب اذ أن قذائف هؤلاء النبالين لازمة لاحداث توازن مع تأثير الأعداد الكبيرة من الرامين بالسهام الذين أحضرهم ادوارد معه • ولم يسبق للفرنسيين أن شغلوا أنفسهم بالرماية سواء كلعبة رياضية أو كسلاح حربى • ولم يكن لهم من خيار سوى استئجار الرماة بالقوس والنشاب الأجانب • على أنهم استخدموهم فى أضيق نطاق • اذ كان هؤلاء الرجال يتقاضون أجورا عالية فضلا عن ميلهم لعمليات السلب والنهب ، اذا لم يكونوا تحت ادارة حازمة • (واستعان ادوارد ببعض الرماة الذين استخدموا القوس والنشاب من جاسكونى) •

وعلى الرغم من أن الجيش الفرنسى ظل مؤسسة اقطاعية بصفة أساسية منذ قرن مضى على معركة كريسى ، بقوته التى ترتكز على الفرسان ثقيلى العدة ، فان الجيش الانجليزى أجرى تعديلا أو تغيرا أو تغيرين مهمين • وكان حدوث ذلك نتيجة للتجربة الشاقة التى اكتسبها الانجليز فى معاركهم مع سكان مقاطعة ويلز وكذلك سكان اسكتلنده ، وليس لمجرد أى تفوق فى المهارة حققها الانجليز فى معرفتهم لفنون الحرب • ولم يكن فى استطاعة شعب ويلز أو شعب اسكتلنده الفقراء تحمل نفقات الفرسان المسلحين بمعدات ثقيلة ، بل أنه حتى لو كان فى استطاعتهم ذلك لكان من الصعب استخدامهم بسبب الطبيعة الجبلية فى البلدين • لقد اكتشف الانجليز لأول مرة عند محاربتهم أهالى مقاطعة ويلز مدى تأثير السهام عندما تنطلق من الأقواس الطويلة بمعرفة الرامين بها الذين اختفوا خلف جلمود أو صخرة شديدة الانحدار • وكان ادوارد الأول قد اعتمد على تسليح جنود المشاة بالرماح عند محاولته الأولى لغزو مقاطعة ويلز ، بيد أنه أدرك فى الحال مدى تفوق الأقواس الطوال واستخدمها • وأصدر

ادوارد الأول قانون ونشستر Statute of Winchester (١٢٨٥م) ، ألزم فيه كل الملاك الأحرار للممتلكات التى تزيد قيمتها عن أربعين شلنا أن يزود كل فرد منهم نفسه بقوس وسهم • وفى عهد ادوارد الثالث ، شكل المزارعون الأحرار من الانجليز ، طبقة صغار مالكى الأرض من الأحرار yeoman class ، حيث استعان بهم الملك فى محاربة الفرنسيين • وكان لهؤلاء الرماة بالسهام تأثير كبير فى الحرب فضـــلا عن رخص تكاليفهم نسبيا • ولم يكن لدى الفرنسيين ما يمكن أن يقارن بهم •

وبلغ طول القوس الذى اســتخدمته تلك الطبقـــة من الفلاحين الأحرار ، ستة أقدام ، ومن ثم أطلق عليه القوس الطويلة • ونظرا لأنه كان أطول من القوس التقليدى فان مداه كان أطول فضلا عن أنه كان أكثر دقة فى اصابة الهدف • وعلى بعد مائتى ياردة استطاعت الســهام أن تخترق طبقتين من القمصان المصنوعة من الجلد المغطاة برقائق معدنية كان يرتديها الفرسان ، برغم أن الدقة فى ذلك المدى سيمكن أن تـكون محدودة • على أن هذه الأقواس اذا ما تم اطلاقها على يد مجموعة كبيرة من الرامين بالسهام على مجموعة من الفرسان المتقدمة ، فانها يمكن أن تقضى على الفرسان قضاء تاما • فحتى لو لم تحدث بعض القذائف الموت الفورى ، فانها كانت تترك الكثير من الرجال جرحى فى الوقت الذى يمكن فيه أن تسقط الغالبية العظمى على الأرض عندما تثب خيولهم التى أصابها الذعر • ويمكن أن تكون النتيجة وجود حشد كبير من الرجال والخيول ، وقد أصابتهم جميعا حالة من الاضطراب والارتباك وضــعف المعنويات •

ان طول مدى الاصابة للقوس الطويل أعطته ميزة مهمة على القوس والنشاب الأثقل والأصعب فى عملية الاطلاق ، وهناك ميزة أكثر أهمية أن الفرد الخبير فى الرمى بالسهام يمكن أن يطلق من ستة الى سبعة سهام فى الدقيقة مقابل سهمين صغيرين يطلقهما رام بالقوس والنشاب له خبرة فى الدقيقة الواحدة • لقد تعلم ادوارد كيف يستخدم هؤلاء الرماة بالسهام على الوجه الأمثل • اذ وضعهم فى مقدمة جيشه حيث أمطروا الرماحين المعادين بوابل من السهام • وما أن حلت الفوضى والاضطراب بين هؤلاء الرماحين ، حتى أفسح الرماة بالسهام الطريق لفرسانهم الانجليز حيث تقدموا للهجوم • واذا ما شن الفرسان المعــادون هجومهم دون مصاحبة الرماحين ، لأمر ادوارد يتمركز الرامون بالسهام على ميمنة قلب الجيش وعلى ميسرته ، وعندئذ يستطيعون تسديد سهامهم القاتلة الى جناحى العدو المتقدم •

وذهبت قوة من الفرسان مع ادوارد الى كريسى على الرغم من أنها لم تكن كثيرة العدد مثل نظيرتها ، التى كانت مع فيليب ، أو أنها كانت لها هيبه • وظل الأدواق ، والكونتات يشغلون مكانا بارزا فى القرن الرابع عشر ، وربما أن الأفكار التقليدية عن الفروسية ظلت أقوى فى فرنسا عن أى بلد آخر فى غرب أوربا • لقد حدث القتـــال أيضا فى الأراضى الفرنسية ، وفى بعض الأحوال فى أقاليم تعرضت للخطر المباشر على يد الانجليز • أما بخصوص طبقة النبلاء الانجليزية ، فان الغالبية من أعضائها ظلت فى أرض الوطن لأن القتال دار على تربة أجنبية ، كما أنهم لن يجنوا ثمرة واحدة لجهودهم • وكان ادوارد راغبا فى بقاء معظم نبلائه بأرض الوطن ـ اذ أوضحت له التجربة أنهم طبقة من الصعب التعامل معها ـ وساعدته هذه الطبقة فى التصويت الذى مكنه من جمع الأموال الكافية لجمع جماعات من الفرسان الذين وضعهم تحت قيادة ضباطه • واستخدم ادوارد أيضا اعانات أعضاء البرلمان فى تجنيد الرامين بالسهام والرماحين • أما عن المحاربين الذين لم يشكلوا عبئا على خزانة ادوارد • فكانوا الايرلات earls ، والبارونات Barons ، الذين كان عددهم قليلا وهم الذين وقفوا بجانب التاج ، وذهبوا للمعركة ومعهم أتبـاعهم من الفرسان •

ولقد وجد المؤرخون صعوبة أقل فى تحديد الأنواع المختلفة من المحاربين ، ونوعية الأسلحة التى استخدموها عن تحديد العدد الفعلى الذى اشترك فى المعركة • اذ أن الأرقام التى ذكرها المؤرخون المعاصرون لا يمكن الاعتماد عليها • اذ كان هؤلاء الكتاب أكثر اهتماما باثارة اهتمام قرائهم بنفس قدر اهتمامهم بالكتابة بدقة حتى ولو كان تحت أيديهم الأدلة لذكر الأرقام الصحيحة • على أن السجلات التى يمكن الاعتماد عليها هى الوثائق الادارية القليلة الوجود حاليا ، والتى تقدم معلومات مقبولة ودقيقة عن مسألتى التجنيـد والامدادات • ومع وجود ما قدمتـه تلك السجلات فمازال هناك تباين شاسع فيما يتعلق بالأعداد الاجمالية التى ذكرها العلماء المحدثون •

وقبل العالم لوت Lot الأعـــداد التى ذكرها المؤرخ الانجليزى رمـزى Ramsay اذ قال أن جيش ادوارد اقترب من عشرة آلاف رجل منهم ألف ومائتى فارس ، والباقى من الرامين بالســهام والرماحين ، والعديد من هؤلاء كان يمتطى صـهوة الخيول • ويشـير العالم ديلبروك Delbruck الى عدد ما بين أربعة عشر ألف وعشرين ألف على أساس حجم الجيش الذى استخدمه ادوارد عند محاصرته لميناء كاليه Calais

بعد معركة كريسى مباشرة • أما الأعداد التى ذكرها أومان Oman فكانت أقل قليلا فهو يقترح أن الجيش تكون من الفين وأربعمائة من الفرسان ، وحوالى عشرة آلاف من المشاة • واعتقد كل من ديلبروك Delbruk ، ولوت lot أن الجيش الفرنسى كان من المحتمل أقل الجيشين عددا ، ويعزو ديلبروك ثقة فيليب الى التفوق العددى الذى تميز به بالنسبة للفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة ، والى حقيقة أن ادوارد حاول تجنب الدخول فى معركة بكل وضوح •

وأوقف ادوارد جيشه شرق كريسى تماما ، ولم يكن مكان التوقف على الطريق الذى توقع اجتياز الفرنسيين له عند قدومهم من أبيفيل Abbeville وانما اختار هضبة صغيرة شمال هذا الطريق وموازية له ، وحقق وجود غابة ، وجدول صغير ، بعض الحماية لميمنة جيشه • كذلك أمر ادوارد بحفر الخنادق لتحقيق حماية أكثر لذلك الجناح من جيشه ضد هجوم فرسان العدو • واستنتج ادوارد أيضا أنه اذا واصل الفرنسيون تقدمهم على الطريق ، فسيكون من الصعب على الفرسان ، مهما كانت قوة تنظيمهم ، اختراق صفوف الجيش ، اذا ما قدر لهم أن يقتربوا ، وصاروا جنبا الى جنب مع القوات الانجليزية • وكان أمل ادوارد فى حدوث هجوم عاجل وغير منظم على قواته ، ذلك لأنه شعر بأن مثل هذا النوع من الهجوم فحسب ، هو الذى يمكنه من الحاق الهزيمة بالعدو • واذا ما أجلت طلائع الجيش الفرنسى هجومهم الى أن يتخذ كل الجيش مواقعه فى مواجهة الجيش الانجليزى ، فان احتمالات انتصار الانجليز سوف تتضاءل بلا ريب •

قام ادوارد بصف جنوده فى ثلاثة أقسام ، كل قسم يتكون من قلب من الرماحين والرامين بالسهام والفرسان الذين ترجلوا عن خيولهم ، ويحمى كل قسم جناحين وحاجز من الرماة بالسهام • وأمر ادوارد فرسانه جميعا بالترجل عن خيولهم والانضمام الى المشاة ، نظرا لأن قلة عددهم لا تمكنهم من العمل العسكرى كوحدة قائمة بذاتها • كما أن وجود الفرسان بين الرماحين فيه تأكيدا لهؤلاء الجند المشاة أن رجال الفرسان الذين شاركوهم القتال ، وأنهم لن يتمكنوا من الهروب اذا مادارت المعركة فى غير ما يتمنى الجميع ووضع ادوارد قسمين من جيشه فى مواجهة الطريق على الجهة اليسرى واحتفظ بالقسم الثالث بالقرب من طاحونة هوائية التى استعملها كبرج للمراقبة • وما أن اتخذ رجاله مواقعهم حتى تناولوا طعام الغذاء وانتظروا التطورات •

أما فيليب فقد قضى الليل فى أبيفيل Abbeville ، على بعد

ميلين ونصف ميل جنوب كريسى · وفى الصباح ، وبعد أن سمع فيليب موسيقى القداس اجلالا واحتراما لجده الأعلى الورع لويس التاسع ، بدأ فى التحرك ليلاقى الانجليز · غير أن وقتا ثمينا ضــــاع فى البحث عن العدو · لقـــد كان معروفا أن ادوارد بالقرب من كريسى الا أن الطريق الذى سلكه الفرنسيون قادهم الى غرب تلك القرية · كما أدت السرعة فى تصحيح مسار الجيش الى حدوث تأخير واضطراب شديد · وبسـبب الوقت الضائع فى تصحيح مسار تقدم الفرنسيين ، فانهم لم يلحقـــوا بالانجليز حتى وقت متأخر بعد الظهيرة ، وربما كان حوالى الساعة الرابعة . واقتضت الحكمة أن يسمح فيليب لرجاله الجوعى والمرهقين أن ينالوا قسطا من الراحة ، قبل الدخول فى المعركة ، وهو الأمر الذى حدث بناء على رأيه ، ورأى جهازه الاستشارى · وتم ابلاغ كونت ألينكون Alencon الذى كان يرأس القسم المتقدم بما تم الاتفاق عليه (كان الجيش الفرنسى مقسما أيضا الى ثلاثة أقسام) ·

وعلى الفور جرت الأمور وفقا للأوامر · اذ أوقف ألينكون وجيشه الأمامى تقدمهم بناء على الأوامر ، حيث كانوا فى ذلك الوقت جنبا الى جنب ميمنة جيش ادوارد تقريبا ، بيد أن الجنـــود الذين فى المؤخرة ظـــلوا يضغطون الى الأمام · ويبدو أنهم لم تصلهم التعليمات على الوجه الأكمل عن مسألة التوقف ، أو أن درجة عدم انضــباطهم هى التى حالت دون تنفيذ الأمر · وساد الاضطراب بسبب اندفاع الجنود من الخلف الى الأمام وازدحامهم بين أولئك الذين كانوا قد توقفوا بالفعل · وربما من أجل انقاذ الموقف الذى أنذر بالتحول من سىء الى أسوأ ، وربما بسبب تهـور واندفاع فيليب الذى سيطر عليه ، أو ربما ادراكه أنه لن يستطيع أمر فرسانه بالروع للخلف بعد أن تحركوا فى مواجهة العدو مباشرة ـ وأيا كان التعليل ، فقد أصدر الملك الفرنسى الأوامر بالهجوم ·

ويتحدث المؤرخ فريسارت Froissart عن هطول وابل شديد من الأمطار عند بداية المعركة ، ثم انقشعت السحب ، وظهرت الشمس ساطعة ، لتسلط أشعتها على أعين المهاجمين الفرنسيين مباشرة · ولم تكن المزايا التى تمتع بها الانجليز قاصرة على وجود الشمس من خلفهم ، وانما امتدت لتشمل مزايا نفسية وبدنية اذ كانوا على منطقة أعلى من المنطقة التى بها العدو ، وتمتعوا بوضوح الرؤية والمشاهدة لذلك العدو أيضا ·

بدأ الرامون بالقوس والنشاب من أهالى جنوه Genoese المعركة · فبعد أن أطلقوا ثلاث صيحات عالية على أمل القاء الرعب فى قلوب الرامين بالسـهام من الانجليز ، أطلقوا سهامهم القصيرة · فسقط معظمها أمـام

الانجليز دون أن تحدث أى أذى (٣) · ويقال أن الأمطار جعلت السيور الجلدية للاقواس والنشاب رطبة وأضعفت من فعاليتها بشكل خطير · ثم اتخذ الرامون بالسهام من الانجليز خطوة الى الامام ، وأطلقوا سهامهم بكميات كثيفة جعلت المؤرخ فرويسارت يقول أن الأمر بدأ وكأن السماء تمطر ثلجا · وعندما أدرك الرامون بالقوس والنشاب من آهالى جنوه فشل هجومهم ، استداروا للنجاة من سهام الانجليز المميتة · بيد أنهم وجدوا الطريق مغلقا فى وجوههم لتقدم جماعات الفرسان عند ذلك اعتقد فيليب أن الجبن أو الخيانة هى السبب الرئيسى فى حمل الرامين بالقوس والنشاب على الانسحاب · لذلك أمر فرسانه بالتقدم ، وأن يقتلوا أى رام بالقوس والنشاب يعترض سبيلهم ، حيث صرخ قائلا : « اقتلوا هؤلاء الاوغاد ، لأنهم يعترضون سبيل طريقنا دون أى سبب » ·

كان هجوم الفرسان الفرنسيين الأول شديد الضراوة · ومن بين الخمس عشرة هجمة أو الست عشرة هجمة التى حدثت كان آخر الهجمات فى المساء · (اذ يقول فرويسارت أن الأخيرة كانت عند صلاة المساء) واتضح أن احدى تلك الهجمات ضد ميمنة الجيش الانجليزى كانت من الشراسة ، الأمر الذى وجد فيه ادوارد ضرورة ارسال ثلاثين فارسا لتخفيف الضغط الشديد الذى تعرض له أمير ويلز ، قائد ذلك الجناح · غير أن الأمور سارت بصفة عامة فى غير صالح الفرنسيين · اذ تعرضوا للسهام الطويلة التى أشاعت الموت والهلاك · ثم كانت هجمات الرماحين الانجليز الذين استخدموا مديهم الطويلة والحادة فى بقر بطون الخيول ، وقطع رقاب الفرنسيين الذين وقعوا تحت أيديهم · وقال فرويسارت ، أن ادوارد نفسه كان غاضبا بسبب الحماس المجرد من الرحمة الذى ابداه الرماحون الانجليز · وكتب فرويسارت قائلا : « من بين الانجليز يوجد بعض الأوغاد ، الذين ساروا على الأقدام ، ومعهم مدى طويلة ، وقاموا بذبح وقتل الكثير من الرجال الذين كانوا منبطحين على أرض المعركة ، الأمر الذى أساء استياء الايرلات ، والبارونات ، والفرسان ، واتباع الفرسان ، بما فيهم ملك انجلترا ، لأنه كان يفضل أسرهم · » ان الكونت القتيل لايفيد ادوارد بأى شىء ، وانما الفدية الكبيرة التى يحصل عليها من عشرين كونتا مقابل اطلاق سراحهم ربما يمكن أن تغطى نفقات الحرب !

ويصف المؤرخ الفرنسى بيروى Perroy المعركة على أنها انتهت بنصر الانجليز بيد أنها لم تحقق الا القليل من الفخر والشرف · اذ كتب يقول : « فى الحقيقة ان ادوارد مدين بانتصاره الى احساسه بالنقص لقلة عدد قواته ، وهو الأمر الذى يبدو شاذا · اذ أن انتصاره للعدو فى العراء ، ومحاولته اجراء قتال متلاحم بين الفرسان ، واعنى بذلك شن حرب وفقا

للقواعد التى يحترمها شخصيا، ويرغب اتباعه الاقطاعيين فى مشاهدتها ، والتى كان من الممكن أن تكون حماقة لاتغتفر · اذ كان عليه أن يلجاء الى خدع دون اعداد مسبق لها . والتى كان يشعر ببعض الخجل فى أعماق قلبه من جرائها ··· فالأسوار الخشبية والشجيرات الصغيرة ، أخفت المشاه الذين لم يكن لهم نصيب فى الاحترام · وفى بداية الأمر صدرت الأوامر للرامين بالسهام من أهالى مقاطعة ويلز بأن ينقضوا على الخيول والفرسان الذين يقاتلون دون خيولهم بأقصى درجات السرعة بل ان قليلا من الموانع التى لا تستخدم سوى فى أعمال الحصار ، استخدمها ادوارد ، لاشاعة الذعر فى الوقت المناسب · وعندما بدأ القتال تحول الى مذبحة رهيبة » (٤) · وفى صباح اليوم التالى قام ايرل ساليسبيورى earl of Salisbury بتقطيع كل الجنود المشاة الذين أرسلتهم المدن العديدة ، والذين وصلوا متأخرين ، أربا أربا ·

لقد كانت خسائر الفرنسيين فادحة للغاية · وللدلالة على شدة ضراوة المعركة ، وبشاعة الكارثة التى منيت بها فرنسا ، وجود قائمة طويلة للنبلاء الكبار الذين لقوا حتفهم بها · ومن بين هؤلاء ، دوق اللورين Lorraine ، وألينكون Alencon وكونتات فلاندر Flanders وأوكسير Auxerre وهاركورت Harcourt ، وسانكير Sancerre وبلواز Blois وجراندبرى Grandpre ، وسالم Salm ، وبلامونت Blamont وفوريز Forez ، وملك بوهيميا Bohemai الضرير · ويقال أن حوالى ألف وخمسمائة فارس ، وأتباعهم ماتوا ذبحا · وأصيب فيليب فى هذه المعركة بجرح فى رقبته من سهم ، كما قتل جواده · ولم يكن هناك افتقار الى البطولة من جانب الفرنسيين · وكانت الخسائر الانجليزية طفيفة · وبالطبع لم تكن هناك خسائر بين النبلاء الانجليز الكبار اذ أن معظمهم ظل فى انجلترا ·

ومن بين الأسباب المهمة التى ساهمت فى انتصار الانجليز ، كان الموقع الدفاعى الذى اختاره ادوارد ، والذى استطاع الاحتفاظ به طوال القتال · وكان قد انتصر على الاسكتلنديين فى معركة هاليدون هيل Holidon Hill فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٣٣٣م ، عندما أمر جيشه من الرامين بالسهام والفرسان بالنزول من فوق خيولهم فى موقع دفاعى قوى مشابه للمكان الذى حدثت به معركة كريسى · وانه لعمل يحسب لادوارد على ذكائه ، اذ أنه كان قادرا على أن يقود جيشه فى معركة دفاعية بحتة · بل أنه بعد المعركة أعطى أوامر مشددة بعدم تعقب الفارين · اذ لو أن جماعة من الخيالة الانجليز انطلقوا لجمع الغنائم ، مثلا ، ربما

وجدوا أنفسهم تحت رحمة الفرسان الفرنسيين ، الذين اشـــتركوا فى المعركة ، أو لم يشتركوا فيها • وان عدم مقدرة الفرسان الفرنسيين على اختراق موقع ادوارد الدفاعى يمكن أن يشب على تقاعس الرامين بالقوس والنشاب فى أداء مهمتهم ، ثم فى عدم توافر النظام من جانب الفرسان الفرنسيين • اذ كان عليهم ألا يشتبكوا فى العدو الا بعد أن يصلوا الى موقع فى مواجهة الفرنسيين ، وعندما يكونون قادرين على الهجـــوم على امتداد الجيش •

ومن الراجح أن دور المستخدمين للأقواس الطويلة من الانجليز كان حاسما • اذ أن حوادث فيليب المؤسفة ــ الجرح الذى كان برقبته وجواده الذى نفق ــ كان من صنع الرامين بالسهام • وبرغم ذلك فان هذه النقطة جديرة بالتفكير مليا ، وأعنى ، أن العلماء المعاصرين للشئون الحربية لم يدركوا أن القوس الطويل أحدث أى تغير أساسى فى فن الحرب • وفى الأراضى الجبلية ، حيث يكون الفرسان فى ظروف معوقة ، ولا يستطيعون القتال بأعلى فعالية ، فان القوس الطويل لعب دوره دون منازع • وفى معركة كريسى كان ادوارد على استعداد أن يستبدل الرامين بالســـهام التابعين له بعدد مساو من الفرسان ، وعلى امتداد حرب المائة عام ، فبرغم استمرار الانجليز فى استخدام الرامين بالسهام فى معاركهم ، فانهم وكذلك الفرنسيين كانوا مقتنعين بأن الفارس المثقل بالأســـلحة والدروع يشكل القوة الضاربة فى ذلك العصر دون منازع •

ولابد أن ادوارد كان مندهشا لسهولة انتصاره ، مع عظم أهميته • وعلى ما يبدو أنه لم يكن يعتزم سوى القيـــام باغارة تدميرية فى الأراضى الفرنسية ، ونظرا لاقتراب فصل الصيف من الانتهاء ، فان ادوارد لم يكن لديه تفكير فى استثمار انتصاره • وفى هذا المقام أبدى ادوارد حكمة وبعد نظر • اذ ما زالت فرنسا محتفظة بكل قوتها ، وفى استطاعتها حشد جيش فرنسى جديد فى مثل حجم الجيش الذى منى بالهزيمـة ، وربما تعـــلم الفرنسيون من الأخطاء التى ارتكبوها فى موقعة كريسى •

ولم يكن لدى ادوارد رغبة سوى فى العودة الى انجلترا • ومع ذلك فقد كان فى حاجة الى ميناء لركوب متن السفن ، وميناء آخر ليقـــوم بعمل رأس جسر للحملات الحربية فى المستقبل الى القارة الأوربية • لذلك تحرك جيشه الى كاليه Calais فى اقليم بولون Boulogne ، الذى يتاخم اقليم فلاندر الى الجنوب • وكانت ميناء كاليه أفضل الموانى على امتداد كل شواطىء البحر فيما بين اقليمى فلاندر وبريتانى Brittany كما أنها مدينة يصعب الاستيلاء عليها • اذ أن الخنادق العميقة والســـور المزدوج ــ كل ذلك جعلها منيعة ، وفى مأمن من هجوم مباشر • وأدرك

ادوارد أن عليه أن يعرض كاليه الى المجاعة حتى الاستسلام ، ولهذا السبب أحاط تلك المدينة بسد ليقطع عنها المواد التموينية ، هذا فى الوقت الذى قامت فيه سفنه باعتراض سبيل كل الاتصالات البحرية اليها عن طريق البحر . وعلى ذلك قام جيشه الذى زاد تعداده عن خمسة عشر ألف مقاتل ، بمحاصرة المدينة طوال فصلى الشتاء والربيع . كما استطاع فيليب حشد جيش فى يوليو التالى وتحدى ادوارد فى الخروج من خلف استحكاماته التى بناها على وجه السرعة من الأشجار والأحجار والمطى ، ومواد البناء الأخرى ، والدخول فى معركة . بيد أن ادوارد رفض ذلك . اذ كان ادوارد يدرك أن الوقت فى صالحه ، وبالفعل كان كذلك . ثم استسلمت كاليه فى الرابع من أغسطس سنة ١٣٤٧م . ثم ترك ادوارد حامية فى مدينة كاليه ، ورجع الى انجلترا فى أكتوبر .

وماذا يعنى انتصار ادوارد المبين فى كريسى بالنسبة لانجلترا وفرنسا على وجه التحديد ؟ ان أهم النتائج الفورية لانتصار ادوارد ، هو احتلال كاليه ، اذ ثبت أن له أهمية بارزة . فطوال المدة التى سيطر فيها الانجليز على هذه الميناء (حتى سنة ١٥٥٨م) ، ظلوا فى مأمن من أى غزو فرنسى . وأمدت كاليه الانجليز برأس جسر عبر البوغاز من دوفر Dover ، وفاقت كل من اقليمى فلاندر وجاسكونى البعيدين . وابان الفترة التى عرفت بحرب الوردتين (١٤٥٥ ــ ١٤٨٥م) ، والتى تلت حرب المائة عام (١٣٤٦ ــ ١٤٤٦م) ، لامتلاك ادوارد لكاليه الفضل فى تحقيق أعظم انتصار على سكان لانكستر .

ان كريسى تمثل الانتصار الأول والأكبر الذى حققته انجلترا على القارة الأوربية باعتبارها دولة « من أمة واحدة » . وبعد كريسى كان الفرنسيون ، والجرمان ودول القارة الأوربية الآخرون ، أقل تحمسا لطرد الانجليز على اعتبار أن ذلك أمرا لا أهمية له . وفى بداية حرب المائة عام كانت انجلترا مقتنعة بالاحتفاظ باقليم جاسكونى كاقطاعة تابعة للتاج الفرنسى مع توقف جهود الموظفين الفرنسيين ، واحكام السلطة الانجليزية فى ذلك الاقليم . وبعد كريسى رأى الانجليز أن من حقهم الاحتفاظ بجاسكونى باعتبارها ملكا لهم ، وكذلك الأجزاء الفرنسية الأخرى التى كسبوها بالحرب . وباختصار فان انتصار ادوارد فى كريسى أكد استمرار الصراع المعروف باسم حرب المائة عام . اذ تبع ذلك الانتصار ، انتصار آخر فى بواتير Poitiers سنة ١٣٥٦م ، مما جعل الانجليز مقتنعين أنه ، برغم النقص الملحوظ فى تعداد سكانهم وفى مواردهم ، فكأنهم كانوا قادرين تماما على السيطرة على قدر من مساحة فرنسا يعادل الذى سيطر عليه الفرنسيون أنفسهم .

٨ ـ معركة أنقــرة

« اسمه تيمور ... ولد هذا المخادع فى قرية الامير ايلجار Iigar فى بلاد كيش Kesh ـ اللهم لا تجعل له بقاء فى جنة أرضك ـ وكيش احدى مدن بلاد شرق بحر قزوين ، على بعد سمرقند ... وكان (تيمور) ووالده من الرعاة ... ويقول البعض أن والده كان حدادا فقيرا ، بيد أن تيمور كان مفرطا فى الذكاء وقوى البنية . ودفعه الفقر الى مزاولة قطع الطرق ، وأصيب بجرح أثناء هذه العمليات أدى الى حدوث عاهة . ففى احدى الليالى أراد أن يذبح حملا بعد أن سرقه ، فأصابه صاحب الحمل بسهم فى كتفه ، وأحدث به تشويها ، ثم حدثت له عاهة مستديمة فى ساقه نتيجة لسهم آخر . وبذلك أضيفت عمليتى التشويه والعاهة الى فقره ، وميله الشديد لالحاق الاذى بالآخرين ، وحقده الشديد ، حيث انطلق يعيث الفساد ضد كل العباد » (١) .

هذا ما كتبه ابن عربشاه عن تيمور . وكان ابن عربشاه قد انتقل بالقوة الى سمرقند ومعه والدته واخوته ، مع آلاف آخرين من التعساء ، عندما سقطت دمشق فى يدى تيمور سنة ١٤٠١م . وفى ذلك الحين جعل تيمور من مدينة سمرقند ، أكبر ، وأجمل وأهم مركز تجارى فى أواسط آسيا . وعلى الرغم من أن ابن عربشاه وصل الى سمرقند كأحد الاسرى، فان الحظ تبسم له ، اذ تلقى تعليمه فى سمرقند ، وسافر كثيرا ، وعمل مستشارا للسلطان أحمد جلال يار فى بغداد . واذا كان عربشاه احتفظ منذ صباه بأى احساس بالمرارة تجاه تيمور لتحويله أسرته الى عبيد ، فان هذا الاحساس تفاقم سنة ١٤٠١م ، عندما استولى تيمور على بغداد ، واجبر جلال يار على الهروب الى بايزيد ، سلطان الأتراك العثمانيين ، طلبا للحماية . ولقد خاض تيمور معركة أنقرة ضد بايزيد .

ويبدو أن عربشاه ليس مصدرا ملائما للمعلومات عن حياة تيمور ،

ومع ذلك قبل العلماء الكثير من تحليلاته باعتبارها صحيحة بصفة عامة ٠ ويعتقد ابن عربشاه أن تيمور ينتمي الى أصول متواضعة ، ومن المحتمل أنه ينتمي الى الرعاة ، وأنه ولد سنة ١٣٣٦م بالقرب من كيش (شهرزاب الحديثة) ، التي تبعد خمسين ميلا جنوب سمرقند ، في اقليم شرق بحر قزوين ، وتحول الى قاطع طريق في شبابه ، وفي مكان ما ٠ ابان حياة العنف أصيب بجروح نتج عنها اصابته بالشلل في ذراعه الايمن وساقه اليمنى ٠ ولابد أنه أصيب بتلك الجروح من أحد الرعاة في ثورة غضب ويقول المؤرخ العربي الشهير ابن خلدون ، الذى زار تيمور في معسكره خارج دمشق ، ان تيمور اعترف له بذلك ٠ وبسبب عاهته أطلق عليه تيمور الاعرج (من الاسم الفارسي تيمورلنك) وقد تأكد ذلك سنة ١٩١٤م، عندما نبش قبره في سمرقند ٠ وكما ذكر عربشاه ، « انطلق تيمور يعيث الفساد ضد العباد » ٠ وهو قول صحيح ٠ ومن الراجح أن الانسان الوحيد فيما قبل العصور الحديثة ، الذى عرض شعوبا كثيرة للذبح والتقليل ، وأحدث خرابا أكثر ، ابان بنـــاء امبراطوريته ، سلفه المغـــولى (٣) ، جنكيزخان ٠

ان الغربيين لديهم معلومات قليلة عن البلد التي ولد بها تيمور ٠ وكان الاسكندر الأكبر قد خاطر بالذهاب الى ذلك الاقليم غير المعلوم سنة ٣٢٩ ق ٠ م ، قبل الاتجاه جنوبا صوب الهند ٠ ومنذ القرن الثاني عشر بدأت البعثات التبشيرية النسطورية ترفع الستار التي حجبت تلك الأراضي عن أوربا ٠ وكان جنكيزخان أشهر قادة المغول والشخص الوحيد الذى أجبر العالم المسيحي على الاهتمام ، اذ شملت الامبراطورية التي أقامها ، والتي عمل أبناؤه وأحفاده على زيادة رقعتها ، بلاد الصين ، ووسط آسيا ، وبلاد الفرس وبلاد ما بين النهرين ، وجزء من بولانده ، والمجر ، والجزء الأكبر من روسيا ٠ وعلى الرغم من أن الامبراطورية المغولية ظلت محتفظة بكل قوتها لفترة قصيرة من الزمن فحسب وأخذت في التدهور منذ نهاية القرن الثالث عشر ، فان دولة مغولية واحدة قدر لها البقاء ٠ وكان هناك تقليد على أن يمارس رؤساء القبائل المحليين سلطتهم ، وفقا للسلطة العليا الممنوحة لهم باعتبارهم من سلالة جنكيز ٠ ولم يكن مسموحا الا لسلالة جنكيز في أن يحمل لقب خان ٠ ومن المحتمل أن الامراء المحليين ، الذين انتشروا حول العالم المغولي حكموا قبائلهم ، وحاربوا جيرانهم كممثلين عن خان شرقي وان ظلوا في عزلة عنه نسبيا ٠

تلك كانت الحالة في شرق بحر قزوين ، عندما ولد تيمور وتنحدر أسرته من سلالة أسلاف المغول ٠ وانتمت الى الأتراك عندما ولد تيمور ، على الرغم من أن تيمور ظل دائما يبدى تبجيلا لذكرى جنكيز خان ٠ ومنذ

الصغر ، كان تيمور مولعا بحياة الجندية ، حيث كانت الفرصة متاحة هناك فى أرض غير مستقرة ، وغنية ، وخاصة مثل شرق بحر قزوين • وهناك مدن مزدهرة مثل سمرقند ، وبخارى اللتان عملتا على زيادة أهمية البلاد • واجتازت القوافل المحملة بالبضائع طريق الحرير القديم بين غرب آسيا والصين بصفة مستمرة • وبمرور الوقت انضم تيمور الى الخدمة العسكرية عند الأمير وفاز بالحظوة عنده الى حد أنه تزوج من حفيدته • وشهدت السنوات التالية تعاونا بينه وبين صهره حسين ، فى بسط نفوذهم على اقليم شرق بحر قزوين • وتلى ذلك خطوة مهمة فى حياة تيمور عندما قتل صهره ، وتزوج من زوجته ، التى كانت احدى قريبات جنكيز خان — وهو الرابط الوحيد الذى تمسك به تيمور فى انضمامه الى أسرة الخان الشهيرة — وفى سنة ١٣٧٠م انتخبه الأمراء وريثا لشغطاى (الابن الثانى لجنكيز خان) وحاكما على اقليم شرق بحر قزوين •

وقضى تيمور السنوات التالية فى تدعيم سيطرته على اقليم شرق بحر قزوين ومد نفوذه على خانات تركستان وخورسان • وشكل معظم هذا الاقليم الامبراطورية التى تركها جنكيز الى ابنه الثانى شغطاى ، الذى اعتبر تيمور نفسه وريثا له • وكان موقع هذه الامبراطورية جنوب بحيرتى أرال وبلخ تقريبا • وما أن نجح تيمور فى اخضاع هذه الأراضى الشاسعة ، حتى وقع فى أفدح الأخطاء فى حياته ، وفقا لما قاله أرنولد توينبى Arnold Toynbee (٤) • فبدلا من تكريس جهوده لاعادة انشاء الامبراطورية الاوربية الآسيوية Euradiam Empire التى أقامها جنكيز ، والعمل الشاق المتعلق بفرض السلام على القبائل الرحل المختلفة ، والتى عاشت على الترحل فى هذا الاقليم الشاسع ، فانه وجه كل اهتماماته الى الغرب والجنوب ، وروسيا ، والقوقاز ، وايران ، والهند ، بل وسوريا حتى أضاع وقته فى الحملات الحربية المدمرة والمثيرة للذعر ، وضم الأراضى ، وهو الأمر الذى ذهب أدراج الرياح فى لحظة وفاته تقريبا •

قاد تيمور جيشه شمال بحر آرال لكى يجبر أتراك كازاخستان Kazakhstan على الخضوع لحكمه • وبتحركه الى هذه المنطقة دخل فى صراع مع خانات القبائل الذهبية والقبائل البيضاء ، الذين امتد نفوذهم غربا الى روسيا وما خلفها • وكانت القبيلة البيضاء القبيلة الأولى التى التقى بها تيمور لقربها منه ، ووجد تيمور الفرصة للتدخل عندما هرب اليه توختاميش Tokhtamish أحد الأمراء من الطبقة الحاكمة ، طالبا حق اللجوء • وأمده تيمور بالجيوش لعدة سنوات لمحاربة خان القبيلة البيضاء • وبعد عدة محاولات غير موفقة ، فقد فيها تيمور ثلاثة جيوش ،

استطاع توختاميش هزيمة الخــان وأعلن نفســه حاكما على البيضــاء (١٣٧٨ م) • وبعــد ذلك بســنوات ثلاث هــزم توختاميش خان القبيلة الذهبية ، واستولى على موسكو بالخيانة ، وأعلن نفسه خانا على كل من القبيلتين الذهبية والبيضاء •

غير أن نجاح توختاميش جعله ينسى ولى نعمته ، وسيده ، وبناء على طموحاته فى اقامة امبراطورية أكبر ، فانه دخل فى مفاوضات مع سلطان مصر من أجل اقامة تحالف ضد تيمور • وعلى الفور دخل تيمور فى حرب ضد توختاميش ، بسبب الخلاف حول حدود أقاليم خورسان ، وشرق القوقاز فى بداية الأمر ، ثم بسبب شرق بحر قزوين نفسها • ودفعت مغــامرة توختاميش الجريئة به الى بخارى ، بيد أنه وجد المدينة قوية التحصين ، لدرجة أنه وجد استحالة الاستيلاء عليها • ودخل الرجلان فى معارك مريرة ، غير أنها لم تكن حاسمة • وكان آخرها فى أبريل ١٣٩٥م فى القوقاز • وانتصر تيمور على جيش خصمه وقضى عليه •

وفى ذلك الحين تحرك تيمور صوب روسيا للاستيلاء على موسكو • وبعد التخلص من توختاميش ، كان دوق موسكو هو أقوى رجل فى روسيا ، الذى مد نفوذه على الامارات المجــاورة له ، وعلى نوفجورد Novgord الى الشمال • وعند اقتراب تيمور من مدينة موسكو ، استعدت المدينة ، على قدم وساق ، للدفاع عن نفسها ، بل وأرسلت الى الكاتدرائية فى مدينة فلاديمير Vladimir فى طلب أيقونة سيدتنا (مريم ابنة عمران) (*) للحصول على بركة السماء ومساعدتها • وربما من قبيل المصادفة أن انسحب تيمور بجيشه عن مدينة موسكو وعاد ثانية الى مدينة سمرقند ، فى نفس اليوم الذى وصلت فيه الايقونة • ورغم ذلك فقد ترك تيمور الانطباع بأنه استولى على مدينة موسكو ، وغزا روسيا • ولقد قبل العديد من العلماء المحدثين هذه المعلومة من الناحية الظاهرية • ومن المحتمل أنه كان فى مقدرته الاستيلاء على موسكو ، ولكن بعد أن يكون ضرب حصارا طويلا حولها وتكبد خسائر جسيمة • ومن الواضح أنه وضع فى اعتباره شجاعة المحاربين من الروس وحلفائهم ومقدرتهم القتالية • ولا شك أنه علم أن توختاميش لم يتمكن من الاستيلاء على تلك المدينة من قبل الا بالخيانة •

على أية حال ، عاد تيمور الى شرق بحر قزوين حيث مارس عمليات السلب والنهب ، وهو فى طريقه ، وقام بهدم كل مراكز التجارة الكبرى فى جنوب روســيا مثــل ساراى Saray ، وآزوف Azov

---

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

(تانا Tana) ، وأستراخان Astrakhan ، كما سواها جميعا بسطح الأرض • وكان تخريب مدينة ساراى شديدا لدرجة أنه لم يبق سوى الأنقاض • وأصيبت خاقانية القبيلة الذهبية بضربة اقتصادية مميتة كنتيجة لحملة تيمور فى روسيا • اذ أن الطرق التجارية التى كانت من قبل تمر ببحر قزوين الى الصين والهند تحولت فى ذلك الحين جنوبا عبر شرق بحر قزوين • ولم تسترد القبيلة الذهبية مركزها المهيمن مرة ثانية أبدا وتدهورت تدريجيا نتيجة لما فعله تيمور المفزع •

ان سير حملات تيمور ضد توختاميش قد أفضت الى تحوله الى فاتح عالمى وعن ادجار آلن بو Edgar Allan Pow أن تيمور قال متأملا « انى ساكن كوخ ، ولكن عرش نصف العالم تحت سيطرتى » (٥) • وبحلول سنة ١٣٩٥م ، قضى تيمور على توختايش ، وفتح أفغانستان ، مغولستان – ويضم هذا الاقليم الشاسع بلاد الجاتى Jats (شعب هندى أوربى يقيم فى البنجاب بالهند) ويمتد جنوب بحيرة بلخ الى حدود الصين – خوراسان ، وجورجيا ، والعراق • وكان قد توجه الى العراق سنة ١٣٩٣ م • وعند اقتراب تيمور من العراق ، هرب أحمد جلال يار سلطان العراق ، الى برقوق سلطان مصر ، طلبا للحماية ، دون أن يبدى أى مقاومة لتيمور • وعندما أرسل تيمور السفارات الى القاهرة طالبا تسليم أحمد جلال يار اليه • لم يكتف براقوق برفض تسليمه أحمد جلال يار ، وانما أعدم أحد أعضاء وفد تيمور • واستمر برقوق فى تحديه لتيمور الى أن توصل الى نوع من التفاهم والاتفاق مع بايزيد السلطان التركى ، من أجل اقامة جبهة موحدة ضد تيمور • ومن الواضح أن العلاقات ظلت قائمة بين مصر والعثمانيين الأتراك غير أن دورهم جاء فيما بعد •

وفى ربيع سنة ١٣٩٨م ، لم يقد تيمور جيشه لمحاربة العثمانيين الأتراك أو سلطان مصر عدوه الرئيسى ، وانما صوب الهند • وطالما أن الهند لم تكن تشكل خطرا على امبراطوريته ، فان التفسير الوحيد لذهابه اليها هو كميات الغنائم الهائلة التى توقعها تيموز وجيشه هناك • ولسنوات كثيرة قام امراء المغول بغارات على شمال الهند • وعلى الرغم من أن هذا الاقليم كان به الكثير من المدن الغنية هنا وهناك ، فانه افتقر الى الوحدة السياسية • وهذه المنطقة وما بها من مناخ دافىء ووديان مورقة ، الامر لذى جعله موضع اغراء بصفة خاصة الى تيمور والمغول • وفى شهر أغسطس وصل تيمور الى كابول فى أفغانستان ، حيث وردت الوفود التى أرسلها حكام الولايات المحيطية بها يعلنون ولاءهم

(★) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

واستسلامهم بعد أن اصيبوا بحالة من القلق · وفى شهر سبتمبر وصل تيمور الى نهر الهندوس Indus River · وفى شهر ديسمبر ضرب الحصار حول مدينة دلهى الكبيرة · ثم قام بذبح أكثر من مائة ألف من الأسرى الذكور الذين جمعهم ، وهو فى طريقه الى الجنوب ، خشية أن تصدر منهم متاعب ابان حصار دلهى ·

كان من الممكن أن يستولى تيمور على مدينة دلهى دون صعوبة كبيرة ، الا أن حاكمها الضعيف سهل عليه الأمر ، اذ خرج بجيشه خارج اسوار المدينة ، والتقى مع تيمور · أما تيمور الذى كان على علم بأن جيشه سيلتقى بالفيلة ، أشعل النيران فى حزم الحشائش الجافة ، والأعلاف التى كانت على ظهور الجمال والجاموس ودفع بها جميعا تجاه الفيلة ، التى لاذت بالفرار مذعورة · وهكذا تم الاستيلاء على مدينة دلهى المدينة الرئيسية ، فى شمال غرب الهند ، بطريقة أسهل كثيرا مما كان متوقعا · ومن المحتمل أنها كانت أكبر مخزن للغنائم التى لم يحصل عليها المغول من قبل فى أى وقت ، « ان الثروة التى جمعها أجيال السلاطين ، اختفت فى أيام قلائل فى أيدى التتار » (٦) وتعرضت دلهى نفسها لعمليات سلب ونهب مجردة من كل رحمة لمدة ثلاثة أيام ، وبعدها صدر تحذير لكل من يجرؤ على تحدى ارادة تيمور · وبلغت كميات جماجم القتلى ارتفاع الابراج ·

وفى مايو ١٣٩٩م عاد تيمور من الهند الى سمرقند · وكان قد بلغ الثالثة والستين من العمر · ووضع تيمور فى اعتباره ، مسألة كبر سنه ، واصابته بعاهة فى ساقه والتى فرضت عليه أن ينتقل فى محفة من حين الى آخر ، وأصابته كذلك عدة أمراض وضايقته لذلك كله توقع المرء أن يبقى تيمور فى عاصمته الجميلة · بيد أن تيمور كان بدويا عنيدا وعنيفا ، ولم تعجبه حياة المدن على الاطلاق ، بما فيها سمرقند عاصمته · وما زال هناك امبراطوريتان لابد من قهرهما ، مصر والأتراك العثمانيين · ونظرا لأن الأسرتين الحاكمتين فى كل من الامبراطورتين انحدرتا من نفس السلالة التى انحدر منها مقاتليه ، فان هاتين الامبراطورتين عرضتاه الى أخطر اختبار اجتازه طوال حياته ·

وفى ذلك الحين كشف تيمور عن نفسه بأنه مجرد من الرحمة ، ولا يدانيه فى ذلك الا قلة فى التاريخ · اذ لم يكن يسمح لأى شىء أن يعترض سبيله من أجل تحقيق طموحاته ، حتى لو كان صهره ، حسين ، الذى بفضل مساعدته تمكن من الفوز بالسيطرة على شرق بحر قزوين · اذ لم يكد حسين يحقق هدف تيمور حتى سارع تيمور بعزله · وعمل

تيمور على تنمية سلوك التجرد من الرحمة عند رجاله • اذ بعد جمع الصناع المهرة ، والعلماء ، والفتيات ، ومن شابههم من البشر « النافعين » ، فصلهم عن باقى سكان أى مدينة تقع فى أيدى رجاله ، وأرسل كل هؤلاء الى سمرقند ، أما ما بقى من سكان تلك المدنية ، فقد اعتاد الجنود على ذبح الرجال ، والنساء ، والأطفال اذ أن كل هؤلاء لم يكن لهم قيمه تزيد على قيمة الدجاج • ونظرا لأن مدى الأعداء ليس لها فائدة لتيمور ورجاله من البدو فان القليل منها ترك دون الاصابة بأذى • ويذكرنا هذا بالرأى القاسى لتاكيتوس Tacitus المؤرخ القديم ، فى كتابه الزراعة Agricola فى القسم المتعلق بغزو روما لبريطانيا ، « أنهم أحدثوا الدمار والخراب ويطلقون عليه السلام » (٧) •

ان تجرد تيمور من الرحمة كان أحد الأسلحة التى استخدمها ضد أعدائه • وكان يجبر أهالى المدن التى يرغب فى امتلاكها بالابلاغ عن كل ما فى حوزة هؤلاء الذين قاوموا قواته ـ فقام بهدم المدن ، وتسويتها بالأرض ، وذبح الأهالى وحول بعضهم الى عبيد ، ودفن الآلاف أحياء ، فضلا عن اقامة أهرامات من جماجم قتلاه • لذلك استسلمت مدينتى حماه وحمص دون مقاومة • وحدث أن تيمور كان متعجلا فى الاستيلاء على دمشق فى ذلك الحين ، هذا فى الوقت الذى تحرك فيه جيش من مصر ، لذلك لم يتحمل تأخر الحصار • أما عن نجاة دمشق من السلب والنهب والتدمير فكانت مسألة مصادفة ، برغم أن المدينة استسلمت • اذ أن تيمور قد أشار بتدمير المدينة منذ البادية • ذلك لأن اهتمامه الأول كان منصبا على الاحتفاظ بسعادة محاربيه ، ولا شىء يجعلهم أكثر سعادة من أيام السلب والنهب ، وجمع الغنائم ، حيث عودهم تيمور على السماح لهم بذلك عن طواعية بعد احتلال أى مدينة •

على أن تاريخ السلب والنهب والقتل يشير الى تفسير حملات تيمور المستمرة • اذ أن الأمر الوحيد الذى جعل رجاله يشعرون بالرضى هو جعلهم فى حالة تأهب واتاحة الفرصة لهم للاستيلاء على المدن وجمع الغنائم • فلم يكد أن تنتهى حملة عسكرية بالنصر وجمع الغنائم والاسلاب والقتل حتى تتلوها حملة أخرى بعد وقت قصير • وعندما يضع المرء فى اعتباره حقيقة أنه برغم اقتراب تيمور المصاب بعاهة فى ساقه سن السبعين • وظل يعمل على مهاجمة الصين ، للمرء أن يستنتج أنه اما أنه قد أصبح عبدا لطموحاته التى لا حد لها فى أن يحكم العالم ، أو أن ذلك بناء على رغبة جيشه فى السلب والنهب • ولو أنه حاول وضع نهاية لحملاته العسكرية ، لأفلت منه زمام السيطرة على جيشه •

كان ولاء تيمور الظاهرى للاسلام مسألة تثير الدهشة وبخاصة أنه كان رجلا فى غاية القسوة ، ومجردا من أى مبادىء . فقبل كل معركة كان يسجد كما يفعل المسلمون تماما ، وبعد النصر كان يتضرع لله شكرا على تحقيق النصر . وكان يزور المساجد القريبة منه ابان حملاته العسكرية ، ومبررا حملاته العسكرية بأنها ضد الكفرة والنصارى ، والمسلمين الذين لا يتبعون التعاليم الحنيفة للاسلام.ومع ذلك فان هذا كان من قبيل الخداع والرياء . اذ لابد أنه كان يأمل من صلاته ودعائه الى الله أن يمد جنوده بنصر من عنده باعتبارهم يؤمنون بالدين الذى تظاهر بالايمان به . على أن العلماء المتعاقبين أيدوا رأى ادوارد جيبون مؤرخ أواخر القرن الثامن عشر فيما يتعلق بمصداقية عقيدة تيمور أنها كانت ، « احتراما مبنيا على الايمان بالخزعبلات القائمة على أقوال العرافين النبوءات ، وأقوال القديسين والمنجمين ، وأنها كانت وحدها المحركة لسياسته » (٨) .

وبالاضافة الى اشاعة الذعر والتحدث باسم الدين ، استعمل سلاح التجسس على العدو كوسيلة لكسب المعارك . اذ كان جهاز التجسس الذى احتفظ به مزودا بالرجال القادرين على التحدث بلغات الشعوب المختلفة الذين سيحاربهم . فعلى سبيل المثال قد تفرض عليهم الضرورة أن يتظاهروا بأنهم يهود ، ويتحدثون عن التلمود . كما كانت تمر الشهور التى يجمع فيها الجواسيس المعلومات قبل أن يتحرك تيمور للقاء العدو . ووفقا لما ذكره عربشاه ، فان هؤلاء الرجال ، « كانوا يعرضون عليه حوادث وأخبار البلاد البعيدة ، ويصفون له الأمور التى لها أهمية وشهرة ، ويعرفونه أوزان السلع وأسعارها ويحددون له مراكز البريد والمدن ، وخرائط الطرق ، السهلة والوعرة ، والمنازل وأماكن الاقامة ، والمسافات ، طويلها وقصيرها ، والممرات الضيقة ، والمساحات الشاسعة ، والحدود ، وتحديد المسافات شرقا وغربا ، وأسماء المدن والقرى ، والفنادق والمنازل والخانات ، والعشائر وشعب كل مكان وقادتهم ، وأمرائهم ، وعلية القوم والشخصيات البارزة ، والنبلاء ، والأغنياء ، والفقراء ، والاسم ، والكنية ، واللقب ، وأسرة كل فرد والحرفة التى يمارسونها ، والأدوات التى يستخدمونها وبهذه الطريقة يبدى اهتمامه بكل هذه المعلومات ، ويفضل بعد نظره استطاع اخضاع كل الممالك الى سلطانه » (٩) . وبفضل احتفاظه بهذه المعلومات لم يكن تيمور قادرا على تحريك قواته بسرعة غير عادية فحسب ، وانما كان قادرا على التحديد المسبق ، قبل ضرب الحصار على أى مدينة نوعية الثروة التى يتوقع الحصول عليها ، ومن نوعية الفنانين الذين يحتاج اليهم فى سمرقند .

احتفظ جيش تيمور بنفس خصائص ونظم جيش سلفه جنكيزخان بصفة أساسية اذ كان هذا الجيش بدويا فى أغلب الأحوال ، وتركزت قوته فى الفرسـان الذين يستخدمون السهام ، والذين تمرسـوا على المتطلبات الجسمانية لركوب الخيل لمسافات طويلة فى أقصر وقت ممكن ، وتحت أشد الظروف قسوة • وتمرن هؤلاء الرجال منذ طفولتهم على ممارسة مهارتين برعوا فيها عندما صاروا محاربين ، وأعنى بهما ركوب الخيل والرمى بالسهام • ويقال أن صيد الحيوان كانت الرياضة الوحيدة التى مارسها هؤلاء البدو لأنهم استطاعوا ركوب الخيل واستخدام نبالهم • وبسبب قدرتهم على الحركة بسرعة ، وعلى التحمل ــ غالبـا ما كانوا يركبون خيولهم على ضوء القمر أو بمساعدة المشاعل الكبيرة ــ فان جنود تيمور كثيرا ما انقضوا على جيش العدو ومدنه قبل أن يتوقع ذلك العدو بكثير • بل ان الجواد المغولى كان قويا كراكبه ، ويستطيع المرء التعرف على الطرق التى سلكها جيش تيمور من خلال الهياكل العظمية للخيول التى نفقت ابان ركوبها •

واستبقى تيمور على النظام العشرى الذى استخدمه جنكيزخان فيما يتعلق بالناحية الادارية • اذ قسم رجاله الى مجموعات من عشرة رجال ، ومائة رجل ، وألف رجل ، وعشرة آلاف رجل ، وجعل لكل مجموعة قائد خاص بهـا • وكان لكل رجل مكانه المحـدد ، الذى الم يكن فى استطاعته مغادرته مهما كانت الظروف • وحمل الفارس الرامى بالسهام سيفا ذا حد واحد وطرفه معقوق وحاد ، وقوسا وكنانة للسهام وترسا • ووضع الفارس على رأسـه خوذة مدببة ، وارتدى قميصا به دروع ، وترك شعره فى شكل ضفيرة صغيرة تتدلى من مؤخرة الرأس • ولحماية دابته ، وضع حول صدرها وكتفيها بعض وسائل الحماية • وكانت هناك دابة احتياطية لكل فارس لمواصلة العمل اذا ما احتاج اليها • ولجأ تيمور الى استخدام جنود المشاة ، وهو الأمر الذى لم يلجأ اليه جنكيزخان ، على الرغم من أنهم مارسوا فى العادة أعمالا حربية غير القتال المباشر • اذ قام هؤلاء المشاة بالعمل على اجتياز دفاعات العدو المحيطة بمعسكره سرا ، وحفر الأنفاق تحت مواقعه ، وتشغيل وحراسة آلات الحصار ، وتشغيل الآلات القاذفة للهب أو الزيت الملتهب ، والسلالم المصنوعة من الحبال ، والأخشاب الخاصـة بعمل السقالات ، والأدوات والوسائل الحربية • ونظرا لأن تيمور لم يبد على الاطلاق أنه افتقر الى معدات الحصار عندما كان يصل الى مدينة معادية ، فان تعداد الرجال المكلفين بتلك الأدوار المساعدة ربما كان يضاهى تعداد المقاتلين أنفسهم • واستخدم تيمور البارود ، فى نسف الأسوار لا كسلاح نارى يستخدم فى البنادق •

وأما أعداء تيمور ، تركيا ومصر ، فقد قرر تيمور أن يقهر مصر أولا ويخضعها لارادته . ومر هذا البلد العريق بفترات عظمة وتدهور ، وفى عهد تيمور كان فى حالة ازدهار تحت حكم السلطان المملوكى . ان المماليك الأول قدموا الى مصر كرقيق وكانوا من الأتراك والجراكسة ، الذين جلبوا من روسيا ، والقوقاز ، ووسط آسيا لتدعيم الجيش المصرى ، وليكونوا حرسا شخصيا للسلطان . وفى سنة ١٢٥٠م حل المماليك مكان الأسرة الأيوبية المتدهورة ، تحت حكم سلطانه من بينهم . وبعد ذلك بوقت قليل قضوا على جيش مغولى ، على بعد حوالى ثلاثين ميلا شمال بيت المقدس (سنة ١٢٦٠م) . ثم اقتلعوا جذور الامارات الصليبية الباقية فى سوريا . وعلى الرغم من أن العهد المملوكى فقد كثيرا من نشاطه وحيويته التى ظهرت فى بداية عهده ، فان السلطان برقوق استطاع أن يتحدى تيمور ويهدده بنفس القدر الذى سلكه أسلافه ضد الغزاة المغول منذ قرن ونصف من الزمان .

وكان من حسن حظ تيمور ، فى صيف ١٤٠٠هـ ، عندما بدأ السير غربا فى حملة للاستيلاء على سوريا ، أن برقوق كان قد فارق الحياة . اذ مات فى العام السابق وترك عرشا مترنحا لابنه الصغير فرج . ونتيجة للصراع على خلافة السلطنة فى مصر ، كان فرج موفقا فى الاحتفاظ بعرشه ، اذا تجاوزنا عن ذكر الهزيمة على يد تيمور الذى لا يقهر . على أية حال ، لم يكن تيمور منتظرا وفاة برقوق أمام حسم المسألة مع عدو أعد العدة لدحره . وكان برقوق متهما بقتل أحد مندوبيه . واذا كانت هناك ذريعة لمهاجمة مصر ، فقد استطاع أن يجد مبررا فى رفض فرج الاعتراف بسيادته ، واعادة الفارين الذين هربوا من بلاط تيمور .

وكما حدث ، كانت تركيا وليست مصر هى التى عانت أولا من هجوم تيمور فى صيف ١٤٠٠هـ . وكان بايزيد قد اجتاح الامارات فى شرق أناطوليا Anatolia التى كانت تحت قيادة تيمور ، بما فيها مدينة سيفاس Sivas على نهر هاليز Halys River . ولا ريب أن تيمور وضع فى اعتباره خطورة التحرك جنوبا تجاه سوريا قبل الاستيلاء أولا على سيفاس ، والقضاء على خط الدفاع البارز ، الذى بطريقة أو بأخرى يمكن أن يهدد مؤخرة جيشه ، اذا ما قرر بايزيد أن يأخذ على عاتقه القيام بعمل هجومى من تلقاء ذاته .

وشهد أوائل شهر أغسطس وجود تيمور وجيشه أمام أسوار مدينة سيفاس . غير أن استحكامات المدينة كانت من المناعة الى حد

أنها صمدت لمدة شهر تقريبا • اذ نجح المدافعون عن المدينة فى التصدى للهجمات المتكررة ، التى قام بها رجال تيمور والخراب الذى أحدثته النيران ، وآلات القذف بالأحجار (المنجانيق) (*) على أن الأمر الذى شكل خطورة شديدة فى النهاية كان العمل البطىء ، وان كان عملا شاقا قام به آلاف من المدربين على اجتياز الأسوار بحفر الخنادق من تحت أسوار المدينة ، وكان معظمهم من العبيد • وعندما سقطت المدينة فى نهاية الأمر ، ثم جمع الأطفال معا فى مكان واحد ، وداستهم حوافر خيول الفرسان المغول • وقام رجال تيمور بدفن المدافعين الأرمن أحياء ؛ وحملوا معهم آلافا من الفتيات للانضمام الى حريم المغول • أما من بقى من الرجال والنساء فقد تم ذبحهم ، باستثناء المسلمين الذين استطاعوا فدية أنفسهم •

عند ظهور تيمور ، ذهب سلطان بغداد الى بايزيد طلبا للنجاة ، بيد أن تيمور لم يتجه صوب الامبراطورية العثمانية • اذ قرر أن يتعامل مع بايزيد فيما بعد أن يحسم الأمر مع مصر فى الجنوب • وكانت حلب هدفه الأول ، فهى ثانى المدن السورية بعد دمشق فى الحجم والرفاهية والازدهار • غير أن تيمور الشديد الحذر أبطأ من تقدمه عندما اقترب من المدينة لمعرفته بتجمع جيش كبير للقائه ، ويضم متطوعين بعضهم من أقصى الجنوب قرب بيت المقدس • وربما فسر المدافعون عن حلب بطء تقدم تيمور على أنه ضعف • لذلك قرروا لقاء تيمور خارج المدينة ، مما عجل بالقضاء عليهم • وأباح تيمور لرجاله سلب ونهب المدينة لمدة ثلاثة أيام وبعدها ذبح سكانها وقام بهدمها •

ان المصير المرعب الذى انتهت اليه مدينة حلب دفع مدينة حماة على الاستسلام فورا ثم تبعتها كل من حمص وبعلبك ، وفى أوائل سنة ١٤٠١هـ كان تيمور على مقربة من دمشق • ووضع تيمور خطة للقضاء على تلك المدينة المهمة نظرا لأن حجمها الكبير وثروتها يمكنان سلطان مصر من الحصول على قاعدة ممتازة يستطيع منها قيادة الحملات الحربية شمالا ضد امبراطوريته • على أن تيمور سارع فى استغلال الوقت نظرا لأن الاضطراب والخلافات بين سلطات المدينة — السوريون والمصريون ساعدت على جعل مهمته أكثر سهولة • وجاء فرج من مصر ومعه جيش ، بيد أنه فعل ذلك وهو يعانى من قدر هائل من الهواجس والشكوك لأنه

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

يخشى الهزيمة على يد تيمور التى قد تكلفه ضياع عرشه المترنح ٠ وما أن وصل فرج الى دمشق وتناوش مع جيش تيمور حتى سارع بالعودة الى القاهرة عند سماعه أن العديد من الامراء قد عادوا ثانية الى القاهرة دون اذنه ٠

وأغلقت دمشق أبوابها واستعدت لمواجهة هجوم تيمور ، فى الوقت الذى استمرت فيه المفاوضات مع القائد المغولى ، الذى أقام معسكره خارج أسوار المدينة مباشرة ٠ وأفضل المصادر التى أمدتنا بما حدث هو المؤرخ العربى الشهير ابن خلدون ، الذى ذهب الى دمشق مع السلطان فرج ، وظل بالمدينة ٠ ويبدو أن تيمور عبر عن رغبته لمشاهدة العالم ، وعلى ذلك نزل ابن خلدون اليه بواسطة حبل متدل من فوق سور المدينة ، ذلك لأن المجموعة التى رفضت مناقشة شروط تيمور كانت قد أغلقت أبوابها ٠ ووفقا لشهادة ابن خلدون ، فانه تباحث مع تيمور لمدة خمسة وثلاثين يوما ، وانشغلا فى مناقشات علمية تتعلق بمجموعة مختلفة من الموضوعات ٠ وطلب تيمور من ابن خلدون أن يعد له دراسة جغرافية عن المغرب اقليم شمال أفريقيا غرب مصر تقريبا ، على أن يذكر له الجبال ، والأنهار ، والمدن ، « بنفس الطريقة التى تبدو لى تماما » ٠ وهل كان ذلك دلالة على حب الاستطلاع الطبيعى عند تيمور أم أنه كانت لديه رغبة فى الحصول على تلك المعلومات الى أن يأتى اليوم الذى يقود فيه فرسانه الرامين بالسهام الى تلك الأراضى البعيدة ؟ ٠

كانت الفدية الاولى التى وافق تيمور على قبولها ثمنا لحرية المدينة مليونا من الدنانير ٠وعندما قدم اليه قادة المدينة هذا المبلغ ،طالب بعشرة ملايين من الدنانير ، ثم أصر على أن تقدم اليه ثروة كل التجار والاثرياء الذين هربوا من المدينة ، وكذلك كل الدواب والأسلحة ٠ وبعد أن تأكد تيمور من عدم مقدرة المدينة على الدفاع عن نفسها ، اتهم السكان بانهم خارجين على تعاليم الاسلام الحنيف ، وأذن لمحاربيه بممارسة عمليات السلب والنهب وجمع الغنائم وسواء بفعل فاعل أو مصادفة ، اشتعلت النيران بالمدينة وتحولت فى وقت قصير الى رماد مصحوب بالدخان ٠ ومن بين المنشئات الشهيرة كان مسجدها الكبير الذى ضم آلافا من الذين احتموا به ٠ القد ماتوا بعد أن انهار عليهم سقف المسجد ٠ وباستثناء العمال المهرة والحرفيين ، والرجال الذين لديهم بعض المواهب ويمكن الاستفادة بهم فى سمرقند ، قام تيمور بذبح أو تحويل باقى سكان المدينة الى رقيق ٠

وبعد سقوط دمشق ، أرسل تيمور قوة للاستيلاء على أنطاكية ، فى الوقت الذى قاد فيه معظم جيشه الى سيفاس • وربما كانت لديه النية للهجوم المباشر على بايزيد ، بيد أنه نظرا لعدم مقدرة جيشه على احتلال بغداد ، فانه قرر المسير اليها بنفسه • واستغرق حصار بغداد ستة أسابيع قبل الاستيلاء على المدينة • وكان قد مر حوالى قرن ونصف قرن تقريبا عندما استولى هولاكو ، حفيد جنكيز خان على تلك المدينة وخربها (سنة ١٢٥٨م)• أما على عهد تيمور فقد عانت من عمليات سلب ونهب أكثر ضراوة بكثير عما حدث فى عهد هولاكو • وباستثناء عدد قليل من المبانى الاثرية القديمة ، فان كل ما بقى عندما هاجم تيمور والمغول بغداد كان حوالى واحد وعشرين كوما عاليا من رءوس تسعين ألفا من سكان المدينة الذين ذبحوهم • وفى ذلك الحين أصبح تيمور مستعدا لاكراه عدوه على الدفاع عن نفسه ، وأن يضعه فى موقف يستحيل الفرار منه ، ذلك العدو وهو أشد الاعداء خطورة ، انه بايزيد سلطان الاتراك العثمانيين •

كان للاتراك العثمانيين معرفة تامة بالمغول ، ففى الحقيقة ، كان لهجوم المغول عليهم أن اضطروا الى الاتجاه غربا من بلاد تركستان • وفى أوائل القرن الرابع عشر ، شقوا طريقهم عبر آسيا الصغرى ، تحت قيادة قائدهم عثمان الذى حملت قبيلتهم اسمه ، وأقاموا امارة خاصة بهم فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة (بيثينيا Bithynia) • واستطاع أورخان بن عثمان مد نفوذ الحكم العثمانى على الجزء الاكبر من آسيا الصغرى بضم ما بقى من ممتلكات الاتراك السلاجقة • وكان هؤلاء السلاجقة ، قد انتقلوا الى تلك المنطقة منذ ثلاثة قرون قبل العثمانيين ، فى القرن الحادى عشر ، وشيدوا امبراطورية قوية لهم ، وبلغت أوج قوتها عندما ضمت سوريا ، وآسيا الصغرى ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين • وتنتهى تقاليد السلاجقة والاتراك العثمانيين الى نفس أصول قبيلة الغز •

وفى سنة ١٣٤٥ م اتخذ أورخان خطوة حاسمة أدت الى امتداد حدود الامبراطورية العثمانية الى أوربا عندما تزوج من ابنة حنا الخامس كانتا كوزينوس Cantacuzenus المطالب بالعرش البيزنطى فى القسطنطينية • وقامت قواته ، التى أرسلها الى أوربا لمساعدة صهره ، بمساعدة قوات أخرى سنة ١٣٥٤م ، قبضت على جاليبولى استموس Gallipoli isthmus وفى سنة ١٣٦١ م استولى على أدريانوبل Adrianople عاصمة اقليم تراقيا ، التى ظلت منذ ذلك الحين عاصمة تركيا الاوربية الى أن استولى

الاتراك على القسطنطينية سنة ١٤٠٣ م • وفى سنة ١٣٨٧م • استولى الاتراك على مدينة سالونيكا Salonika ذات الميناء المهم • وقدر للاتراك البقاء فى أوربا •

ان الذى سهل نجاح الاتراك الباكر هو وجود حالة من التفكك السياسى فى اقليم البلقان • على أن هناك عواملا عديدة أدت الى هذا التفكك وساعدت على تفاقمه ، وأخذ هذه العوامل يمكن تسميته بالآمال القومية لعديد من شعوب ذلك الاقليم ، للتطلع لاقامة امبراطوريات صغيرة خاصة بهم • فالبلغار ، والبوسنة ، والصرب ، والمجر ، والولش ، كلهم جميعا كانت لهم طموحات فى حكم أنفسهم بأنفسهم ، داخل حدود مشتركة عادة من جيرانهم • وانقسم السكان أيضا بالمنطقة بالنسبة لولائهم الدينى ، فالكثير منهم كانوا من المسيحيين اللاتين ، وغالبيتهم كانوا من اليونانيين الارثوذكس • ولم يحمل أىأ فريق منهم مشاعر الحب نحو الفريق الآخر •

أما الامبراطورية البيزنطية ، التى كانت فى وقت ما تمارس سلطة فعالة على الجزء الاكبر من الاقليم ، كانت أضعف المجموعات فى ذلك الحين • اذ أنها لم تسترد نشاطها على الاطلاق منذ سنة ١٢٠٤م عندما اقتحم الصليبيون (الحملة الصليبية الرابعة) العاصمة ، ووضعوا حدا لوجدها • وفى سنة ١٢٦١ م قامت حركة انتعاش بالامبراطورية ، بيد أنها كانت طفيفة ولم تكن سوى لتذكرة العالم بالعظمة السابقة لمدينة القسطنطينية • اذ أن الخلافات بين الاسر الحاكمة جعلتها فى حالة من الضعف على الرغم من تعرض وجودها للخطر على يد الصرب من الغرب والاتراك العثمانيين من الشرق • وفى ذلك الحين نجح البنادقة وأهل جنوة فى تحويل اتجاه معظم الاعمال التجارية الى صالحهم •

ويرجع الفضل الى مراد الاول (١٣٦٢ — ١٣٨٩م) ، الذى بنى الدولة العثمانية على قاعدة صلبة ومنها استطاعت فرض سيطرتها على البلقان وآسيا الصغرى • وفى سنة ١٣٨٧م ، وبمساعدة المحاربين من الولايات المسيحية التابعة له فى البلقان ، استطاع مراد اضعاف امارة كارامان Karaman التى كانت أقوى الامارات فى آسيا الصغرى والتى لم تكن تحت سيطرته • وباخضاع امارة كارامان ، دانت كل آسيا الصغرى لسلطة مراد فيما عدا مدينة سيفاس Sivas التى استطاع حاكمها الاعتماد على المغول فى الحصول على استقلاله • وقضى مراد سنة ١٣٨٨ م فى اعادة السيطرة التركية على بلغاريا والبوسنة • وفى يونيه ١٣٨٩م ، وفى معركة كوسسوفو Kossovo قوى مراد الاول دعائم

حكمه على كل المنطقة عندما قضى على جيش متحالف من شعوب البلغار والولش Wallachians والبوسنة ، والصرب ٠

ان النصر الباهظ الثمن الذى أحرزه الاتراك فى كوسوفو ، كان بداية لفترة من الهيمنة التركية قدر لها البقاء لمدة أربعة قرون ٠ وقبيل المعركة اغتال وطنى من الصرب مراد الأول ، ولذلك كان كوسوفو بداية أيضا لاعتلاء بايزيد خلفا لشقيقه ، حيث عرف بايزيد فى التاريخ باسم «الصاعقة» نظرا لسرعته وشدة بطشه بالأعداء ٠ وفى سنة ١٣٩٠ م ضم بايزيد شقيقه حاكم الصرب الى حريمه ٠ وربما كانت هذه الخطوة أهم الخطوات التى اتخذها ، لانها اتاحت له مساعدة الفرسان الذين يحملون دروعا ثقيلة ، وأسلحة كثيرة من أهالى الصرب ٠ واستغرق الامر عدة سنوات لاخضاع أمراء آسيا الصغرى ، الذين أعلنوا الثورة عند اشاعة نبأ مقتل مراد ، وأخيرا خضعوا لسيطرة الاتراك ٠ وبحلول سنة ١٣٩٣م عندما انتهى بايزيد من اخضاع آسيا الصغرى ، نجح أيضا فى القضاء على الثوار البلغار وحرمهم من الحكم الذاتى ٠ بل أن بايزيد أجبر الامبراطور البيزنطى على هدم التحصينات الجديدة التى أقامها حول مدينة القسطنطينية ٠

ان ازدياد القوة التركية وتقدمها تجاه الدانوب فى ذلك الحين أثار اهتماما عاما فى غرب أوربا ٠ على أن أكثر الذين انزعجوا لذلك التوسع التركى كان سيجيز موند Sigismund ملك المجر ، الذى تقع مملكته فى طريق التوسع التركى ٠ وعلى الرغم من أن سيجيزموند حقق بعض المكاسب الطفيفة ابان مقاومته للأتراك ، فانه أدرك مدى التهديد الخطير الذى فرضه الأتراك عليه وعلى مملكته ٠ كما اهتم الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى اهتماما شديدا (١٣٩١ ـ ١٤٢٥م) ، اذ وجد المسلمين وقد طوقوا عاصمته ذاتها ، كما اهتم أيضا البابا بونيفيس التاسع Boniface IX الذى وجد أن المد الاسلامى يبتلع أراضى مسيحية جديدة عاما بعد عام ٠ واستجابة الى نداءات بولنديس ، ومانويل ، وسيجزموند تجمع جيش من أكبر الجيوش الصليبية التى احتشدت ،فى بلاد كثيرة من غرب أوربا ٠ وانضم فرسان من انجلترا ،وفرنسا ،وايطاليا وبولندا ، وبوهيميا ، والمانيا الى أهالى المجر تحت قيادة سيجيز موند ، الذى كان فى انتظارهم فى مدينة بودا Buda ولوحظ عدم وجود مقاتلين من المسيحيين من امارات البلقان اذ أنهم اشتركوا فى المعركة التالية فى نيوقوبوليس Nicopolis تحت أعلام بايزيد ٠

ان مسألة تعداد القوات الصليبية التى تجمعت عند بودا فرضت

نفسها كمشكلة عادية عند دراسة مصادر التاريخ الوسيط • ان مدى عدم الاعتمام على مثل تلك المصادر يظهر في احدها الذى قال ان عدد الجيش المسيحى بلغ مائة ألف مقاتل ، وان خسائر هذا الجيش بلغت مائتى ألف مقاتل ! بيد أن الكتاب المحدثين يقدرون تعداد الجيش الصليبى بحوالى مائة ألف مقاتل • انهم قبلوا الاعداد التى ذكرها المؤرخون ، ولم لا ؟ لقد ثبت أن معركة نيقوبليس لها أهمية كبرى • أما المؤرخ ديلبروك Delbruck فقد خفض عدد كل الجيش الصليبى الى ما بين تسعة آلاف وعشرة آلاف مقاتل ، اشترك منهم فى القتال سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل • وعلى الرغم من أنهم جميعا كانوا من الفرسان المدرعين ، فلم يرد ذكر شيء عن الجنود المشاة • وأخيرا انضم اليها القوارب التى بها أهالى البندقية ، وجنود للمساعدة في القتال بعد تحركها من البحر الاسود وأبحرت في نهر الدانوب •

وعندما علم بايزيد بوجود الجيش الصليبى فى بودا ، فك الحصار عن القسطنطينية ، وبدأ استعداداته للقاء الجيش المسيحى • ومنذ اللحظة الأولى لم يكن بايزيد متلهفا على لقاء العدو • اذ كان راغبا فى اتاحة الفرصة للصليبيين للتقدم فى عمق بلاده • وبعد أسبوعين من اعداد جيشه للحرب تحرك بأقصى سرعة لدرجة أنه قضى على القوات الاستطلاعية التى أرسلها الصليبيون لجمع المعلومات • وبذلك أدهش الجيش الصليبى ، الذى كان ضاربا حصارا حول مدينة نيقوبوليس •

كانت مدينة نيقوبوليس القلعة التركية الرئيسية على نهر الدانوب• ونظرا لافتقار الصليبيين الى أدوات الحصار ، فانهم تمركزوا حول المدينة على أمل اجبارها على الاستسلام جوعا • وقبل أن يدرك المسيحيون ما قد حدث اتخذ بايزيد موقفا دفاعيا على بعد حوالى خمسة أميال جنوب نيقوبوليس على نجد (سهل واسع مرتفع) (*) عرضه حوالى نصف ميل وتحميه من الجانبين وديان صغيرة ضيقة وشديدة الانحدار • وأصبح على الصليبيين مهاجمته من أسفل الوادى •

وبرغم ذلك لم يزعج هذا التطور كثيرا من الصليبيين ولاسيما كل الفرنسيين • اذ كانت لديهم ثقة لا حد لها فى ابادة الرعاع الذين لا يعرفون شيئا عن النظام • وتوقع الفرنسيون كذلك المقدرة على التصدى لهم • وذكر المؤرخ المعاصر فرويسارت Frissart « لقد تحركوا لالحاق الهزيمة بكل الأتراك والتقدم صوب الامبراطورية الفارسية ونظرا لتفوق العدو عليهم فى تخطيطه الجيد ، الأمر الذى ألحق بطلائعهم الهزيمة ،

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

وباحتلاله موقعا دفاعيا قويا ، فانهم اختلفوا فيما بينهم بشأن من ينال شرف شن الهجوم الاول على المسلمين والحاق هزيمة منكرة بهم ٠

على أن سيجز موند لم يشاركهم تلك الثقة٠إذ الواقع أن فرط الثقة عند حلفاته سببت له وللمجريين التابعين له ألما نفسيا مبرحا ٠ فقد تعلم المجريون من التجربة شراسة المحاربين الاتراك ، وكانوا على علم أن هؤلاء الاتراك بسطوا سيطرتهم على شعوب البلقان ليس بمحض الصدفة ، أمام مقاومة ضعيفة ، وانما بالجهد ، والحملات المتواصلة ضد جنود كانوا من أشد جنود العالم بأسا ٠ وحاول سيجيز موند كثيرا بأن يكون هو وأتباعه من شعب المجر أول من يتصدى للعدو ، ذاكرا أنه سبق له الدخول فى معارك مع هؤلاء الاعداء ، بالاضافة الى أن جيشه المجرى كان يضم فرسانا يستخدمون سهاما مثل السهام التى يستخدمها الجيش التركى ٠ بيد أن الفرنسيين أصروا على أن يكونوا أول من يقوم بشن الهجوم العسكرى ، ولسوء حظهم ، فعلوا ما أرادوا ٠

وهناك العديد من أوجه التشابه بين المعركة التى دارت رحاها فى نيقوبوليس بين الصليبيين والأتراك وبين تلك التى دارت فى كريسى Crecy بين الانجليز والفرنسيين ٠ وأكثر أوجه هذا التشابه أن المنتصرين فى كل من المعركتين احتلوا مواقع دفاعية قوية مما أجبر العدو على الاقتراب من أراضى أكثر انخفاضا ٠ وعلاوة على ذلك ، فان الفرنسيين ، فى موقعة كريسى لم يشنوا هجومهم فى شكل تكتل منظم ، وانما على شكل هجمات متقطعة وعلى موجات ، وهو ما فعله الصليبيون فى موقعة نيقوبوليس ٠ وثالث وجه للتشابه ، وهو أن المنتصرين فى الحالتين كانوا متفوقين قليلا من ناحية أعداد القوات ٠

وتقابل الباحث نفس المشكلة فى تحديد حجم الجيش التركى فى موقعة نيقوبوليس كما هو الحال بالنسبة للجيش المسيحى ٠ إذ قدمت المصادر المسيحية المعاصرة للقارىء أعدادا مبالغا فيها ، ولا شك أنها حاولت تبرير الهزيمة المنكرة التى منى بها الجيش الصليبى بطريقة ملطفة ٠ وبالنظر الى الاستراتيجية التى اتبعها الصليبيون ، أو بالاصح نقاط الضعف فيها ، فلا يبقى ضرورة الى ذكر التفوق العددى للأتراك لتفسير انتصارهم ٠ ان الاشارة الى أن عدد الجيش التركى كان حوالى أربعمائة ألف مقاتل كما ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أمر غير مقبول تماما ، وكذلك أيضا أنه كان مائة ألف مقاتل هو أمر غير واقعى وهو الذى افترضه العديد من العلماء المحدثين ٠ ويميل المؤرخ الحديث ديلبروك Delbruck أن يكون حكما حذرا فى استخدامه الاحصاءات التى قدمها المؤرخون فى العصور الوسطى ، قام بتخفيض أرقامهم عن الجيش

التركي الى ما بين أحد عشر ألفا واثنى عشر ألفا • ويتيح هذا الرقم ميزة بارزة في القوى البشرية بالاضافة الى الموقع الدفاعى الذى سيطر عليه وزاد من قوة تفوق بايزيد •

ان اختلاف نوعية المحاربين الذين كانوا تحت قيادة بايزيد ربمـا كانوا يمثلون قدرا من التفوق • اذ أن المسيحيين في الولايات التابعة للسلطان ضموا فيما بينهم فرسانا وجنود مشاة • وفيما يتعلق بالمعدات والأسلحة ، فان فرسان الصليبيين كانوا مسلحين بأسلحة ومعدات ثقيلة، على الرغم من قلة عددهم • وغالبية الحلفاء المسيحيين الذين تحالفوا مع السلطان بايزيد جاءوا من الصرب Serbia حيث كان حاكمها يمت بصلة النسب للسلطان • ويقال أن هؤلاء الصوب حاربوا بشجاعة في معركة نيقوبوليس وأنقرة Anqora فيما بعد •

وضم المحاربون الاتراك في جيش بايزيد جنودا كانوا على قدر من النظام بالاضافة الى عدد آخر أقل تدريبا • ومن بين الاخرين يمكن ذكر الفرسان خفيفي العدة • وهم نوع من الفرسان غير المنتظمين الذين يتقدمون الجيش الرئيسى ، لكى يوقعوا الفوضى في جيش العدو ، والعمل على إعاقته عن العمل ، أو يقومون بشن الغارات المتكررة على جناحى جيش العدو • وأحيانا يقوم هؤلاء الفرسان خفيفى العدة ، بالعمل كأدوات لجذب العـدو للمعركة ويتظاهرون بالهروب بعـد أول لقاء مع هذا العـدو • عند ذلك يندفع العدو الى الامام على أمل احراز نصر سهل ، دون أن يتوقع أنه قد وقع بالفعل في فخ نصبه الطرف لآخر •

ان القوة الحقيقية للجيش التركى فى أواخر القـرن الرابع عشر كانت تكمن فى جماعة السيباهيز Sipahis والإنكشارية Janissaries وجمـاعة السيباهيزهم فرسـان تحميهم دروع ، وينسب الى أورخان استخدامهم في الجيش لأول مرة : وقاموا فى بداية الأمر بمهمة الحرس الشخصى للسلطان • وبتزايد عددهم أصبحوا يشـكلون قلب الجيش وعصبه وكان القوس والسهم سلاحهم الرئيسى ، أو على الاقل السـلاح الذى استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة • وما أن تنفذ سهامهم ، ويصبحوا على مقربة من العدو ، فانهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة والوحيـد الحـد ، وكذلك الخنـاجر : إن قتال التلاحم لم يتناسب مع الفارس الثقيل العدة فى غرب أوربا ، بيد أن السرعة واستخدام السهم غالبا ما يكفيان لتحقيق النصر قبـل أن يطبق هؤلاء الفرسان على العدو •

على أن القسم الفريد فى جيش بايزيد كان الانكشارية أو « القوات

الجديدة » • ان غالبية هؤلاء المحاربين تم انتزاعهم من أسرهم منذ صباهم كنوع من الضريبة التى فرضها السلطان على تلك الشعوب التى أخضعها لإرادته ، وكان معظمهم من المسيحيين • وتمت تنشئتهم فى مساكنهم الخاصة ، وتلقوا تدريبات على درجة عالية حتى صاروا متخصصين • وتولى الدراويش تلقينهم مبادىء الاسلام ولم يسمح لهم بالزواج أو تكوين أسر، ولم يكن هناك لاحد سيادة عليهم سوى قائدهم والسلطان • وكان معروفا عنهم شهرتهم كمحاربين مهرة وولائهم المطلق للسلطان • وحاربوا كمشاة استخدموا السهام• واذا ما استطاع قائد ماهر أن يزامن هجوم الانكشارية مع هجوم السيباهى Sipahis ، فانهما قادران على جعل الجيش التركى من أفضل جيوش العصر ، ان لم يكن أفضلها جميعا • وعلى الرغم من أن أروع صفحات تاريخ الانكشارية سجلت لهم في المستقبل ، فان عددهم فى نهاية القرن الرابع عشر بلغ حوالى خمسة آلاف مقاتل • ويبدو لانهم لهم الفضل فى انتصار السلطان فى موقعة نيقوبوليس •

وقبل حدوث المعركة بين الجيش المسيحى والجيش التركى فى نيقوبوليس ظهرت للعيان نقطة الضعف الرئيسية فى الجيش الصليبى• كان الجيش الصليبى يفتقر الى وجود قيادة موحدة ، لقد كان سيجزموند ملك المجر العائد العام بصفة رسمية • فاذا لم يكن قد وافق على السماح للفرنسيين ليكونوا أول المهاجمين للعدو على سبيل المثال ، اقام الفرنسيون رغم أنف الجميع ، بتنفيذ رغبتهم • كما لم يكن سيجزموند متأكدا على الإطلاق من أن الولش Waliachians وسكان شرق الغابات Transylvanians الذين كانوا ضمن رعاياه ، أنهم سيحترمون أوامره • وباختصار كان جيشه به نقطة الضعف الرئيسية فى الجيش الاقطاعى التقليدى ؛

وقام سيجيزموند بمحاولة أخيرة يائسة لاقناع الفرنسيين بالسماح له وللمجريين التابعين له بأن يكونوا أول من يتقدم صوب العدو وذلك بارساله قائد جيشه الذى توسل اليهم شخصيا • بيد أن الفرنسيين أصروا على تحقيق المجد لانفسهم • وعلى الطريقة الفروسية التقليدية هاجم الفرنسيون طليعة الجيش التركى المكون من قوات غير نظامية من الفرسان والرامين بالسهام ، ومن المحتمل أن الاخيرين كانوا من الانكشارية • وطلب سيجزموند الابطاء فى تقدمهم ، والانتظار حتى ينضم اليهم الجيش الرئيسى ، ولكن دون جدوى • وكما كان متوقعا ، لم يجدوا صعوبة فى تشتيت شمل الفرسان الاتراك الذين التقوا بهم • أما الامر مع الانكشارية فقد كان مختلفا • اذ لم يتوقف الفرنسيون عن التقدم فحسب ، وانما وجدوا أنفسهم فجأة ، وفى غمرة الصراع المرير مع الانكشارية الذين حاصروهم من الجانبين ، كما هاجم قوات السيباهى الذين ظلوا مختفين

خلف أحـد التلال • وفي مدى قصير من تحت محاصرة الفرنسيين وابادتهم •

وفي الوقت الذي تحرك فيه سيجزموند وجيشه وحلفاؤه من الالمان والبولنديين ، كان قد سبق السيف العذل • أما الولش وأهالي شرق الغابات فانهم لم ينتظروا حتى يقاتلوا • اذ ما أن شاهدوا الخيول التى كان يمتطيها الفرنسيون فوق التل ، تقدموا بسرعة الى الخلف دون راكبيها حتى غادروا ميدان المعركة بكل بساطة • وكان سيجزموند من بين القلة التى لاذت بالفرار • اذ كان مضطرا الى ترك ميدان المعركة والهروب مستخدما قاربا فى نهر الدانوب • وعلى الرغم من أن المعركة انتهت بالقضاء على الجيش الصليبى ، فان القتال كان شرسا • ويقال أن بايزيد استشاط غضبا لفداحة الخسائر في الأفراد لدرجة أنه أمر بذبح كل الاسرى الذين زادت أعمارهم عن العشرين ، وتحويل من هم دون ذلك السن الى عبيد ، مع استثناء عدد قليل يمكن الحصول على فدية عنهم •

ان القضاء على الجيش الصليبى فى نيقوبوليس أفسح المجال للاستعداد للمعركة الفاصلة بين بايزيد وتيمور • واذا ما أدخل المرء فى اعتباره شخصية الرجلين ، أدرك أن معركة حتى الموت تنتهى بمنتصر دون منازع ، باتت أمر لا مفر منه • اذ لم يستطع تيمور أن يهدأ له بال الا بعد أن يدين له بالولاء كل الحكام على امتداد حدود امبراطوريته • أما بايزيد فلم يقنع بأقل من حكمه لامبراطورية تمتد من الدانوب الى نهر الفرات وربما الى نهر النيل •

قام تيمور بتفجير الموقف • اذ بعد أن عاود بايزيد حصاره للقسطنطينية بوقت قصير ، طالب تيمور بتسليمه أحمد جلال يار ، سلطان بغداد • بيد أن بايزيد الجرىء قص لحية مندوب تيمور على الفور ، وأرسل رسالة مهينة الى تيمور • وورد فى رسالته كما ذكر عربشاه : « انى أعرف هذا القول سيدفعك الى مهاجمة بلادنا بيد أنك اذا لم تحضر الينا ، فلتكن زوجاتك طالقا بالثلاث • » ويقال أن تيمور رد على ذلك القول متعجبا : « ان ابن عثمان أصيب بالجنون ، لانه مولع بالاسهاب اد أنهى رسالته بذكر النساء • » لأنه وفقا لما ذكره ابن عربشاه كان من عادة المغول ان ذكر المرأة جريمة واهانة لا تغتفر ، الى الحد أنهم لا ينطقون كلمة امرأة ويتجنبون ذلك بكل حرص ، فيقولون ، اذا أنجب أحدهم أنثى « ولدت احدى المحجبات ، أو ربة بيت ، أو محجبة أو أى شىء من هذا القبيل » (١٢) •

تشجع العالم المسيحى لاقتراب اللحظة المصيرية عندما أصبح الصراع بين بايزيد وتيمور واقعا لا محالة • اذا أن ما كان يتمناه البابوات وأوربا المسيحية رؤية منذ أمد بعيد ، وهى الحرب بين المسلمين والمغول، أضحت فى النهاية على وشك أن تتحقق • وشعرت القسطنطينية بالارتياح وتنفست الصعداء ، عند اقتراب المعركة ، لان أسوارها كانت واقعة تحت الحصار للمرة الثانية • اذ بدأ حنا الوصى على عرش القسطنطينية ، المفاوضات مع تيمور ، وفعل نفس الشىء شارل الخامس ملك فرنسا • بل حتى امارة طرابيزون الصغيرة أرسلت اليه ما يعبر عن تقديرها له وتعاطفها معه معلنة استعدادها للسماح له باستخدام مينائها الوحيد وكذلك وعده أهالى جنوه الذين يديرون منطقة بيرا Pera ، الجزء الذى يقع عند القرن الذهبى من القسطنطينية ، بارسال سفنهم ، ومنع أى امدادات عسكرية تركية تحاول العبور من أوربا الى آسيا الصغرى اذا ما شن بايزيد حربا هناك •

ولاشك أن تيمور لم يول تلك التعهدات أدنى أهمية • ان كان يدرك أن الممالك المسيحية لا يعنيها شىء سوى أن يقضى بايزيد وتيمور على بعضهما البعض • على أية حال ، فلن تتحرك أى دولة من تلك الدول المسيحية الا بعد أن يصبح من الواضح للعيان أى الجانبين كتب له النصر •

وفى أواخر ربيع سنة ١٤٠٢هـ قام باستعراض كبير لقواته فى سيفاس حيث أمرهم بالتجمع للاستعداد النهائى للمعركة ضد بايزيد • ووصلت اليه التعزيزات من كل أنحاء امبراطوريته • وكان معظم المحاربين من الفرسان الرامين بالسهام ، وارتدى بعضهم معاطف عليها صفائح معدنية ، والبعض الآخر ارتدى بذلة حربية عليها دروع وكذلك دروع على خيولهم • أما هؤلاء الذين أتوا من سمرقند فكان منظرهم نابضا بالحيوية بسبب معداتهم المثيرة للاعجاب ، وبذلك قدموا الدليل المقنع على ضخامة كميات الغنائم التى جمعها تيمور فى عاصمته ، وعن التقدم فى الصناعة على أيدى الفنانين الذين أحضرهم الى هناك • ولكل ولكل مجموعة أعلامها الخاصة بها ـ منها القرمزى ، والأصفر ، والابيض ، الارجوانى ، والالوان الاخرى ـ التى توافقت مع ألوان السروج ، والملابس ، التروس ، وجعب السهام ، الأحزمة ، والتروس الصغيرة المستديرة •

حشد بايزيد جيشه ، بدوره ، فى مدينة بروسا Brusa عاصمة آسيا الصغرى التركية • وتجمعت هناك قواته التركية من الانكشارية

والسيباهى ومعهم الفرسان ثقيلى العدة من الصرب والفرسان الآخرون والمشاة الذين أرسلهم الاتباع المسيحيون فى أقاليم البلقان • وجـاء محاربون ، ربما متساوين فى العدد مع القوات « الأوربية » من الامارات المختلفة فى آسيا الصغرى ، بعضهم كان من رعايا الامراء المغول الذين هربوا الى تيمور عندما اجتاح الاتراك أراضيهم • ولم يكن هناك قوات مصرية ، اذ تجاهل فرج طلب بايزيد لتقديم المساعدة •

ومن مدينة بروسا قاد بايزيد جيشه تجاه الشرق • وسلك بايزيد طريقا اجتاز خلاله الممرات الضيقة والوديان حول توقات Tuqat ، وهو طريق دواز تقريبا لمجرى نهر الهاليز River Halys على بعد حوالى خمسة وسبعين ميلا الى الجنوب • ان الطريق الذى سلكه بايزيد كان أقصر الطرق الى الاقاليم الشرقية لآسيا الصغرى • وكانت معلومات بايزيد أن تيمور سيتقدم من خلال ذلك الطريق • وكان من المفروض أن ينتظر بايزيد تيمور فى معسكره الوافر المياه فى أنقرة Anqora والقى الكتاب المحدثون اللوم على بايزيد لعدم قيامه بذلك • بيد أن بايزيد كان لديه ثقة فائقة فى مقدرة جيشه على هزيمة تيمور ، وعمل على تقوية هذه الثقة ما قد حدث مؤخرا فى نيقوبوليس • اذ لم يستسغ بايزيد فكرة تحرك تيمور فى أراضى دولته وتعريض مدنها وقراها للسلب والنهب • وربما خشى بايزيد أيضا من أن يستغرق تيمور وقتا طويلا الى أن يقرر الدخول فى المعركة ، وهو الأمر الذى لا يستطيع أن يتحمله بايزيد الا بصعوبة • اذ كلما طالت الفترة التى تلك معركة نيقوبوليس ، واستمر تيمور معسكرا بقواته فى آسيا الصغرى كلما أتيحت فرصة أكبر للأمم المسيحية فى اعداد جيش صليبى جديد •

وكان فى استطاعة تيمور أن يؤجل الهجوم • اذ بالنسبة اليه لا يوجد خطر ثورة يتم تدبيرها من خلفه • لذلك ترك بايزيد ليقوم بتسديد الضربة الأولى • وكان تيمور على علم أن بايزيد لا يستطيع الانتظار وربما فعل شيئا ينم عن الحماقة فى تلهفه على حدوث المعركة • فبدلا من أن يقود تيمور جيشه غربا على امتداد أقصر الطرق ، الذى سوف يجعله يصطدم وجها لوجه مع بايزيد ، فانه قرر أن يسلك الطريق الاطول ، والاسهل على امتداد نهر الهاليز Halys River وفى الطريق عبر وادى هذا النهر يستطيع رجاله الحصول على الكثير من الغنائم لانفسهم ، والعشب الوافر لخيولهم • كما أن هذا الطريق غير المباشر بعض الشىء سيجعله على مقربة من مؤخرة جيش بايزيد ، مما يغلق الباب فى وجه الاتراك أمام أى تراجع اذا ما كسب تيمور المعركة •

وبعد ستة أيام من بدء المسير من سيفاس وصل تيمور ورجاله الى منتصف الطريق الى أنقرة ، ونعنى بذلك ، أنه وصل الى قيصرية ، حيث استراح رجاله هناك لمدة أربعة أيام • وبعد مرور أربعة ايام أخرى وصلوا الى قيرشهر Qir Shahr ثم وصلوا الى أنقرة بعد ثلاثة أيام أخرى ،حاول خلالها تيمور حث رجاله على الانطلاق بسرعة اضطرارية بهدف مباغتة الاتراك • وما أن وصل تيمور الى المعسكر الذى كان قد غادره بايزيد منذ أقل من أسبوعين ، حتى أحاطه بالخنادق ، والأسوار القوية ، وقطع امدادات المياه عن المدينة ، وضرب حصارا حولها • وكان تيمور على وشك شن هجوم نهائى على أسوار المدينة عندما علم أن بايزيد قد عاد بجيشه ، وفى طريقه الى الاقتراب من ناحية الشرق •

ان عودة بايزيد وجيشه ثانية الى أنقرة كانت عملية مروعة • اذ كان رجاله متعبين تماما عندما وصل الخبر الى بايزيد أن تيمور قد سلك طريقا جانبيا تجنبا للقائه ، ولم يكن أمام السلطان من خيار سوى أن يأمر رجاله بالإستدارة والعودة الى أنقرة • وتحققت مخاوف السلطان بشأن استيلاء تيمور على المعسكر الذى أقامه بايزيد ، وكذلك مسألة منع المياه عن المدينة • وهكذا كان الموقف بالنسبة للجيش التركى باعثا على اليأس تماما • اذ بلغ رجال بايزيد حد الانهاك والمعاناة من شدة العطش ، ولم يكن هناك أمل فى الحصول على ماء • « لقد خسروا المعركة قبل أن تبدأ • »(١٣) •

والتقى الجيشان فى يوم الجمعة فى الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٤٠٢ ، شمال شرق مدينة أنقرة ، فى سهل شيبوكاباد Chibukabad ومن المحتمل أنه المكان الذى أحرز فيه بومبى Pompey النصر على ميثرادات Mithradates سنة ٦٥ ق•م• ولم يجرؤ بايزيد على الانتظار ليأخذ رجاله قسطا من الراحة اذ أن حدة عطشهم كانت لا تطاق • وكان عليه أن يقاتل للحصول على الماء • فأسند قيادة الجناح الأيمن لجيشه الى صهره لازارافيك من صربيا Lazaravic of Serbia ، وأمده ببعض الفرسان الأتراك لمساندة فرسانه ثقيلى العدة • وأسند الجناح الأيسر الى ولده سليمان ، وتكون هذا الجناح من قوات من مقدونيا ومن آسيا الصغرى • ومعظم هؤلاء الجنود الذين كانوا فى الجناح الأيسر من جيش بايزيد كانوا من امارات تابعة لسيادة تيمور فى وقت ما • أما قلب الجيش فقد تكون من الانكشارية والسيباهى ، وتحت قيادة بايزيد نفسه • ووضع بايزيد بعض الفرسان فى الاحتياط •

كان جيش تيمور الذى واجه جيش بايزيد يضم ثلاثين فيلا من الهند فى الصفوف الأمامية • واستعمل الجيشان النار الاغريقية ، غير أن تلك النار الاغريقية أو الفيلة لم تلعب دورا حاسما فى المعركة • انها كانت صراعا بين جيشين من الفرسان • « وربما لم تحدث معركة أكبر منها استخدمت فيها الفرسان • »(١٤) •

كانت لهذه المعركة نتائج مهمة لانها حدثت بين أقوى رجلين فى العالم ، ومال كل من الكتاب المعاصرين والمحدثين الى الافراط فى تحديد أعداد الرجال فى كل من الجيشين • ويذكر العالم جروسيه Grusset أن حوالى مليون مقاتل اشتركوا فى تلك المعركة • ويذكر شيتلتبرجر البافارى Bavavian Schiltberger الذى عاصر هزيمة المسيحيين فى نيقوبوليس وانتقل الى خدمة الاتراك — ان عدد جيش بايزيد بلغ مليونا وأربعمائة ألف مقاتل ، وأن جيش تيمور زاد عن ذلك الرقم بحوالى مائتى ألف مقاتل • وأكثر الارقام اعتدالا كان حوالى عشرين ألف مقاتل تقريبا لكل من الجانبين • ان الاتجاه المعارض لذكر أعداد أكثر من ذلك يستند الى أن القوات التى تزيد عن ذلك الرقم لا يمكن لها التحرك عبر استطاع توختاميش هزيمة الخان ، وأعلن نفسه حاكما على القبيلة أناطوليا على نمط جيش تيمور وبايزيد ، كما لم يكن فى استطاعة جيش مغولى يزيد تعداده عن عشرين ألفا أن يجد مكانا له فى المعسكر المحصن فى أنقرة •

ومع ذلك ، فلم يكن حجم القوات أو شجاعتها هى التى حسمت المعركة ، أو ربما حتى معاناة جيش بايزيد من الطعش والاجهاد • وانما يعود ذلك الى تفوق تيمور على بايزيد فى التخطيط للمعركة ، كما تفوق بايزيد على الصاليبيين فى التخطيط فى موقعة نيقوبوليس • اذ وضع تيمور قواته الى الغرب من قوات بايزيد حيث استطاع قطع خط الرجعة على قوات بايزيد ، كما أتاح تيمور لقواته الفرصة للراحة والتحفز للقتال • وفوق كل ذلك أمر تيمور أتباعه بالتغلغل بين القوات المغولية فى جيش بايزيد طوال الاشهر السابقة على المعركة ونجح هؤلاء الاتباع فى التأثير عليهم لصالح تيمور • حيث وعد هؤلاء المحاربون بالتخلى عن بايزيد فى اللحظة التى تبدأ فيها المعركة • وربما كانوا حلفاء مشاكسين لبايزيد فى المقام الأول ، وأنهم عرفوا أن ولاءهم لابد أن يكون لتيمور • وبالاضافة الى ذلك لابد وأنهم شعروا أن تيمور سيكتب له النصر ، وعرفوا كيف يكافىء القائد المغولى قواته بسخاء • ومن المحتمل أيضا أنهم لم يستسيغوا فكرة محاربة زملائهم المغول •

وفي حوالى الساعة العاشرة صباحا بدأت المعركة على أصوات الأبواق ودقات الطبول • ومن المدهش أن المعركة ظلت محتدمة حتى الغسق ، ذلك لأن الذى حسم الموقف بوضوح هو فرار المحاربين المغول فى الجيش التركى • ولابد أن ذلك حدث فى أوائل المعركة • وأول من غادر أماكنهم هم الساروخان Sarukhan والايدين Aydin ، والمنتيشا Mentesha ، والكيرميان Kermiyan ثم تبعهم سكان الامارات الشرقية الأخرى • ولو أن الفارين اكتفوا بترك المعركة ، لما سببت ذلك خطورة شديدة ، اذ أن الذى أحدث الطامة الكبرى هو استمرارهم فى القتال ، وهاجموا الجناح الأيسر للجيش التركى ، الذى كان تحت قيادة سليمان بن بايزيد من الخلف ، فى الوقت الذى كانت تسدد فيه قوات تيمور الرئيسية الضربات العنيفة والمتكررة على هذا الجناح من الأمام • وفى نفس الوقت تقدم لازاروفيك وأتباعه من الفرسان ثقيلى العدة من الصرب الى الأمام فى مواجهة العدو الأمر الذى دفع بايزيد الى ارسال تحذير لهم بالانسحاب المنظم خشية أن يطوقهم العدو • وعندما علم لازاروفيك بوضع سليمان الحرج ، قاد فرسانه ليؤمن ويغطى انسحاب ابن السلطان • كما أن آخر مجموعة من الأتراك استمرت فى القتال كانت قلب الجيش ، حيث ظل بايزيد و لانكشارية والسيباهى يقاتلون بشراسة حتى النهاية • وقبـل الغروب تماما قرر بايزيد الهروب ، بيد أن جواده تعرض لاصابة قاتلة ، ومن ثم وقع فى الأسر •

وأرسل تيمور قوة لتعقب سليمان ، الذى هرب الى بروسا Brusa ومعه قدر كبير من كنوز والده • وفى اللحظة التى وصل فيها جيش تيمور الى بروسا ، كان سليمان قد غادرها ، لذلك اكتفى المغول بسلب ونهب ذلك المركز التجارى المهـم واشعال الحرائق به • وبدون أدنى معارضة ، وانتشرت القوات المغولية فى آسيا الصغرى الى هيليسبونت Hellespont . الايجى Aeagean ينهبون ما يقابلهم فى طريقهم ، وسار تيمور من خلفهم على مهل تماما • وبحلول شهر ديسمبر وصل تيمور الى مدينة سميرنا Smyrna ، احدى ممتلكات فرســان القديس حنا ، وآخر القلاع المسيحية فى آسيا الصغرى • وكان الأتراك قد فشلوا فى محاولاتهم العديدة للاستيلاء على المدينة ، بيد أن تيمور لم يقض سوى أسبوعين تقريبا أمام أسوارها • وكالعادة يعود الفضـل الى جنود تيمور المتخصصين فى اجتياز استحكامات العدو سرا اذ عجلوا بحسم الأمر عن طريق حفر نفق تحت الاستحكامات • وعندما سقطت الاستحكامات ، أعمل رجال تيمور السيف فى رقاب الحامية والسكان •

وعاد تيمور فى ذلك الحين الى سمرقند • لقد أنجز ما قد خطط

لتنفيــذه • ووافقت القسطنطينية ، وبيرا Pera على دفع التقدمة (*) الى تيمور ، وكذلك فعل سليمان بن بايزيد ، وفرج سلطان مصر • ويقال أن تيمور عامل بايزيد معاملة طيبة ، على الرغم من أن تيمور كان يسجن بايزيد ليلا ، ويسمح له بالتجول نهارا فى محفة يحملها اثنان من الخيول ، ومحاطة بشبكة حديدية • ولابد أن هذه الشبكة الحديدية تشير الى القصة الباكرة عن أن بايزيد ظل حبيسا فى قفص من حديد ، وأنه مات من سوء المعاملة ، وهى القصة التى رفضها جيبون Gibbon باعتبارها قصة خيالية • ومع ذلك ، يبدو أن صحة بايزيد تدهورت على الفور ، ومات فى أوائل مارس ١٤٠٣ م • ولم يمهل القدر تيمور طويلا بعد ذلك • اذ لم يكد يصل الى مدينــة سمرقند حتى بدأ استعداداته الفورية لارسال حملة الى الصين • وغادر المدينــة فى أواخر ديسمبر ١٤٠٤ م ، بيد أنه شعر بالمرض بعد وقت قصير ومات فى التاسع عشر من يناير • ودفن فى سمرقند فى تابوت من الابنوس •

ان النتيجة الرئيسية للمعركة الكبرى التى دارت فى أنقرة ، كانت فترة الراحة التى نعمت بها القسطنطينية لمدة خمسين عاما بفضل انتصار تيمور • وكان من الممكن أن تسقط هذه المدينة الكبرى فى أيدى الأتراك سنة ١٤٠٢ م بدلا من سنة ١٤٥٣ م • وعلى الرغم من أن سقوطها الفعلى كان أمرا حتميا ، فان الخمسين عاما مكنت غرب أوربا من استرداد أنفاسهــا بعد الكارثة التى حدثت فى نيقوبوليس Nicopolis ولو لم يتوقف طريق الأتراك فى الغزو فى موقعة أنقرة ، لما اقتصر الأمر على احتلالهم القسطنطينية ، فى وقت قصير ، فحسب ، وانما كان من الممكن أن يمتد الى احتلال بوادابست Budapest ، وفيينــا Vienna أيضا • ومن المهم أيضــا أن الأتــراك نقلوا عاصمتهم الآسوية ، بعد أنقرة من بروسيا Brusa الى أدريانوبل Adrianople ، وهى خطوة شجعتهم على تركيز جهودهم فى التوسع فى أوربا بدلا من الشرق الأدنى •

(*) التقدمة ، Tribute هى مبالغ من المال كانت تدفع بصفة منتظمة مقابل عدم الاعتداء • وكانت روما تفرضها على الشعوب الخاضعة لها ـ المترجم •

PREFACE

1. Fletcher Pratt, **The Battles That Changed History** (New York : Hanover House, 1956), p. 12.
2. Helen Waddell, **The Desert Fathers** (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1957), p. 35.
3. J. Otto Maenchen-Helfen, **The World of the Huns** (Berkeley : University of California Press, 1973), p. xxvi.

CHAPTER 1 : MEDIEVAL WARFARE

1. See H. Mattingly, trans., **Tacitus on Britain and Germany** (Harmondsworth : Penguin Books Ltd., 1951), p. 112.

CHAPTER 2 : THE BATTLE OF CHALONS

1. Dante, who refers to Attila as a «scourge on earth,» has him plunged in a river of boiling blood. **Inferno,** XII, 135.
2. Jordanes, **The Origins and Deeds of the Goths,** trans. by Charles Mierow (Princeton : Princeton University Press, 1908), pp. 39-40.
3. **Ammianus Marcellinus,** trans. by John Rolfe, **The Loeb Classical Library** (Cambridge : Harvard University Press, 1939), III, pp. 381-87.
4. J. Otto Maenchen-Helfen, **The World of the Huns** (Berkeley : University of California Press, 1973), p. 204.
5. They may be more precisely classified as Indo-Iranian nomads. They were the only non-Germanic people of the migration period to make important settlements in western Europe.

6. The exact «legal» relationship of the Vandals with the empire remains a point of dispute. They may have enjoyed the status of **foederati.** See Frank M. Clover, «Flavius Merobaudes, A Translation and Historical Commentary,» Transactions of the American Philosophical Society, 61 (1971), pp. 52-54.
7. From a fragment (**Fragmenta Historicorum Graeconum**) cited by Maenchen-Helfen, **The World of the Huns,** p. 38.
8. Jordanes, **The Goths,** p. 57.
9. C.D. Gordon, **The Age of Attila** (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1960), p. 95.
10. Ibid., p. 96.
11. This was a title held by the leading generals in the eastern Roman Empire. In the western empire it became the rule in the fifth century, for only one man to have that title. He was, therefore, the commander in chief.
12. «I disregard the often told melodramatic story of the vicious Princess Honoria, her clandestine engagement to Attila, and what follows from it. It has all the earmarks of Byzantine court gossip.» Maenchen-Helfen, **World of the Huns,** p. 20
13. Jordanes, **The Goths,** pp. 57-58.
14. The **laeti** were Germans who had been settled on lands within the empire. In return for these lands they were to do military service. **Foederati** were troops supplied by allied peoples along the frontier who were pledged to defend that frontier.
15. Of four Frankish units listed in the **Notitia Dignitatum** in c. 425, all were cavarly regiments. See Bernard S. Bachrach, **Merovingian Millitary Organization** (Minneapolis : University of Minnesota Press, 1972), p. 14.
16. «I refrain from trying to reconstruct the tactics of the battle ; and such attempt only leads to arbitrary suppositions. The confused and contradictitory information of Jordanes reveals that he himself had no understanding of how the battle took its course.» Ulf Tackholm, «Aetius and the Battle on the Catalaunian Fields,» **Opuscula Romana,** 7 (1969), p. 267.
17. Bernard S. Bachrach, **A History of the Alans in the West** (Minneapolis : University of Minnesota Press, 1973), p. 66.

18. This is how Jordanes describes the situation : «The battlefield was a plain rising by a sharp slope to a ridge, which both armies sought to gain, for advantage of position is a great help. The Huns with their forces seized the right side, the Romans, the visigoths and their allies the left, and then began a struggle for the yet untaken crest.» Jordanes, **The Goths,** p. 61.

19. Charles Oman in his **History of the Art of War** (London : Methuen, 1898), p. 21, credits the defeat of Attila to the Visigothic cavalry, which rode down the more lightly armed Hunnic horsemen.

20. **Cambridge Medieval History** (Cambridge : University Press, 1963), I, p. 398.

CHAPTER 3 : THE BATTLE OF THE YARMUK

1. J. J. Saunders, **A History of Medieval Islam** (New York : Barnes and Noble, 1965), p. 14.
2. Philip K. Hitti, **History of the Arabs** (London : Macmillan, 1970), p. 25.
3. Ibid., p. 19.
4. Andreas N. Stratos, **Byzantium in the Seventh Century** (Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 19/2), p. 43. Also see Hitti, **Arabs,** p. 26.
5. Hitti, **Arabs,** p. 145.
6. See the description of Khalid's maneuver, p. 72.
7. Philip K. Hitti, **The Origins of the Islamic State,** a translation of the *Kitab* **Futuh Al-Buldan** (Beirut : Khayats, 1966), p. 211.
8. Stratos, **Byzantium,** p. 49, n. 162.
9. Stratos, Byzantium, p. 47, n. 50.
10. Hitti, **Arabs,** p. 150.
11. Omar, in Mecca, must have been confident his Arabs would destroy the Byzantine army, since here at this critical stage in the campaign he demonted Khalid, his ablest general, and gave the command of the Arab forces to another. See note 13.

12. Of such Arab allies, Edward Gibbon observed : «Their service in the field was speedy and vigorous ; but their friendship was venal, their faith inconstant, their enmity capricious.» **The Decline and Fall of the Roman Empire** (New York : Random House, 1932), III, p. 64.

13. Khalid had actually been relieved of his command by Omar just before the battle, but Abu Ubayda, the man who replaced him, kept this information a secret until victory had been won, lest the transfer of authority arouse dissension among the Arab chieftains. Omar did not doubt Khalid's generalship, rather his lack of administrative ability, which the conquered area would most need in the years to come.

CHAPTER 4 : THE BATTLE OF HASTINGS

1. Frank Stenton, **Anglo-Saxon England** (Oxford : Clarendon Press, 1943), p. 588.
3. A castle of the simple mott and **bailey type is shown in the** 1957), p. 16
3. A catle of the simule motte and **bailey type is shown in the** Bayeux Tapestry. The motte was a mound of earch surmounted by a palisade and a wooden keep and girdled by a ditch. Around this was a courtyard, called a **bailey,** which was in turn protected by a ditch and a palisade. Here the garrison had its quarters and supplies. Under heavy attack the men would men inside the **motte** area.
4. The chronicler says Harold «was pierced in the eye,» although this is doubted.
5. See G.N. Garmonsway, trans., **The Anglo-Saxon Chronicle** (London : J.M. Dent and Sons Ltd., 1933), p. 199.

CHAPTER 5 : THE BATTLE OF HANTTIN

1. As quoted in T.S.R. Boase, **Kingdoms and Strongholds of the Crusaders** (London: Thames and Hudson, 1971), p. 126.
2. See Charles Oman, **A History of the Art of War** (London :

Methuen, 1898), pp. 306-14, for this quotation and those immediately following.

3. Oman, Art of **War,** p. 67.

CHAPTER 6 : THE BATTLE OF BOUVINES

1. William, Eleanor's first son by Henry, died in infancy. **Four** sons reached maturity : Geoffrey, Henry, Richard, and John.

2. The wound was caused by a bolt shot from a crossbow.

3. See also J.F. Verbruggen, **The Art of Warfare in Western Europe during the Middle Ages** (New York : American Elsevier, 1976), pp. 223-28, who suggests 5,000 or 6.000 foot soldiers for Philip's army, 7,500 for Otto's.

4. Ibid., p. 228.

5. Ibid., p. 236. Verbruggen believes 169 imperial knights were slain.

CHAPTER 7 : THE BATTLE OF CRECY

1. The staple was essentially the principle market or trading center.

2. A son, born posthumously, died five days after birth.

3. One chronicler says the rain reduced the tensile qualities of the crossbow cords. See Charles Oman, **A History of the Art of War** (London : Methuen, 1898), u. 610, note 1.

4. Edouard Perroy, **The Hundred Years War** (London : Capri-corn Books, 1951), p. 119.

CHAPTER 8 : THE BATTLE OF ANGORA

1. See J. H. Sanders, trans., **Tamerlane, or Timur the Great Amir,** from **The Arabic Life by Ahmed Ibn Arabshah** (London : Luzac and Co., 1936), pp. 1-2.

2. See Walter J. Fischel, **Ibn Khaldun and Tamerlane** (Berkeley : University of California Press, 1952), p. 47.

3. The terms Mongol. Tatar, and Tartar are used indiscriminately, although Mongols and Tatars were originally distinct tribes

in Mongolia. **Tartar** is a corruption of **Tatar.** The term was applied to Mongols by medieval Christians possibly because they looked upon these Mongols as demons from the underworld **(tartarus).**

4. Arnold Toynbee, **A Study of History** (abridgement of volumes 1-7) (New York : Oxford University Press, 1946, vol. 1, 345.

5. Thomas Ollive Mabbott, ed., **Collected Works of Edgar Allen** Poe (Cambridge : Harvard University Press, 1969), vol. 1, p. 33.

6. Hilda Hookham, **Tamburlaine the Conqueror** (London : Hodder and Stoughton, 1962), p. 198.

7. See H. Mattingly, trans., **Tacitus on Britain and Germany** (Harmondsworth : Penguin Books Ltd., 1951), p. 80.

8. Edward Gibbon, **The Decline and Fall of the Roman Empire** (New York Random House, 1932), vol. 2, p. 1253.

9. See Sanders, **Tamerlane,** pp. 300-301.

10. See Fischel, **Ibn Khaldun and Tamerlane,** p. 35.

11. John Bourchier, trans., The Chronicle of Froissart (London : David Nutt, 1903), vol. 6, p. 193 (modernized).

12. See Sanders, **Tamerlane,** p. 173.

13. Michael Prawdin, **The Mongol Empire : Its Rise and Legacy,** 2d ed. (London : G. Allen and Unwin, 1967), p. 495.

14. Lynn Montross, **War Through the Ages, rev. 3d ed.** (New York · Harper, 1960), p. 219.

BIBLIOGRAPHY

CHAPTER 1 : MEDIEVAL WARFARE

Bachrach, Bernard S. **Merovingian Military Organization** 481-751. Minneapolis : University of Minnesota Press, 1972.

Beeler, John. Warfare in Feudal Europe, 730-1200. Ithaca : Cornell University Press, 1971.

Blair, Claude. **European Armour circa 1066 to circa 1700.** London : H. Milford, 1915.

Cleator, P.E. **Weapons of War.** New York : Crowell, 1968.

Creasy, Edward. **The Fifteen Decisive Battles of the World.** London : H. Milford, 1915.

Delbruck, Hans. **Geschichte Der Kriegskunst.** Dritter Teil. Das Mittelalter. Berlin : W. de Gruyter, 1964.

Dupuy, R. Ernest, and Dupuy, Trevor N. **The Encyclopedia of Military History from 3500 B.C. to the Present.** New York : Harper and Row, 1970.

Fuller, J.F.C. **The Decisive Battles of the Western World,** vol. 1. London : Byre and Spottiswoode, 1954.

Fuller, J.F.C. A Military History of the Western World. New York : Funk and Wagnalls, 1954.

Hewitt, John. **Ancient Armour and Weapons in Europe.** Graz Akademische Druck u. Verlagsanstalt, 1967.

Lot, Ferdinand. **L'Art Militaire et les Armées au Moyen Age en Europe et dans le Proche Orient,** vol. 2. Paris : Payot, 1946.

Mitchell, Joseph B., and Creasy, Edward S. **Twenty Decisive Battles of the World. New York :** Macmillan, 1964.

Montross, Lynn. War Through the Ages, rev. ed. New York : Harper, 1960.

Oman, Charles. **A History of the Art of War : The Middle Ages from the Fourth to the Fourteenth Century,** vols. 1 and 2. London : Methuen, 1924.

Pratt, Fletcher. The Battles That Changed History. New York : Hanover House, 1956.

Verbruggen, J. F. **The Art of Warfare in Western Europe During the Middle Ages.** New York : American Elsevier, 1977.

Wise, Terence. **Medieval Warfare.** New York : Hastings House, 1976.

Zook, David and Higham, Robin. **A Short History of Warfare.** New York : Twayne, 1966.

CHAPTER 2 : THE BATTLE OF CHALONS

Bachrach, Bernard S. **A History of the Alans in the West.** Minneapolis : University of Minnesota Press, 1973.

Bury, J.B. **History of the Later Roman Empire,** vols. 1 and 2. New York : Macmillan, 1958.

Cambridge Medieval History, vol. 1, The Christian Roman Empire and the Foundation of the Teutonic Kingdoms. Cambridge : Cambridge University Press, 1936.

Gibbon, Edward. **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.**

Gordon, C.D **The Age of Attila.** Ann Arbor : University of Michigan Press, 1960.

Hodgkin, Thomas. **Italy and Her Invaders,** vol. 2 Oxford : Clarendon Press, 1892.

Hutton, Edward. **Attila and the Huns.** London : Constable, 1915.

Jones, A.H.M. **The Later Roman Empire, 284-602.** Oxford : B. Blackwell. 1964.

Jordanes, **The Origins and Deeds of the Goths,** translated by Charles Mierow. Princeton : Princeton University Press, 1908.

Maenchen-Helfen, J. Otto. **The World of the Huns.** Berkley : University of California Press, 1973.

Thompson, E.A. **A History of Attila and the Huns.** Oxford : Clarendon Press, 1948.

CHAPTER 3 : THE BATTLE OF THE YARMUK

Brokelmann, Carl. **History of the Islamic Peoples.** London : Capricorn Books, 1949.

Cambridge Medieval History, vol. 4, The Eastern Roman Empire. Cambridge : Cambriuge University Press, 1923.

Gibbon, Edward. **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.**

Glubb, John Bagot. **The Great Arab Conquests.** London : Hodder and Stoughton, 1963.

Hitti, Philip K. **History of the Arabs.** London : Macmillan, 1970.

Jenkins, Romilly. **Byzantium : The Imperial Centuries A.D. 610-1070.** New York : Random House, 1966.

Saunders, J. J. **A History of Medieval Islam.** New York : Barnes and Noble, 1965.

Shaban, M.A **Islamic History A.D.** 600-750. Cambridge : Cambridge University Press, 1971.

Stratos, Andreas N. **Byzantium in the Seventh Century.** Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 1972.

Vryonis, Speros. **Byzantium : Its Internal History and Relations with the Muslim World.** London : Varioum Reprints, 1971.

CHAPTER 4 : THE BATTLE OF HASTINGS

Barlow, Frank **William I and the Norman Conquest.** New York : Collier, 1965.

Brooke, Christopher. **Europe in the Central Middle Ages, 962-1154.** New York : Rinehart and Winston, 1964.

Broke, Christopher. **From Alfred To Henry III, 871-1272.** Edinburgh : T. Nelson, 1961.

Douglas, David C. **William the Conqueror.** Berkeley : University of California Press, 1964.

Hollister, C. Warren. **Anglo-Saxon Military Institutions.** Oxford : Clarendon Press, 1962.

Hollister, C. Warren. **The Impact of the Norman Conquest.** New York : Wiley, 1969.

Korner, Sten. **The Battle of Hostings, England, and Europe,** 1035-1066. Lund : C.W.K. Gleerup, 1964.

Loyn, H.R. The Norman Conquest. London : Hutchinson, 1965.

Poole, Austin Lane **Medieval England.** Oxford : Clarendon Press, 1958.

Sayles, G.O. **The Medieval Foundations of England.** London : Methuen, 1948.

Stenton, Frank. **Anglo-Saxon England.** Oxford : Clarendon Press, 1943.

Stenton, Frank. **The Bayeux Tapestry.** London : Phaidon Press, 1965.

CHAPTER 5 : THE BATTLE OF HATTIN

Baldwin, M.W. **Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem,** 1140-1187. Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 1969.

Boase, T.S.R. **Kingdoms and Strongholds of the Crusaders.** London : Thames and Hundson, 1971.

Brundage, James A. **The Crusades : A Documentary Survey.** Milwaukee : Marquette University Press, 1962.

Gabrieli, Francesco, trans. **Arab Historians of the Crusades.** London : Routledge and Kegan, Paul, 1969.

Hindley, Geoffrey. **Saladin.** London : Constable : 1976.

Hitti, Philip K. **History of the Arabs** London : Macmillan, 1970.

La Monte, John L. **Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291.** Cambridge : Medieval Academy of America, 1932.

Lane-Poole, Stanley. **Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem.** Beirut : Khayats, 1964.

Mayer, Hans Eberhard. **The Crusades,** translated by John Gillingham. Oxford : Oxford University Press, 1972.

Munro, Dana C. The Kingdom of the Crusaders. New York : Appleton-Century, 1935.

Setton, Kenneth M., ed. **A History of the Crusades,** vol. 1, The First Hundred Years, edited by M.W. Baldwin. Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1955.

Smail, R.C. **Crusading Warfare,** 1097-1193. Cambridge : Cambridge University Press, 1956.

CHAPTER 6 : THE BATTLE OF BOUVINES

Appleby, John T. **John, King of England.** New York : Knopf, 1959.

Barraclough, Geoffrey. **The Origins of Modern Germany.** Oxford : B. Blackwell, 1947.

Cambridge Medieval History, VI, Victory of the Papacy. Cambridge : Cambridge University Press, 1929.

Fawtier, Robert. **The Capetian Kings of France,** translated by Butler and Adam. New York : St. Martin's Press, 1962.

Hampe, Karl. **Germany under the Salian and Hohenstaufen Emperors, translated by Ralph Bennett.** Oxford : B. Blackwell, 1973.

Kantorowicz, Ernest. **Frederick II,** translated by E. Lorimer. London: Constable, 1931.

Packard, Sidney R. **Europe and the Church under Innocent III.** New York · Holt, 1927.

Painter, Sidney. **The Reign of King John.** Baltimore : Johns Hopkins Press, 1949.

Petit-Dutaillis, Charles. **The Feudal Monarchy in France and England.** London : K. Paul, Trench, Trubner, 1936.

Poole, A.L. **From Domesday Book to Magna Carta, 1087-1216.** Oxford : Clarendon Press, 1951.

Smith, Charles E. **Innocent III : Church Defender.** Baton Rouge :

Louisiana E. Innocent III : Church Defender. Baton Rouge : Louisiana State University Press, 1951.

CHAPTER 7 : THE BATTLE OF CRECY

Burne, Alfred H. **The Crecy War.** London : Eyre and Spottiswoode, 1955.

Cambridge Medieval History, VII Decline of Empire and Papacy. Cambridge : Cambridge University Press, 1923, 1932.

Froissart. Chronicles.

Gibbon, Edward. **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.**

Hay, Denys. **Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries.** New York : Rinehart and Winston, 1966.

Jenkins, Helen. **Papal Efforts for Peace under Benedict** XII, 1334-42. Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1933.

Lucas, H.S. **The Low Countries and the Hundred Years War.** Ann Arbor : University of Micnigan Press, 1929.

McKisack, May. **The Fourteenth Century.** Oxford : Clarendon Press, 1959.

Perroy, Edouard **The Hundred Years War.** London : Capricorn Books 1951.

Power, Eileen. **The Wool Trade in English Medieval History.** Oxford University Press, 1941.

Ramsay, James. **Genesis of Lancaster, 1307-99,** vol. 1. Oxford : Clarendon Press, 1913.

CHAPTER 8 : THE BATTLE OF ANGORA

Atiya, Aziz Suryal. **The Crusade in the Later Middle Ages.** London **: Methuen, 1938.**

Cambridge Medieval History, vol. 8, The Close of the Middle Ages Cambridge : Cambridge University Press, 1936.

Fischel, Walter J. **Ibn Khaldun and Tamerlane.** Berkeley : University of California Press, 1952.

Gibbon, Edward. **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.**

Grousset, René. **The Empire of the Steppes : A History of Central Asia,** translated by Naomi Walford. New Brunswick : Rutgers University Press, 1970.

Hookham, Hilda. **Tamburlaine the Conqueror.** London : Hodder and Stoughton, 1962.

Inalcik, Halil. **The Ottoman Empire, translated by Norman Itskowitz** and Colin Imber. London : Weidenfeld and Nicolson, 1973.

Lamb, Harold. **Tamerlane the Earth Shaker.** New York : R.M. McBride, 1928.

Le Strange, Guy. **Clavijo's Embassy to Tamerlane 1403-6.** London : G. Routledge and Sons, 1928.

Prawdin, Michael. **The Mongol Empire : Its Rise and Legacy.** London : G. Allen and Unwin, 1967.

Tamerlane, or Timur the Great Amir, translated by J.H. Sanders from **The Arabic Life By Ahmed Ibn Arabshah.** London : Luzac, 1936.

Vernadsky, George. **The Mongols and Russia.** New Haven : Yale University Press, 1953.

Waugh, W.T. **A History of Europe from 1378 to 1949.** New York : Methuen, 1932.

فهرس

ـ تصدير ٥

١ ـ الحرب فى العصور الوسطى ٧

٢ ـ معركة شالون ٢٣

٣ ـ معركة اليرموك ٥٧

٤ ـ معركة هيستنجز ٧٩

٥ ـ معركة حطين ١٠٣

٦ ـ معركة بوفين ١٣٣

٧ ـ معركة كريس ١٥٧

٨ ـ معركة أنقرة ١٨١

ـ المراجع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣١٩١ / ١٩٨٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٣٢٤ ـ ٧

يضم هذا الكتاب بين صفحاته سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى تركت كل واحدة منها بصماتها التاريخية .

والكتاب جديد فى فكرته . ألفه الأستاذ جوزيف داهموس أستاذ تاريخ العصور الوسطى بالولايات المتحدة الأمريكية . ثم قدّم المؤلف فصلاً رائعاً عن الحرب والأسلحة فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب . وقد أنصف المؤلف بذكره معركتى اليرموك وحطين ضمن تلك المعارك الفاصلة . وليس من المبالغة فى شيء القول بأن هذا الكتاب جامع وشامل ؛ إذ قدم المؤلف الأسباب والأحداث والنتائج بمنهج علمى سليم .